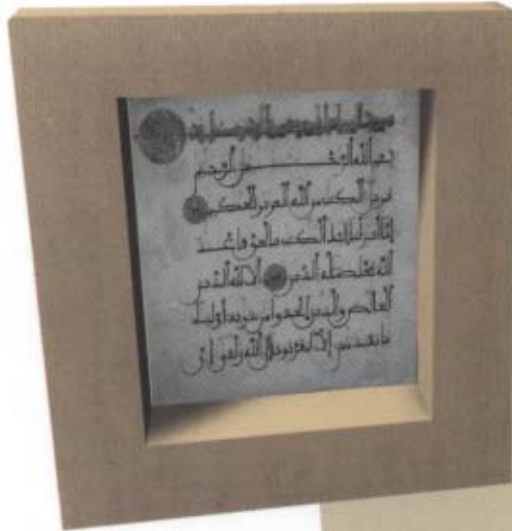


الأستاذ الدكتور / سعيد عطية علي مطاوع



الإعجاز القصصي في القرآن



دار الآفاق العربية

نشر - توزيع - طباعة
٥٥ - ش محمود طلعت - من ش الطيران
مدينة نصر - القاهرة
تليفون : ٢٦١٧٣٣٩ - تليفاكس : ٢٦١٠١٦٤
E-mail : daralafk@hotmail.com

اسم الكتاب : الإعجاز القصصى فى القرآن
اسم المؤلف : الأستاذ الدكتور / سعيد عطية على مطاوع

رقم الإيداع : ٢٠٠٦ / ٥٧٧١
التقييم الدولى : 2 - 148 - 344 - 977

الطبعة الأولى
٢٠٠٦م

جميع الحقوق محفوظة للناسر



الاعجاز القصصى فى القرآن

الأستاذ الدكتور / سعيد عطية على مطاوع
رئيس قسم اللغة العبرية - جامعة الأزهر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا
الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (يوسف: ٣)

بِسْمِ اللَّهِ
الْعَظِيمِ

مقدمة

إن التعمق في الفكر الديني الإسلامي ودراسته دراسة واعية ليبرهن على أن الإسلام يتميز بمنهج علمي وتطبيقي يواكب تطورات الحياة وتبدلات الزمان، والقصة القرآنية من أهم الوسائل التي استخدمها الإسلام - على الرغم من تطورات الحياة - لتغذية العقول وتهذيب النفوس، والترويح المنشود، فهي تفتح في النفس البشرية مغالق الإلهام، عندما تعايش أنبياء الله ورسله في رحلتهم مع أقوامهم ... كي تأخذ عنهم، وتعلم على أيديهم، وثبت معهم، فالقصة في القرآن باب من أبواب البيان القرآني العظيم ... ففيه من إعجاز القرآن ما في سائر أبوابه من التوحيد والوعد والوعيد، والفضائل والأخلاق والسلوك والتشريع، ومن هنا عنيت في هذا البحث إلى دراسة الإعجاز الأدبي في القصص القرآني من بيان معجز للإنس والجن وسائر العقلاء البلغاء فالإتيان بقصة من قصص القرآن الكريم لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين، ويتضح لنا ذلك القصور البشري في أن الأديب منهم أو الشاعر يضع خطبة أو مقالة أو أقصوصة أو قصيدة، يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينقح فيها وهو غير راضٍ عنها، ثم تُعطى لأحد غيره فيأخذها بقرينة خاصة، فيبدل فيها وينقح، وعلى الرغم من كل ذلك تبقى فيها مواضع تحتاج لإعادة النظر والتبديل، أما القصة القرآنية فلو نزعنا منها مشهدا أو تعبيراً أو حتى لفظة، ثم استدعي الأدباء المفكرون لما وجدوا أحسن منها، رغم ما هم فيه من براعة وسلامة الذوق وجودة القرينة.

فدراسة القصة القرآنية وتحليل عناصرها الأدبية من حوار وأحداث وشخصيات وزمان ومكان تقود إلى إبراز الإبداع القصصي القرآني والإعجاز

البياني، فالحجة تؤدي إلى الإقناع العقلي، أو التأثير الوجداني فيغذي المشاعر ويسمو بالنفس، والجديد في هذه الدراسة هو تطبيق المعايير والأصول المقررة في الأدب القصصي كوسيلة لدراسة القصة القرآنية من أجل تعميق ارتباط الجانب الأدبي فيها بالتأثير الديني . فلكل عصر أسسه الفكرية والعقلية والوجدانية التي تختلف عنها في عصور أخرى، فالمسلمون اليوم ليس لأكثرهم ذلك الذوق الفطري السليم وتلك السليقة التي كانت تهمز مشاعر ووجدان وأحاسيس أهل الجزيرة العربية حين نزول القرآن بروعة بيانه وبتدبير نظمته، ولئن تعذر على المسلمين اليوم إدراك أسرار الإعجاز البياني في قصص القرآن الكريم لبعدهم عن العربية الفصحى في حديثهم اليومي، فليدركوه بلغة العصر التي سادت فيه طريقة التحليل الأدبي، بعد أن أصبحت دراسة القصة وتحليلها وسيلة شيقة لإبراز قيمتها في الغرض والمحتوى، والكشف عن أسرارها الفكرية والوجدانية لتنبه الناس إليها وترغيبهم في قراءتها قراءة عميقة متأنية.

ومن هنا فإن البحث في الإعجاز القصصي القرآني ما زال يحتاج إلى العديد والعديد من الدراسات، فقد ترك لنا القصص القرآني ثروة هائلة من البيان العربي تُفنى الأعمار في تحصيلها، وهي خالدة باقية لمن شاء أن يفيد ويتعلم .

أهداف البحث:

لاشك أن البحث يشرف بموضوعه وغايته، والبحث في الإعجاز القصصي القرآني من الوجهة الأدبية من أشرف الموضوعات وغايته أسمى الغايات، فما أحوج البشرية اليوم إلى أن تتمعن قصص القرآن وتتدبر سورته، فتأخذ منها العبر والدروس، وتمثلها واقعاً وسلوكاً وعملاً وأخلاقاً .

إن دراسة القصص القرآني في بيانه وبرهانه، وصدقه وعلمه، حاملاً وصايا الله، وقصص الأسلاف من الأنبياء والرسل، وكما عملوا صادقين في طاعة الله ... ينتظر صحتنا ويتعجل نهضتنا، ويضيء لنا الطريق .. بقدر ما نستلخص منهجه المباشر في صدقه البياني، وصدقه العلمي، في منهجنا الصحيح للتعبير عن حركة الواقع،

وحركة المجتمع في الأدب والقصص، والتاريخ والسير.

إن منهج القصص القرآني القائم على الحق، والمتبع لسنن الله في حركة الواقع الاجتماعي بالصدق، يجب أن يكون هو الركيزة الأساسية لأي دراسة تحليلية ونقدية لأدب القصة وهي دراسة تكون نواة لنظرية أدبية متكاملة، تكون منطلقاً صحيحاً إلى دراسات عربية أكثر اتساعاً وأعظم أثراً، على طريق الحقيقة البيانية في علم الإنسان، كما سجلها منهج القرآن الكريم في قصصه قبل أي مذهب اجتماعي حديث، أو أية فلسفة معاصرة، وهي أن الإنسان في سلوكه ولغته نتاج بيئته، وأنه من الممكن دائماً في عدل الله وحكمته تغيير فكر الإنسان ومنهج تعبيره وسلوكه إلى ما هو أفضل، أو إلى ما هو أسوأ - بتغيير عوامل البيئة المحيطة به .

فرضيات البحث:

يفترض البحث أن القصص في كل ما يدور به في لغة العرب، وفي حياتهم، وفيما أورده القرآن الكريم، هو أخبار صادقة صدق التتبع العلمي للحقائق، حتى وإن يكن في ثوب الأدب والبيان بحيث تكون أمام من غاب كمن حضر، وعند من سمع كمن رأى ..

إن الجانب القصصي في القرآن بوصفه أعظم المصادر وأوثقها في أيدي العرب، لهو منهج متميز في قصص القصص باللغة العربية - تكفي للكشف عن الفارق الذي يبلغ ما بين القصص القرآني وقصص الشعوب واللغات الأخرى من الأساطير والروايات والمسرحيات - حد بين الجد والهزل، وما بين الصدق والكذب، وما بين الإسلام والوثنية .

إن كلمة " القصص " في القرآن الكريم ترجع في جذرها اللغوي، ومعناها الاصطلاحي، حسبنا نشير إلى ذلك في داخل البحث، من أصلها ومعناها في علم اللغة العربية، تعني تتبع الخبر والحديث على وجه الحق والصدق فيه . وهو تتبع لا مجال فيه قط للخيال أو المبالغة، كما أنه تتبع لا تقصر حكمته على الصدق البياني للخبر والصدق التاريخي، وإنما يرتبط دائماً بهذا الصدق أن يكون الخبر القصصي كما

يقصّه القرآن جزءاً حياً من حركة التاريخ، ينزل الله به أمام أعين المؤمنين وأسماعهم، ليشهدوا ويعوا دلالة السنن التي حكمت مسيرة البشر ومصائرهم في الماضي حكماً علمياً مقنناً لا تحوّل فيه ولا تبدّل . فالغاية من القصص القرآني ليست مجرد الإعلام بما حدث من أخبار الأمم والشعوب بالتتبع الصادق لأخبارها، وإنما الغاية أن يكون هذا القصص نفسه هادياً للمؤمنين إلى الطريق الصحيح الذي يتبعون به خطى من سلف من المؤمنين، الذين اختاروا الهدى بالله عن علم، ونبذوا الضلالة والإلحاد عن برهان وبقين.

-يقول الله تعالى في سورة يوسف ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِينَ ﴾ ثم يقصّ الله بعد ذلك قصة يوسف وإخوته . فالقصص الحسن هنا ليس الرواية المتخيلة من الواقع، وليس " الرواية المصنوعة " بمحاكاة الواقع، وإنما هو التاريخ، والخبر، وحقيقة ما كان . إنه مشاهد التاريخ في حركة وصور وأصوات ليست في حقيقتها - كما تصدر عن المتحرّكين والمتكلمين في هذا القصص الحق - إلا حركة القوانين التي تحكم البشر بمشيئة الله إلى غايته . إنها حركة قوانين وسنن التاريخ من خلال أشخاص لا يمكن أن ننسى مواقفهم، لأنهم في جميع كلماتهم وحركاتهم لا يتجاوزون التعبير عن هذه السنن والقوانين التي تنطق فيهم، إلى التعبير عن مشاعرهم الخاصة، أو التعرض للتفاصيل التي تنتقص من كمال دلالتهم على قانون بشري عام يسري به الزمان والمكان على جميع نوع الإنسان . ولذلك فقد عاشت هذه القصص الصادقة وهي تقنن سنن التاريخ إلى اليوم دون أن يطرأ على تأثيرها والعظة بها أي تغيير .

منطقية البحث

إن دراسة القرآن الكريم، واستعراض قصصه ومراميه، واتجاهاته وغاياته، هي الطريقة المنطقية التي تقود إلى الثقة والإيمان، فكمال الأداء القرآني في تصوير المشاهد القصصية، هو من الدين في صدقه، ومنهجته، وأهدافه ... وأعظم ما يميزه أنه يخلص إلى العظة في الخبر الذي يقصّه، وإلى العلم الذي يستخلصه من الخبر، وإلى

الآية المضيفة التي يرفعها أمام أعين المؤمنين، دون أن يتعرض القارئ أو المنصت إلى ما يثير غريزته، أو إلى ما يستفز خياله كاذب، أو خاطر معيب .

وقد جعلت الإعجاز القصصي في القرآن الكريم ركيزة هذه الدراسة، فعلى الرغم من قبول القصص القرآني للمعايير والمقاييس البنائية للقصة الحديثة إلا أنه ينأى تماماً عن التخيل وذلك بالتزام الحقائق والمقومات التاريخية عند بناء الأحداث، ويعرفها على الوجه الذي يراه أشد تأثيراً، وأكثر استجابة لدواعي البناء القصصي.

الأبحاث السابقة

ولمكانة القصص القرآني وقيمتها في تغذية العقول وتهذيب النفوس، تناوله بالشرح والتحليل والتفسير كثير من الباحثين والمفسرين قديماً وحديثاً، وهي دراسات ومؤلفات وتفسيرات أدين لها بالفضل في التحصيل، والتوجيه، منهم من خصص الدراسة لقصة واحدة أو قصتين، ومنهم من اعتمد على طريقة بسيطة تعنى بالتفاصيل دون الإشارة إلى الإعجاز الأدبي واللغوي في بناء القصص، وذلك بتفصيل أحداث القصة مع تحديد زمانها ومكانها وتعيين أشخاصها، وذلك لإشباع رغبات المتطلعين إلى هذا القصص القرآني، وخاصة ما يتعلق منه بتاريخ بدء الخليفة وسير الأنبياء والرسل والأمم الغابرة، إلا أن هذه الطريقة لم تتحرر الدقة في بعض من هذه الكتب فيما جمعت من مصادر عُرف عنها اهتمامها بالخرافات والأساطير والقصص المنقولة عن اليهود والنصارى .. مما يجعل التوراة والإنجيل مهمين على القرآن . وقد ذكرت هذه المؤلفات والكتب والبحوث السابقة في ثبوت المراجع في نهاية الدراسة .

الإطار النظري للبحث

وهو مدخل تمهيدي لا بد منه قدمت فيه تمهيداً موجزاً لدراسة الأدب القصصي عامة، أثرت أن تتبع فيه النقاط التالية:-

أولاً: القصة وتطورها العام: تحدثت فيها عن نشأة القصة وتطورها في الأدب بصفة عامة، ثم فن القصة عند العرب خاصة.

ثانياً: عناصر القصة وخصائصها: وفيها تعرضت لتعريف القصة، ثم عناصرها من أحداث وشخصيات وزمان ومكان وعقدة وحل.

ثالثاً: أهداف القصة: أوضحت فيها أهم أهداف القصة وذلك لارتباط هذه الأهداف بالأصول الفنية الخالصة في الإبداع القصصي.

وقد أفاد هذا المدخل كثيراً في توضيح الدور العظيم للقصة من حيث اهتمامها بمشكلات الإنسان وعصره، حيث يصدر فيها الإنسان، لا علي أنه أنموذج عام يصلح لكل عصر وبيئة، ولكن علي أنه مخلوق حي ذو جوانب نفسية متعددة، ثم انتقلت بعد ذلك إلى دراسة أدب القصة في القرآن الكريم:

وقد قسمت هذه الدراسة إلى أربعة فصول:

الفصل الأول: وعنوانه: أنواع القصة في القرآن الكريم. عناصرها وأغراضها.

وقد تناولت فيه الفروق اللغوية بين القصة والخبر والنبأ والحديث، والتي كانت مستخدمة في القرآن الكريم كثيراً وإن كان قد فرّق بينها في المجال الذي استعملوا فيه جرياً علي ما قام عليه نظمه من دقة وإحكام وإعجاز . ثم انتقلت بعد ذلك إلى عرض أنواع القصة في القرآن الكريم وبيّنتُ فيه أن القرآن استخدم - في أغراضه الدينية - كل أنواع القصة: القصة التاريخية والقصة الواقعية والقصة التمثيلية والقصة العاطفية والقصة الرمزية أو الإيحائية كقصة هبوط آدم من الجنة وذلك لما تحمله في جوهرها من إيجاعات نفسية .

ثم انتقلت بعد ذلك إلى عرض عناصر القصة في القرآن الكريم ومن خلال عرض هذه العناصر، اتضح لنا أن عناصر الأحداث والأشخاص والحوار والزمان والمكان لا توجد مجتمعة في كل قصة قرآنية بل موزعة التوزيع الذي يجعل لكل عنصر منها قيمته وخطره في القصة بحيث لو اختفي لاختل التوازن الفني وانهدّ

ركن من أركان البناء، والحقيقة أن ذلك ربما يرجع إلى أن توزيع العناصر في القصة القرآنية كان يتبع الغرض الديني حيث نرى إن عنصر الأحداث هو العنصر البارز في الأقايص التي يقصد منها إلى التخويف والإنذار، وعنصر الأشخاص هو العنصر البارز في الأقايص التي يقصد منها إلى الإفاضة والإيحاء أو تثبيت المؤمنين، وعنصر الحوار هو العنصر البارز في الأقايص التي يقصد منها إلى الدفاع عن الدعوة الإسلامية والرد علي المعارضة وهكذا ..

ثم انتقلت بعد ذلك إلى أغراض القصص القرآني مبيناً المكانة العظيمة للقصة القرآنية وقيمتها في التوجيه النفسي، وفي الهداية إلى الحق والطريق المستقيم .
أما الفصل الثاني فقد جعلته للحديث عن:

الخصائص اللغوية والأسلوبية .

ومن خلال هذه الخصائص يتضح الكمال في الأداء بلا تغير ولا اختلاف من مستوي إلى مستوي، حيث يحمل طابع الصفة الإلهية ويدل علي الصنع الذي لا يتغير من حال إلى حال وقد بيننا أن أهم الخصائص اللغوية في القصص تدور حول جهات ثلاث: في الحروف، والكلمات والجمل، أما الخصائص الأسلوبية فقد عرضت لها من زاوية التركيب الأدبي للعناصر القصصية وما له من تأثير نفسي وفني علي القارئ.

أما الفصل الثالث فقد دار حول:

القصة بين الإكمال والتوزيع في القرآن الكريم: حيث لاحظ الدارسون والباحثون للقصة القرآنية إنه لا يلتزم فيها بالسرد القصصي ولكن يلتزم فيها بالوصول إلى الغاية من القصة ووفقاً لذلك نرى من القصص القرآنية ما تقدم كاملة الأحداث والمواقف في معرض واحد - كما في قصة يوسف - ومنها ما تقدم في حلقات، يخص بكل حلقة منها معرض يتطلب هذه الحلقة من القصة فحسب ولذلك تعرضت في هذا الفصل إلى نقطتين: الأولى: توزيع القصة الواحدة في القرآن

الكريم ومثلنا علي ذلك قصة موسى، وقصة إبراهيم، وبعد أن بينت وحدة الموضوع ووحدة الجو النفسي في هاتين القصتين، انتقلت إلى عرض النقطة الثانية وهي:

القصة الكاملة في القرآن الكريم: أي القصة التي وردت في حلقة كاملة في موضع واحد في القرآن الكريم نحو ما كان في قصة يوسف عليه السلام، وبينت أن طبيعتها تستلزم هذا اللون من الأداء، فهي رؤيا تتحقق رويداً رويداً، ويوماً بعد يوم، ومرحلة بعد مرحلة. فلا تتم العبرة بها - كما لا يتم التنسيق الفني فيها - إلا بأن يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها.

ونأتي بعد ذلك إلى ختام فصول هذه الدراسة وهو الفصل الرابع وعنوانه:

الإعجاز البلاغي والبياني في قصص القرآن الكريم: تطرقت فيه إلى بيان مفهوم الإعجاز في القرآن الكريم عامةً وفي القصص القرآني خاصةً من خلال تفسير مصطلحي البيان والبلاغة في القصة القرآنية ثم بيّنت إعجازها في المعاني والأفكار والأسلوب والإيجاز، ثم قدّمت لمحة من البلاغة الصوتية في القصة القرآنية بإيجازها وإيقاع صيغها وانسجام تأليفها.

وذلك حتى تكتمل أهداف البحث وأغراضه من توجيه الوعي الإسلامي الوجهة الرشيدة في القيام برسائله الأدبية الإنسانية فقد أنهيت هذا البحث بخاتمة تتضمن أهم ما أمكن التوصل إليه من نتائج أرجو أن أكون قد وفقت إليها، وحسبي أنني اجتهدت فإن كنت قد أصبت فذلك فضل من الله وإن كانت الأخرى فحسبي قول الرسول الكريم ﷺ: " من اجتهد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد". صدق رسول الله ﷺ

وبالله التوفيق

أ.د / سعيد عطية علي مطاوع

أستاذ الأدب المقارن - قسم اللغة العبرية

كلية اللغات والترجمة

المدخل

القصة وتطورها العام

لا شك أن الأنواع الأدبية تتطور من عصر إلى عصر، وقد يتولد بعضها من بعض، فيظهر نوع أدبي جديد لا سابقة له في الظاهر، لكن التعمق في دراسته يكشف عن أنه قد نشأ عن نوع آخر مغاير له، كما في نشأة الأقصوصة عن المثل.

إن الفن الأدبي بأنواعه كافة هو مرآة تعكس التغيرات اللغوية أو الاجتماعية أو السياسية لعصر من العصور، ولا يعني هذا أن الفن محاكاة للواقع الطبيعي كما هو عليه، بل هو محاكاة نقدية لهذا الواقع تظهر من خلالها موقف الفنان ومدى تأثره بالطبيعة ومن ثم تصبح القصة عرضاً لفكرة مرت بخاطر الكاتب أو تسجيلاً لصورة تأثرت بها مخيلته، أو بسطاً لعاطفة اختلجت في صدره، فأراد أن يعبر عنها بالكلام ليصل بها إلى أذهان القراء ومن هنا يمكننا القول بأن المشهد القصصي الذي يصوره القاص هو عبارة عن مشهد واقعي صور في أسلوبه التعبيري وطريقة حدسه هذه الصورة المشاهدة في الطبيعة.

كيف نشأت القصة ؟

يقول د. محمد حسين هيكل: " من اليسير أن يقدر الإنسان قدم القصص، وأنه نشأ مع الإنسانية منذ نشأت " (1) فالقصة تقال في كل مكان، بين الشعوب البدائية، وعند أشد الأمم رقياً، ولو أنها في الحالة الأولى تفتقد نية القيام بعمل فني (2).

" إن الحياة من أولها إلى آخرها قصة تتكرر في صور مختلفة باختلاف الأفراد، واختلاف الأزمنة والأمكنة التي يعيشون فيها.. ويكفي أن نرجع إلى التاريخ الديني، وإلى الكتب المقدسة نفسها، فهذا التاريخ يقص علي الناس من أخبار من تقدمهم ما فيه موعظة وعبرة؛ والتاريخ نفسه ليس إلا قصصاً يسبغ عليه كل مؤرخ

من خياله ما يسبغ على حياته قوة وفضياً .. ولذلك كثيراً ما يلجأ المؤرخون إلى ما كتب في عصر من العصور من قصص، وما وضع أهله من رسائل يستلهمون هذه الصور الحية من فنون الأدب ليرسموا صورة صحيحة .. هذه الصلة الوثيقة بين القصص والتاريخ هي التي جعلتنا نستشهد بالتاريخ الديني للدلالة على قَدَمِ القصة، كذلك مما جعلنا نستشهد بهذا التاريخ أنه لم يرو ما روى من قصص السابقين بقصد تحقيق وقائعها وتدوين تفاصيلها، وإنما رواها عبراً ومزدجراً، والرواية للعبرة والزجر تقتضي اختيار وقائع معينة من حياة مَنْ سبقوا يكون فيها موضع العبارة، كما تقتضي صياغة هذه الوقائع في الأسلوب القوي الذي يدخل العبارة إلى النفس ولو كانت بطبيعتها جامدة عن أن تفهمها " (3) ولا جدال في وجود أنواع أدبية تدور في فلك القص والحكي، كالحكاية الشعبية والملحمة والخرافة، والأسطورة، ومن هذه الألوان فن القصة الذي نحن بصددده.

تطوّر الفن القصصي:

ينظر العلماء إلى تطور القصة من زاويتين: أولهما تطوّر مفهوم القصة في الآداب العالمية تطوّراً تضافرت فيه الآداب جميعاً ..

وثانيهما تطورها في الأدب العربي ..

أولاً: تطوّر القصة في الآداب العالمية:

القصة في نشأتها الطويلة - كانت تختلط فيها الحقائق الإنسانية بالأمور الغيبية، ولذلك عندما نتحدث عن نشأة القصة، علينا أن نتبع الأدب ذا الطابع القصصي في مطلع ما نطلق عليه تجاوزاً القصة، والأدب القصصي فالملاحمة على سبيل المثال تمثلت فيها - منذ نشأتها - عناصر مسرحية في إنشادها ومواقفها، وكان فيها كذلك عنصر قصصي، كما كان يفهم من معنى القصة في القديم، فوجدت في الملحمة عناصر مهدت للنثر القصصي الخيالي في الأدب اليوناني (4).

ثم ظهر النثر القصصي أول ما ظهر، في الأدب اليوناني في القرن الثاني والثالث

بعد الميلاد، وتمثل النموذج العام لأحداث هذه القصص في افتراق حبيبين تفصل بينهما أخطار مروعة، ومنافسات خطيرة، يفلتان منها بطرق عجيبة غير مألوفة، ثم تختم ختاماً سعيداً بالتقاء الحبيبين .. أما في الأدب الروماني، فقد ظهرت القصة - أول ما ظهرت - في أواخر القرن الأول بعد الميلاد على نحو مخالف للقصص اليونانية، في بادئ الأمر، كما يتجلى ذلك في قصة " ساتريكون " التي ألفها " بترنيوس "، ثم تأثرت بالقصص اليونانية، وأشهر القصص التي يمثل بها لذلك التأثر قصة " أبوليوس " في مسخ الإنسان إلى حيوان ثم إعادته إلى حالة الأولى⁵.

أما القصص في الآداب الأوربية منذ عصر النهضة، فقد نشأت وتمت معتمدة على ما وصل إليها من التراث الشرقي والأدب اليوناني والروماني، وتأثرت كذلك بالروح المسيحية، وفي هذا العصر، كذلك، سبقت قصص المخاطرات غيرها من القصص، وكثيراً ما اعتمدت على الأساطير والجنيات وخوارق العادات ... وقد تأثرت القصص في أوروبا - منذ عصر النهضة بملاحم العصور الوسطى وما زحرت به من معاني البطولة، ولكنها نزعت نزعة إنسانية أوضح من ذي قبل، فظهرت " قصص الفروسية " التي اتسمت بطابع المثالية في الوصف، ... ثم ظهرت بعد ذلك " قصص الرعاة " وهي وصف خيالي لعالم الرعاة والراعيات: على أن هذا النوع من القصص قد تقدم على غيره خطوات نحو الواقع، إذ جنح الكتاب فيه إلى وصف أماكن واقعية في بلادهم جعلوها مجال الحوادث، التي دارت بين أبطال قصصهم . . . وفي القرن السادس عشر والسابع عشر، ظهر في الأدب الإسباني جنس جديد من القصص وهو " قصص الشُّطَّار "، وهي قصص العادات والتقاليد للطبقات الدنيا في المجتمع - وفيها مخاطرات يقصّها المؤلف على لسانه كأنها حدثت له: " Picaresca " وهي ذات صبغة هجائية للمجتمع ومن فيه، وقد كان لهذا النوع من القصص، الفضل في خلو القصص من العناصر الخارقة للمألوف، وفي اتخاذ حوادث الحياة العادية أساساً للموضوعات القصصية، فأخذت القصة تتخلص من تأثير الملاحم، وتلقى أضواءً على حياة الطبقات الدنيا من الناس، وإن ظلت الناحية الفنية مختلفة في هذه القصص، فكان سرد الأحداث

يكاد يستأثر بعناية المؤلف كلها، والتحليل النفسي يكاد يكون مهملاً في هذا النوع من القصص بعامة، ويكثر فيها الاستطراد، وترتيب الأحداث ترتيباً زمنياً لا رابطة فنية فيه، وكثيراً ما يتدخل المؤلف نفسه مباشرة في قصصه لشرح غاياتها التربوية والخلقية ... ثم تأثرت القصة بازدهار الكلاسيكية في القرن السابع عشر، فدعا كثير من النقاد إلى أن تكون حوادث القصة ممكنة في سياقها لتتجرد من آثار ما فوق الطبيعة ... ومع نهوض المسرح الكلاسيكي تطلعت القصة إلى التحليل النفسي، ثم ظهرت اتجاهات حديثة أخرى في أواخر القرن الثامن عشر، فعنى الكتاب بالفرد ونزعاته ومثله، وجعلوا منه وحدة الإصلاح في مجتمعهم . وكانت هذه قضية من أخطر قضايا الرومانتيكيين ومن أتى بعدهم . . ثم قام المذهب الواقعي ثم الطبيعي على أنقاض المذهب الرومانتيكي، فقربت القصة من الواقع، وأصبح الكاتب يتبع في قصته الواقع على حسب منهج في البحث منظم استقصائي يجمع فيه معارفه باطلاعه على وقائع الحياة اليومية الفردية والاجتماعية ويرتب هذه الوقائع لتكون مجالاً يحرك فيه شخصياته^(٤).

ومنذ "الواقعية" و "الطبيعية" اكتمل المفهوم الحديث للقصة، بعد أن خطا الخطوات التي أوجزنا القول فيها، فتخلصت أولاً من العالم الغيبي والقوى العجيبة التي كانت تدينها من الملاحم ثم من العالم الأرستقراطي الذي كانت تهتم فيه بطبقة خاصة هي الذروة من المجتمع ولا تمثله، ثم لم تكتف بعد ذلك بالنزول إلى أغوار المجتمع لتسبر مشكلاته، بل غاصت كذلك في الجوانب المظلمة، جوانب السوء في الأفراد والجماعات من أجل إصلاحها وعلاجها .

فن القصة عند العرب:

انقسم الباحثون عند تعرضهم لتأصيل فن القصة عند العرب . فمنهم من يرى أن العرب عرفوا فن القصة، ومنهم من يرد هذا الفن إلى أوروبا، ومن هؤلاء الذين أنكروا على العرب معرفتهم لفن القصة: "إسماعيل أدهم، وإبراهيم ناجي" في كتابهما عن "توفيق الحكيم" حيث قالوا: "إن الذهنية العربية تنقصها الطاقة إلى

التجرد من الذاتية، وجعل الظواهر الموضوعية في طبيعتها الموضوعية، فمن هنا كان الفن العربي مظهرًا لتفتح ذاتية الفنان على نفسه، ومن هنا كان في أغراضه فردياً: لأن الفنان يعيش في غماره، ولا تتجلى له الأشياء في تطورها التاريخي، ولهذا كانت القصة والمسرحية غريبتين على فن العرب "، ويصل إسماعيل أدهم إلى تسويغ نشأة القصة في الأدب العربي بقوله " لم تنشأ القصة والأقصوصة في الأدب العربي الحديث من أصل عربي قديم كالمقامات والقصص الحماسية كما يظن البعض، إنما نشأ فن القصص مترعراً في الأدب العربي الحديث تحت تأثير الآداب الأوربية مباشرة"⁽³⁾.

ويقول " محمد غنيمي هلال ": " إن القصة لدى العرب لم تكن من جوهر الأدب كالشعر والخطابة والرسائل مثلاً، ولذا كانت ميدان الوعاظ، وكتاب السير والوصايا، والسهام يوردونها شواهد قصيرة على وصاياهم وما يذكرون من حكم . . . ويقول: لو أننا عددنا مثل هذه الحكايات قصصاً لكانت القصة أقدم صورة للأدب في العالم لأن كل الشعوب الفطرية تسمر على هذا النحو البدائي"⁽⁴⁾.

ويأخذ بعض الأدباء على القصة العربية القديمة " أنها لم تعن حق العناية بتصوير ملامح الأشخاص، وسمات الهيئات، وإن كانت لتتم عن كثير من صفات النفس وطبائع الفطرة"⁽⁴⁾.

وعلى الجانب الآخر يقول " محمود تيمور": أكاد أزعم أن الأمة العربية لا ينافسها غيرها فيما صاغت من قوالب للتعبير عن القصص والأشعار به، فنحن الذين قلنا من غابر الدهر: " قال الراوى "، " ويحكى أن ... " و " كان يا ما كان " ... إلى آخر تلك الفواتح التي يمهد بها القصص العربي في مختلف العصور لما يسرد من أقاصيص " . . . وفي ردّه على إنكار فن القصة عن العرب يقول: " سارعنا إلى الإنكار على الأدب العربي أنّ فيه قصة، وما كان ذلك الإنكار إلا لأننا وضعنا نصب أعيننا القصة الغربية، في صياغتها الخاصة بها، وإطارها المرسوم لها، ورجعنا نتخذها المقياس والميزان، وفتشنا عن أمثالها في أدبنا العربي، فإذا هو قد خلا منها أو

يكاد، وشدّ ما أخطأنا في هذا الوزن والمقياس، فللأدب العربي قصص ذو صبغة خاصة به، وإطار مرسوم له، وهو يصور نفسية المجتمع العربي، فلا يقصّر في التصوير، وإننا لنشهد فيه سماتنا وملاحنا واضحة، وكأننا لم نفقد في مجتمعا العربي - حتى اليوم - ما يكشف عنه ذلك القصص من ملامح وسمات، على الرغم من تعاقب العصور وتطاول الأمد، وهو في جوهره وثيق الصلة بالوشائج الإنسانية التي هي جوهر القصص الفني، وإن تباينت الصياغة واختلف الإطار " (١٠٠).

والحق أنه كان للأرض التي نبتت العرب فيها، وعاشت عليها، وللعقيدة التي تدين بها عمل في تحديد حظها من الخيال، وتعيين نمطها من القصص القديم. فأما الأرض فذات طبيعة يغلب عليها السكون والاستقرار، لا تأخذها أعاصير جائحة، ولا براكين ثائرة، ولا زلازل راجفة، سماؤها صافية، وكواكبها بادية مستقرة وأما العقيدة فوثنية يسيرة. لكنها غالبية، تعبد الإله الذي اتخذته من دون الله رباً، فتختصه بالعبادة، أو تتقرّب به إلى الله زلفى. لا تعرف آلهة تقسّم الكون، وتوزّع السلطان وأسرار الغيب. فكان لذلك خيالها قصير المدى، قريب المتناول، كأنه لقطات الطائر، أو خفقات الريح، يستطيع أن يحكى وينسق، وأن يصور ويبدع، ولكن في غير تهويل ولا استرسال مع الأوهام والخرافات، عينه على الواقع، ومذاهبه دائماً على هداه. إن هي إلا أحداث تساق، ومشاهد تعرض في مساوره غول، أو توهم جن، أو أخذ عن رثى كاهن، أو شيطان شاعر، أو حوار ذي مغزى من الحكمة والموعظة يدور على ألسنة الحيوان، أو ما يشابه ذلك من جوانب الحياة في الصحراء. (١٠١)

ولا شك أن الأدب الجاهلي كان يصور الحياة والإنسان في العصر الذي كان مقدمة مقصودة لنزول القرآن الكريم بالعربية دون سواها: " فإذا كان القرآن الكريم هو صاحب الفضل في صمود هذه اللغة وازدهارها وبقائها حية متطورة، فإن الشعر الجاهلي كان مفتاحاً لدى الباحثين والدارسين في مدارسة النص القرآني والغوص وراء أسراره العليا " (١٠٢).

وفي هذا الصدد يقول " طه حسين " : " إن الأمة العربية في جاهليتها وإسلامها

- وما أعقبها من عصور أدبية زاهية - كانت تتمتع بحياة نقدية راقية، والدليل على ذلك ما بلغته الأمة حينذاك من الفصاحة والبلاغة " . . . ويقول: " ولدنا أبلغ دليل على تمكنهم من الفهم والنقد وهو نزول القرآن فيهم بهذا المستوى الرفيع من الإعجاز" (١٣).

والقرآن الكريم أصدق المصادر في الإنباء عن حياة العرب باتفاق الموافقين والمخالفين، فإذا حدثنا القرآن بشيء عن العرب أخذناه أخذ الواثق بصحته، المطمئن إلى صدقه حتى نصل إلى نتيجة علمية واضحة، فقد وصف منها ما يغلب على الظن صدقه حتى نصل إلى نتيجة علمية واضحة، فقد وصف القرآن الكريم العرب بالفصاحة، وذراية اللسان، فقال في قوم أظهروا الإيثار والودادة، وأضرموا الكفر والعداوة: ﴿أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفَ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِاللِّسَانِ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ (سورة الأحزاب من آية ١٩).

ونعتهم بالطول في البلاغة فقال: " وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ " (البقرة: ٢٠٤).

وخصّهم بالتفوق في البيان فقال: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ﴾ (المنافقون من آية ٤) ووسمهم بقوة العارضة والدهاء، إذ قال: وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكَرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿ (إبراهيم: ٤٦).

وسجّل عليهم اللد في الخصومة، والجدل في المحاوراة بقوله: ﴿ وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ (الزخرف: ٥٨) وبقوله: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَا بِهِ لِسَانَكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ (مريم: ٩٧).

وذكر عنهم أنهم أولو أحلام ونهى فقال: ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ (الطور: ٣٢).

والحقيقة أن الطبيعة والعقل تؤيدان أن الجاهليين كان لهم نثر أدبي، فليس هناك مانع يجعل ذلك مستحيلاً أو معدوماً، وإذا كان لهم شعر فلا بد أنه كان لهم نثر يتحلل فيه القائل من قيود الشعر التي قد تقف أمام الأديب فلا يستطيع أن يلتزمها، وقد تحدّاهم القرآن بأن يأتوا بمثله أو بعضه، والقرآن الكريم ليس شعراً، والتحدّي لا يكون له معنى إلا إذا كان في الناحية التي يزعم المتحدّي أن له فيها نبوغاً، ويدّعى لنفسه عليها قوة واقتداراً، ومن ثمّ لا بدّ أن الله قد أعجز أمة ذات قدرة فائقة على النثر^(١١).

إذاً، هل كانت تلك الأوصاف كلها، وهذا التحدّي للعرب، وهم فارغون من أدب يغذى عقولهم، ويربى نفوسهم تربية أدبية تقوم على التفاضل بما يجلب الألباب ويستميل الأسماع، من منطق حسن وكلام بليغ، وبيان بديع في فنون من المعارف الإنسانية الأدبية يستحقون بها تلك الأوصاف^(١٢).

ثانياً: عناصر القصة وخصائصها

إن كل دراسة نظرية، رغم تحاشيها لصعوبات التحديدات النظرية، تنطلق من مجموعة من المسلمات النظرية التي تحتاج إلى كثير من التأمل والتمحيص، وتؤدي بغموضها إلى تسطيح الدراسة التطبيقية . . . ودراستنا هذه لا تزعم لنفسها القدرة على تقديم نظري شامل لمصطلح القصة الذي يغطي القصة بكل خصائصها الفنية، ولكنني أسلم من البداية أن أي فن إبداعي حقيقي يستعصى بطبيعته على التعريفات الجامعة المانعة، ويأبى أن تحتويه أية قوالب جامدة . . . ولكنها تطمح كأبي محاولة في النقد النظري إلى استقرّاء واقع القصة، وإلى تقصي بعض خصائصها البنائية والجمالية - ومن ثمّ فإنها لا تدّعي طرح أية نظريات شاملة في هذا المجال، ولا حتى محاولة الوصول إلى تعريف لبعض عناصر العمل القصصي الأساسية، وإنما همّها هو التعرف على ملامح هذه العناصر، وطبيعة عملها داخل العمل القصصي، حتى تمهد الطريق أمام البحث في تحديد مفهوم القصة القرآنية، والقصة في التوراة، وتحديد أوجه الاتفاق والاختلاف بينها .

أتعريف القصة:

القصة: فن قولي درامي، يسعى إلى خلق عالم إبداعي مواز في علاقاته للعالم الواقعي الذي يعيشه القصاص، من خلال تجارب الفكر، أو تجارب العاطفة أو تجارب الخيال " (١٧) .

أو بمعنى آخر القصة هي " التعبير عن الحياة، بكل تفصيلاتها وجزئياتها كما تمر في الزمن، ممثلة في الحوادث الخارجية والمشاعر الداخلية، مع فارق واحد، وهو أن القصة اختيار وتنسيق، اختيار لحادثة أو عدة حوادث، تبدأ وتنتهي في زمن محدود، وتصور غاية معينة، وتساق جزئياتها سياقاً معيناً ليؤدى إلى تصوير هذه الغاية " (١٨) .

" وكل قصة جيدة تعبر في وحدتها عن وحدة فلسفتها ومفهومها للعالم، وهذا المفهوم ليس انعكاساً لمعرفة محصلة تهدف إلى توضيحه، وإنما هو قبل أي شيء شكل من الإحساس بالعالم وبالحياة، وترجمة لموقف منه، ومحاوله الانسجام معه وبذلك يمكن القول إن القصة: حكاية أدبية - تدرك لتقص - قصيرة نسبياً - ذات خطة بسيطة - وحدث محدد - حول جانب من الحياة - لا في واقعها العادي والمنطقي - وإنما طبقاً لنظرة مثالية ورمزية - لا تنمى أحداثاً وبيئات وشخصاً - وإنما توجز في لحظة واحدة، حدثاً ذا معنى كبير " (١٩) .

والحقيقة أن هناك تعريفات كثيرة للقصة لا يتسع المجال هنا لذكرها وإنما يمكن القول إن النقد الأدبي لم يستقر على مصطلح ثابت لهذا الجنس الأدبي، وقد يكون مرجع ذلك لاتساع مجالات القصة وتنوعها، فليس الواقع المحدود الصغير هو مجال القصة وحده، وإنما هو الواقع الأبدي - كما يبدو خلال الواقع الوقتي، وهو النماذج الإنسانية - كما تبدو من خلال الشخصيات القصصية، وهذا الأمر يعود إلى مدى إبداع كل قاص: ولكن يمكننا القول في بساطة شديدة إن القصة جنس أدبي وسط بين الأقصوصة والرواية، وليس المقصود الحجم فقط، إنما في المحيط الذي تشمله حيث إنها تقوم على محور ضيق محدود من الشخصيات والأحداث والمشاعر .

مادة العمل القصصي:

عندما نتكلم عن مادة العمل القصصي، نقول " إن القصة الإنسانية قد تتمثل عظمتها في مستصغر المشاهد، كما تتمثل في الأحداث الجسام، وقد تتجلى براعتها في دقائق الموضوعات وبسائطها، كما تتجلى في الشؤون التي تملأ الدنيا وتشغل الناس، وقد تظهر مهارتها في ضعاف الشخصيات وضئالتها، كما تظهر في شخصيات السيادة والتبرير . . . فالمعول في القصة على ما فيها من جوهر أصيل، تدور حوله مشاهد القصة وحركاتها وأسلوب معالجتها، وما هذا الجوهر إلا بضعة إنسانية فيها تبصرة بحقائق الحياة . . . واستخلاص لسرائر النفوس"^(١٥).

" ويستطيع القصاص الجيد في نطاق الحدود الدقيقة التي تحكمه من الزمن والحدث والعاطفة والاهتمام والخبر المحدود، أن يجعل الإبداع النفسي عابراً على الدوام، بسيطاً وواضحاً، ومن خلال خطوط قليلة عادية، ولكنها صلبة دائماً، وفي خدمة القصص، دون أن يعنى ذلك بأية حال أن القصة الجيدة تتطلب شخصيات ذات بساطة فكرية، أو نفسيات غير معقدة"^(١٦)

ولذا يتضح أن مادة العمل القصصي ترجع إلى مصدرين هما:-

(أ) الخبرات الذاتية التي يحصلها الكاتب من خلال تجاربه الخاصة .

(ب) الخبرات التي يحصلها من خلال تجارب الآخرين، ولكن بشرط أن يهضمها ويتمثلها جيداً حتى تصبح كأنها خبراته الخاصة، ويكون صادقاً مع نفسه في كل ما يكتب، وبهذا يستمد عمله القصص من خبراته وخبرات الآخرين .

عناصر القصة:

استقرت الحركة النقدية على مجموعة من الأساسيات التي رأت أنها تشكل قواعد الخلق الحقيقي في فن القصة، ومن هذه الأساسيات ما يتصل بعناصر العمل القصصي، فوضعوا إطاراً خاصاً، يضم مجموعة من العناصر الأساسية وهي:-

١- الحادثة.

٢- الشخصوص.

٣- الزمان والمكان .

٤- البناء ويتضمن العقدة والحل .

أولاً: الحادثة:

وتسمى الحكاية، وهى من أهم الخصائص التي تتميز بها القصة، فهي تمثل العمود الفقري للقصة، " وهى التي تجعل القارئ يتشوق إلى معرفة الأحداث، وإذا افتقدت القصة عنصر التشويق أصبحت بلا روح، وتبعث الملل في النفس " (٣١).

وتتكون الحادثة من بداية ووسط ونهاية، فالبداية، أو الموقف عند بعض النقاد، ينشأ منها موقف معين، وتنمو لتبلغ الوسط، أو المرحلة التالية، وتتجمع كلها لتنتهي إلى النقطة الفاصلة، وهو سبب وجود الحادثة في الأصل، ولذلك يسمى النقاد المرحلة الأخيرة - وتمثل نهاية الحادثة - لحظة التنوير: ولكن وجود حكاية تنطوي على هذه الأقسام من بداية ووسط ونهاية، لا يعنى دائماً، وبالضرورة، أنها تصور حادثة، فقد تجى أخبار متعددة تتجاوز، وليست حادثة تنمو طبيعياً، وتترابط أجزاءها، كل جزء يرتبط بسابقه، ويؤدى إلى ما يليه، حتى يبلغ غايته " (٣٢).

" وتصوير الشخصية وهى تعمل لا يكفي لاكتمال الحادثة، فالحادثة المتكاملة هي تصوير الشخصية، وهى تعمل عملاً له معنى .. فكل قصة تعالج ما تعالج، وتعنى ما تعنى فقط في نطاق الحادثة المعينة التي تصورها وليس خارج هذا النطاق، ولذلك فكل لها معناها المعين الذي يميزها عن غيرها من الأحداث، وهذا المعنى ينشأ من الحادثة نفسها، فهي جزء لا يتجزأ منها ... وبدون المعنى لا يمكن أن يتحقق للحادثة الاكتمال، لأن أركان الحادثة الثلاثة وهى الفعل والفاعل والمعنى وحدة لا يمكن تجزئتها، فليس للفعل والفاعل قيمة إن لم يكشف عن معنى " (٣٣)

ثانياً: الشخصيات:

" الأشخاص في القصة مدار المعاني الإنسانية، ومحور الأفكار والآراء العامة، ولهذا المعاني والأفكار المكانية الأولى في القصة منذ انصرفت إلى دراسة الإنسان وقضاياها، إذ لا يسوق القاص أفكاره وقضاياها العامة منفصلة عن محيطها الحيوي،

بل ممثلة في الأشخاص الذين يعيشون في مجتمع ما، وإلا كانت مجرد دعاية، وفقدت بذلك أثرها الاجتماعي، وقيمتها الفنية معاً، فلا مناص من أن تحيا الأفكار في الأشخاص وتحيا بها الأشخاص، وسط مجموعة من القيم الإنسانية يظهر فيها الوعي الفردي متفاعلاً مع الوعي العام، في مظهر من مظاهر التفاعل، على حسب ما يهدف إليه الكاتب، في نظرته إلى هذه القيم، وفي أغراضه الإنسانية، ولا مناص من اتساق هذه الأغراض مع الغرض الفني، وهذا مظهر الصراع النفسي أو الاجتماعي يقوم به الأشخاص ضد المجتمع وعوامل الطبيعة . وقد يقوم به الشخص ضد نفسه " (٣٠) .

رسم الشخصيات:

من المنفق عليه بشكل عام أن الحوادث في معظم القصص الجيدة تنتج على نحو منطقي من طبائع الأشخاص الذين تضمهم هذه القصص، وقد يقدم الكاتب أشخاصه بطريقتين عامتين:-

بطريقة مباشرة: بإبلاغ القارئ بصفات الشخص وخصائصه .

(ب) من خلال الحدث، بإظهار أفعال الشخص الذي يمكن معرفة شخصيته من خلالها .

" والطريقة الأولى كثيرة الشيوخ بالنسبة للشخصيات الثانوية، أما بالنسبة للشخصيات الرئيسة فنستخدم كلتا الطريقتين عادة " (٣١) .

والأشخاص - في القصص بعامة - نوعان: ذوو المستوى الواحد، ثم الشخصيات النامية، والشخصية ذات المستوى الواحد هي الشخصية البسيطة في صراعها، غير المعقدة، وتمثل صفة أو عاطفة واحدة، وتظل سائدة بها من مبدأ القصة حتى نهايتها، ويعوزها عنصر المفاجأة، أما الشخصيات النامية فهي التي تتطور وتنمو قليلاً قليلاً، بصراعها مع الأحداث أو المجتمع، فتتكشف للقارئ كلما تقدمت في القصة، وتفاجئه بما تعنى به من جوانبها وعواطفها الإنسانية المعقدة (٣٢) .

ثالثاً: الزمان والمكان:

وجود الزمن عنصر أساسي في القصة، فبدون الزمن لا يمكن للقصة أن تستقيم، وعلاقة القصة بالزمن علاقة مزدوجة، فالقصة تصاغ في داخل الزمن، والزمن يصاغ في داخل القصة، والقصة تحتاج للزمن لكي تقدم نفسها من خلاله، مرحلة وراء أخرى . . . وينطوي زمن الحدث على مجموعة من الأزمنة هي: زمن الحكمة وزمن القصة، وزمن العمل القصصي نفسه، ثم زمن قراءته . . . وقبل الحديث عن هذه العناصر، لا بد من التفريق بين هذه الأزمنة المختلفة، " فزمن الحكمة " مختلف عن " زمن القصة "، لأن زمن الحكمة قد يرتب وفق أي ترتيب من الترتيبات المحتملة .

أما " زمن القصة " نفسه فهو مزيج من زمن الحكمة والزمن اللغوي الذي تصاغ فيه الأفعال أو تستخدم معه مجموعة معينة من الصيغ والاشتقاقات . . . وهنا يدخل عنصر الاستمرارية أيضاً إلى جوار عنصر الترتيب . . . بمعنى أن يفرد العمل القصصي عدة صفحات لوصف حدث يستغرق وقوعه ثانية أو دقيقة، بينما يسرد علينا ما دار في السنوات الخمس التالية لهذه الدقيقة أو السابقة عليها في جملة واحدة أو فقرة واحدة، أما زمن القراءة فهو الزمن الذي تستغرقه القراءة . . . قراءة وصف ما دار في هذه الدقيقة، والتي تحتاج منا إلى ساعة، وربما إلى ساعات، بينما يحتاج منا قراءة ما دار في السنوات الخمس إلى دقيقة أو دقائق^(٣٣).

المكان:

لا بد للحدث من مكان ما، ولا يقل المكان أهمية عن الزمن، وإن كان أكثر استقراراً من الزمن وأقل خلافة فيه، والمكان الذي تصوره القصة هو مكان قصصي قد يشابه غيره من الأمكنة التي نعرفها، ولكن له تفرده الخاص، وله واقعيته الخاصة، فمن المستحيل أن يكون مكاناً واقعياً، ليس فقط لأنه مكان مرئي من وجهة نظر شخصية ما أو كاتب ما أو موقف ما حسب الطريقة التي يقدم بها، ولكن لأنه مكان قد حدد جمالياً وأسرّ في قبضة مجموعة من الكلمات، وانتقيت

مكوناته بعد أن استبعدت منها مكونات أخرى، وأضاف له القارئ تصوره الخاص، فالمكان في القصة مكان مصاغ بمصطلح غير بصري . . . إنه مكان لا نستطيع أن نراه، وإن كان بإمكاننا تصوره، إنه مكان في زمن وهمي، وهو الزمن القصصي . . . مكان مصاغ من ألفاظ لا من موجودات و صور . . . صحيح هناك عدة طرق تستطيع بها الكلمات أن تخلق مكاناً على الورق، إما باستعمال الصفات المحسوسة التي تمكّن القارئ من تصوّر المكان بشكل واضح أو بالإشارة إلى موجودات ومكونات فعلية لهذا المكان يستطيع القارئ أن يرجع إليها، أو بالمقارنة مع أشياء وأمكنة مألوفة تمكّن كنياتها، القارئ من تصور هذا المكان . . . غير أن كل هذه الأساليب مشروطة بالعين التي يُرى المكان عبرها، وبالذهن الذي سيتصوره خلال الكلمات . . . وهي قضايا تجعل المكان القصصي أكثر خصوبة من كثير من الأمكنة الواقعية المشابهة^(٢٨).

رابعاً: البناء. ويتضمن العقدة والحل:

إن القصة المكتوبة تهذيب وتكرير، أو هي بالأحرى سلسلة كاملة من التهذيب والتكرير لهذا النوع من التسلية والمتعة، والعقدة (Plot) هي إحدى صور هذا التهذيب والتكرير، فالعقدة بصفة أساسية هي ابتكار واختراع أدبي، وهي أسلوب بسيط من أساليب تقطير أو تركيز التشعب والتهويم اللذين نجدهما في قصص البطولات القديمة، وهذا التقطير يتخذ بشكل جزئي من أجل الترفيه عن جمهور واع - جمهور يستمتع بأمور مثل الإطار والشكل، ويهوى أن يرى قصة جيدة الحبك، فيها تشويق أو مفاجأة وأن تكون قد بلغت حد التوكيد الواضح، فالعقدة هي " إطار الوقائع " أياً كانت بسيطة أو معقدة، التي تُبنى عليها القصة، أو هي حوادث الصراع المصور والمعروض كما تنتظم في وحدة فنية "، وعناصر العقدة هي: البداية التي تفترض النمو في الحدث، والوسط الذي يفترض الحدث السابق والحدث اللاحق معاً، والنهاية التي تتطلب الحوادث السابقة، ولكنها لا تتطلب حدثاً لاحقاً ووحدة العقدة هي إذاً نتيجة العلاقة والترتيب اللازمين بين الحوادث وليس بالتركيز على شخصية واحدة^(٢٩).

" ويجب أن تختتم القصة بإحكام، دون أن تترك مجالاً لثغرات جديدة أو أية شروح تالية، وليس مستحباً أن يجنح القصاص أو يسهو أو يتشاغل أو يبطئ، دون غاية، في رسم الجو أو تصوير الشخصيات، أو المناظر الطبيعية، أو الحوار، ومن الممكن طبعاً أن توجد هذه العناصر كلها في قصة، ولكن في خدمة البناء القصصي " (٣٠) .

وتختلف طريقة بناء العمل القصصي باختلاف نوع القصة طولاً وقصراً، كما تختلف وفقاً لتصوير الكاتب لإطار عمله ومادته وطريقة كاتبها من حيث عدد الفصول، والبدء والختام... والمألوف في أسلوب البناء أن يتبع الكاتب تخطيطاً محدداً بحيث تبدو الأحداث مترابطة يؤدي بعضها إلى بعض، وتتجه شيئاً فشيئاً إلى التعقيد الذي يتطلب الحل، وبذلك تسير في خط ممتد بين الهدف والنتيجة .

والأثر الفني لهذا الشكل البنائي في القصة أنه يشوق القارئ إلى الاستمرار في متابعة الأحداث في القصة حتى النهاية لكي يعرف على أي نحو تكون النتيجة .

بقي عنصر آخر له وزن في القصة، هو القيمة الشعورية، فقد كان حديثنا إلى هذه اللحظة عن القيم التعبيرية، و " المقصود بالقيمة الشعورية: الآفاق الشعورية التي يرتفع إليها الموضوع، والتي تصور في ظلها الحوادث والشخصيات . . . ولا شك أن للقيم التعبيرية - طريقة العرض وطريقة التعبير - قيمتها في تحديد قيمة القصة، ولكنها وحدها لا تستقل بالتقويم، ولا بد من النظر إلى هذه الآفاق الشعورية، ومدى مطابقة القيم التعبيرية لها . . . فبعض القصاص يصور لنا الحوادث والشخصيات بغاية الدقة والبراعة من الناحية القصصية، ولكنه لا يتجاوز بنا محيط هذه الحوادث . . . وبعضهم يقفنا - بعد الحوادث - وجهاً لوجه أمام الحياة كلها: سننها الخالدة، وأوضاعها الكونية وأقدارها الشاملة . وهذا البعض لا يجدنا عن هذه الشؤون حديثاً مباشراً، إنما يدعنا نتسرب من خلال الشخصيات المعينة إلى الإنسانية الخالدة - كما ترسم في بصيرته - فتلك الحادثة جزء وكل، وهذه الشخصية فرد وأنموذج . . . ويبلغ بعضهم في الإبداع إلى الحد الذي تصبح نماذجه

البشرية أبقى وأحى من المخلوقات الإنسانية، وتصبح أحداثه ووقائعه سمة على الكون والدهر أوضح من الحوادث التاريخية . . . وهذا المستوى أرقى من المستوى الأول بلا جدال^(٣١).

ونخرج من هذا البيان عن عناصر القصة وخصائصها الفنية، إلى القول إن هذه العناصر قد لا تجتمع كلها في كل قصة، وإنما لكل عمل ظروفه التي تخضع لظروف المؤلف، وتصرفه فيما يحكى من أحداث وشخصيات، وكيف يتدخل فنياً في عرضها . . . مع الأخذ في الاعتبار أن هذه العناصر تحتاج إلى مواهب فنية حتى تحسن الإفادة منها واستخدام ما هو ضروري في بناء حبكة القصة، فأحياناً يلعب أحد العناصر القصصية دوراً رئيساً في إحدى القصص، بينما هناك قصة أخرى تخلو منه تماماً دون أن يمس هذا - في شيء - حقيقة الجنس الأدبي أو روعة القصة وتماسك بنائها .

ثالثاً: أهداف القصة

حتم أن يكون لكل قصة هدف، وإلا كانت القصة لغواً لا جدوى له، والقاص ككل فنان آخر - مصور للحياة في مختلف ألوانها، مترجم عما يتردد في مخيلته وما يجيش في صدره من معانٍ ومشاعر، فهو إذا كتب فإنما يكتب لتصوير هذه المعاني والأهداف وإيضاح المشاعر، بل أن الهدف يتحكم أيضاً في الأصول الفنية الخالصة نفسها، وذلك لشدة ارتباط تلك الأصول بالهدف المنشود بحكم أنها ليست في النهاية إلا وسائل لتحقيق هذا الهدف، فعندما تغير هدف " التراجيديا " مثلاً من تطهير النفس البشرية بواسطة الإثارة العاطفية إلى تحليل النفس البشرية والكشف عن العناصر التي تتصارع داخلها لتوجيه السلوك - رأينا الصراع الدامي - وهو مقوم فنى أصيل - ينتقل من الصراع الخارجي بين الإنسان وقوة خارجة عن ذاته، كالقدر عند اليونان القدماء - إلى صراع داخلي يجري داخل النفس البشرية بين العقل والعاطفة، أو الحبّ والواجب، أو العواطف المتضاربة، على نحو ما حدث عند كلاسيكيي القرن السابع عشر الميلادي^(٣٢).

إذاً لا يكفي في دراسة الأدب على وجه عام، والقصة على وجه خاص أن أشير إلى أنها مرآة للمجتمع وصورة تفصح عن جوانبه ونفسيات أهله، ولكن علينا دراسة الأدب (في) المجتمع، وليس بوصفه مجرد انعكاس للمجتمع، ومع أن الفن يعمل من خلال أفراد - إذ أن مهمته تتعلق بالأفراد بما هم أفراد إلا أن مهمة الأدب الاجتماعية لا تتضح إلا عند الالتزام بنظرة الأدب إلى المجتمع في كليته؛ وللوصول إلى تلك المهمة الاجتماعية، نقول إن الأدب ليس أعمالاً جامدة، وإنما صيرورة، فالأدب والمجتمع يعيشان في وحدة جدلية، والوجود الاجتماعي لا يقوم إلا بتصميم الأدب فحسب . . . فالقول بأن الأدب " يفعل شيئاً " ليس كافياً، وإنما يجب أن يكون للوظيفة هدف وغاية، وهنا نرى أن الأدب يعمل كى يزيد من حرية الإنسان، وهو عندما يقوم بمهمته على نحو صحيح، يزيد من تحرر الإنسان، وتحرر المجتمع " (٣٣)

ويمكن القول بأن للأديب في مجتمعه مهمة يمكن أن نُجملها فيما يلي:

نقل التراث الروحي في صورة يقبلها العصر ويدفع تلك الأفكار الموروثة إلى تيار الحياة .

التعبير الصادق عن الحياة التي يعيش فيها بحيث يشعر قراؤه أنه يصوّر ما في نفوسهم من آمال وآلام .

ج- تنمية الحياة الأدبية بما يضيف إليها من مبتكرات .

وللفن القصصي فضل إلهام غيره من الفنون الجميلة، فهو أسبق من الشعر، ومن التصوير، ومن الحفر، بل من الموسيقى نفسها، إلى التقاط صورة حياة الجماعة التي يعيش فيها وإثباتها على الورق، ثم هو أقدر من هذه جميعاً على رسم أمل الجماعة في المستقبل، وتصوير المثل الأعلى الذي تصبو إلى تحقيقه " (٣٤) . . .

" إن القصة أياً كانت الحوادث التي ترويها، إنما تدل على فكرة وتتصل بمثل أعلى في نفس كاتبها . . حتى أن القصص التي تكتب للتسلية ليس غير، لا يمكن أن تخلو من التعبير عن فكره في نفس الكاتب . . أما القصص التي تعدّ بحق أدباً وفناً،

فالفكرة والمثل الأعلى يتكرران خلالها واضحين في صور مختلفة وألوان شتى " (٣٥). وعلى هذا فإننا نرى أن " القصة أعظم أداة لتحقيق التغيير والتجديد في مضمار الأدب الثري، فقد حوّلت القصة مركز الاهتمام من البلاط الملكي إلى الطبقة البرجوازية، ثم إلى الفقير والعامل، وأخيراً إلى الرجل العادي، بغض النظر إلى مركزه (٣٦)

والقصص التي حملت طابع القضايا الاجتماعية، تمثلت في اتجاهين يتلاقيان آخر الأمر هما: الفرد وحقوقه المهضومة التي تتطلب تغير النظم القائمة من ناحية، ثم ما تستلزمه سعادة الفرد بعد ذلك من تعاون اجتماعي من نوع جديد من ناحية أخرى، وصارت هذه القضايا أعمق أثراً في علاج المجتمع ومسائله منذ عنصر الرومانتيكيين، إذ صارت الطبقة الوسطى ذات أثر فعال في المجتمع، فصعدت فيه تنتقص حقوق الطبقات الأرستقراطية التي لم يكن لها مبرر. وصارت القصص من وسائل التعليم والتسلية معاً تحرك المشاعر وتوصي بالإصلاح، ويكتشف بها القارئ نواحي في نفسية المجتمع قد تغمض على المشرع الاقتصادي (٣٧)

وكانت القصص الرومانتيكية التي تدافع عن القضايا الاجتماعية تحصل الطابع العاطفي المشوب الثائر، وتثير الأفكار إثارة مباشرة خطابية غالباً، والشخصيات الرئيسة فيها ضحايا نظم المجتمع، وهم رموز لطبقات اجتماعية، يدافعون عن آرائهم أو يمثلونها في بطولة يجيد بها مؤلفها عن مجرى الحقائق المألوفة في عامة الناس، وغالباً ما كان الشر - وهو هدف الهجمات في هذه القصص - ممثلاً في صورة الظلم الاجتماعي الذي يعاني منه البائسون والفقراء . . . وهكذا قصدت القصص ذات القضايا الاجتماعية إلى تنظيم الفرد في علاقته بالمجتمع ونظمه، والتأثير المباشر في استبدال نظم غيرها، لإقرار العدالة الاجتماعية إقراراً مبنياً على الاعتقاد العميق في حق الفرد، ولهذا كثرت الآراء الحرة التي قضت قليلاً على امتياز الطبقات (٣٨).

أما القصة الواقعية والطبيعية فلم تقتصر على الوقوف عند حدود الوقائع

الطبيعية وتحاشي الأحداث العجيبة وغير المألوفة، بل أضافت إلى اهتمامها بالطبقات الدنيا والمتوسطة خاصة أخرى، هي كشف جوانب السوء والشر في النفس الإنسانية، فصورت المجتمعات والنفس المترفة فريسة للفساد وللغرائز الحيوانية التي تنمو في ظل المجتمعات المهتدة بتغير في نظمها، انتظاراً لما يعوزها من إصلاح تستقر به أوضاعها^(٣٠).

ومع ظهور الرمزية في الأدب أصبح للقصاص طريقة فنية خاصة للتعبير عن مجموعة من الأفكار الانفعالية داخله، مستخدماً الإيحاء والتلميح والإشارة، " فالرمزية قد ترتفع بالعمل الفني إلى مستوى تجريدي - وفي الوقت نفسه - تصور الجزء الغائم من النفس الإنسانية .. أي أن الرمزية تمنح الأفكار الباطنية شكلاً خارجياً"^(٣١).

ولقد آثر المربون أن يقدموا للنشء قصصاً إنسانية طبيعية من روائع القصص الذائعة مقربة إلى أذهانه بشتى أساليب التقريب، وذلك حتى يطالع النشء صفحة الحياة كما تتجلي بها الأيام، وحتى لا يقرأ شيئاً ثم يصادف في حياته عكس ما قرأ . ولذلك قدموا له صوراً من القصص الإنساني الصادق، تبصره بحقائق النفوس، وتكشف له مختلف السرائر حتى يستقيم ذوقه، وتتفتح بصيرته، فيستطيع أن يساير الحياة في غير غفلة، ولا تصنع، ولا تستر. فالقصص الإنساني هو النبع الصالح لكل من يغترف منه في مختلف مراحل العمر.. وهو نعم المؤدب لمن يلتبس منه جوهر الأدب ولباب التهذيب"^(٣٢).

ولقد نبّه محمود تيمور إلى ما يمكن أن يخدم الأدباء بعدم فهمهم لرسالة القصة فقال " لقد تناقل النقاد أن القصة رسالتها تهذيب الأخلاق وتربية النفوس، والتبصير بالمثل العليا في الحياة، فانساق فريق من كتّاب القصة وراء هذه الرسالة يحاولون أن يخرجوا قصصهم تتغني بالفضائل، وتنعي علي الشرور والآثام ... وإذا كان لهذا القصص شأن عند من يبتغون ظاهراً من نصره المثل العليا، ويقيّمون في أخيلتهم مجتمعاً فاضلاً من الناس قوامه عدل وحق وخير، فهو عند الأدباء الفنانين

قصص غير فني، برقه خُلب، وماؤه سراب.. والقصص الفني هو الذي لا يقتصر علي الجانب الواعي من حياتنا اليومية، واللون البادي من مجتمعنا الظاهر، بل يتغلغل فيما وراء الوعي، وينفذ إلى باطن الحياة والمجتمع، حتى تتجلي له تلك الطوايا التي إليها مراجع الحفز والتوجيه... والقصص الفنان هو الذي يبصرنا بالحقيقة الخافية والباعث المكنون، فيرينا من أنفسنا ما نسر، ويصارحنا من أمرنا بما نكتم، فإن لم يفعل ذلك فهو أقرب إلى أن يكون صاحب عظمات طئانة، تهتز لها المناير والمنصات، فيصفق لها السامعون ما شاءوا أن يصفقوا وقلوبهم جميعا في شغل بما يضطرم فيها من أشتات النزعات والغرائز ومن مختلف العقد النفسية والملابسات المتشابكة، تسير بها على حكمها في طوع أو على كره "١١١".

وبهذا المفهوم الواقعي لاتجاهات القصة، صارت القصة أعظم الأجناس الأدبية خطراً، وأحفلها بالآراء الفلسفية والاجتماعية والنفسية، وأمساها بمشكلات الإنسان وعصره، وفيها يصور الإنسان لا علي أنه أنموذج عام يصلح لكل عصر وبيئة، ولكن علي أنه مخلوق حي ذو جوانب نفسية متعددة، يواجه موقفاً خاصاً، وليست القصة الحديثة تقريراً عن التجربة، ولكنها تصوير حيّ للتجربة، يوحى بمعانٍ إنسانية ونفسية عامة تتراخي من خلال الموقف الخاص، وبهذا لا تفقد قيمتها الإنسانية لمعالجتها موقفاً إنسانياً قد ينتهي خطره أو قد لا يهم قوماً لا يمتون لي القارئ بصلة، بل إن معانيها الإنسانية تتضح ويعظم خطرها كلما تعمق الكاتب في معالجة المشكلات والجوانب النفسية وفي تخصيصها بالمواقف التي يعالجها، والفترة التي يتناولها فيها.

أدب القصة في القرآن الكريم

تقديم:

لا جدال في أن القرآن الكريم قد أثار، في أساليبه الرسالية، أكثر من أسلوب، من أجل الوصول إلى عقل الإنسان وشعوره، فيما يفكر به في قضايا العقيدة والحياة، ليقنع بالفكرة - الحق، التي ترتبط بالله، وبالطريق - الحق الذي يصل بالإنسان إلى الله . . . في أجواء رائعة تتحول فيها العقيدة إلى قضية تمتزج بالإحساس والشعور، كما تنطلق فيه المشاعر الروحية في أجواء فكرية واسعة لثلا تعيش العقيدة جفاف الفكر، أو يستسلم الفكر لسذاجة العاطفة .

وكانت " القصة " من بين الطرق التي سلكها القرآن في هذا السبيل، ولذلك لا يسعنا إلا أن نقر بأن هذا القصص بعض القرآن فيثبت لها ما يثبت لجميعة من إعجاز آياتها المشتملة على أسلوب القرآن التصويري المعجز في وحدة فنية رائعة . ونصل بذلك أيضاً إلى أن القصص القرآني أدب فني متكامل، لأنه من عند الله - سبحانه وتعالى - وربما عن لسائل أن يقول: أتى للجماهير البسيطة أن تستجيب للأدب الفني الكامل، وهي محدودة الوعي والإدراك، متخالفة الأذواق ؟

الحقيقة أن الإيحاءات التي يتضمنها القصص القرآني، لا يمكن استيعابها جملة، فالنصوص القرآنية تفسح عن إيحاءاتها لكل قلب بحسب ما هو فيه من الشأن، وبقدر حاجته الظاهرة فيه . ويبقى لها رصيدها المذخور تفتح به على القلوب، في شتى المواقف على قدر مقسوم .

إن الصورة الأدبية الفنية الكاملة يجد فيها كل ذوق ما يلائمه، ولكل امرئ ناحية يتأثر بها، ويستجيب لها، حسبما تعنيه ملكاته ومداركه .

والله سبحانه وتعالى لا يريد للعقل البشرى أن يتبدل فيعطيه كل شيء يلغى الفكر، ولكنه يريد للذهن أن ينشط وأن يفكر ويتدبر .

وقبل أن نتقل إلى تفصيل البحث في فصول هذا البحث نعرض لمعنى القصة عند كل من اللغويين والبلاغيين وعلماء التفسير، ثم نتبع ذلك بالحديث عن الفرق بينها وبين النبأ والخبر والحديث .

إن علماء اللغة قد اكتفوا من الحديث عن القصة بتحديدات مبهمّة، وتعريفات ناقصة، إذا أنهم اكتفوا بما يثيره لفظ القصة في الذهن من معنى وذلك ليس بالغريب عليهم فيما نرى فشأن علماء اللغة أن يذكروا لنا معاني الألفاظ أو ما تثيره الألفاظ في الأذهان من صور، وليس من شأنهم أن يذكروا الحدود الفنية، والتعريفات العلمية، وما يتبع ذلك من حديث تام شامل عندما تكون الألفاظ من المصطلحات العلمية أو الفنية .

والمعاني التي وقف عندها علماء اللغة عند حديثهم عن مادة " قصص " كثيرة، ولعل أقربها إلى ما نحن بصدده من حديث أدبي ما رواه اللغويون عن الأزهري، وعن الليث . يقول الأول: " القص: فعل القاص إذا قص القصص والقصة معروفة .

ويقول الثاني: القص اتباع الأثر ويقال: خرج فلان قصصاً في أثر فلان، وقصا، وذلك إذا اقتفي أثره، وقيل القاص يقص القصص لاتباعه خبراً بعد خبر، وسوق الكلام سوقاً^(٣٣)

أما المفسرون: فيخطون بالمسألة خطوة إلى الأمام، ذلك لأنهم ينظرون إلى المسألة باعتبارين، اعتبار لغوي يعتمدون فيه على ذلك التحصيل اللغوي الذي صورنا منه طرفاً، واعتبار ديني: ينظرون فيه من وجهة نظر خاصة، وهي قصد القرآن الكريم من قصصه وأهدافه التي ترمى إليها .

والإمام الرازي - رحمه الله - يجمع بين الاعتبارين . ويقرب بين الاتجاهين،

وذلك عند تفسيره للآية الكريمة: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (سورة يوسف: ٣) فيقول القصص اتباع الخبر بعضه بعضاً، وأصله في اللغة المتابعة، قال تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ (سورة القصص من الآية ١١) أي اتبعي أثره، وقال تعالى: ﴿ فَازْتَدَا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ (سورة الكهف من الآية ٦٤) أي اتباعاً. وإنما سميت الحكاية قصة لأن الذي يقصّ الحديث يذكر تلك القصة شيئاً فشيئاً .

" والرازي " إذ يذكر هذا إنما يحاول التقريب بين المعنى اللغوي والاصطلاح الأدبي، وذلك حين يربط بين الاثنين باستعماله لفظ " الحكاية " وإطلاق لفظ " القصة " عليها . ويقول أيضاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ (سورة آل عمران من الآية ٦٢) والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهdy إلى الدين، ويرشد إلى الحق، ويأمر بطلب النجاة، وهو قول يشرح معنى القصص شرحاً دينياً كما نرى .

وقد استعمل القرآن الخبر والنبأ والحديث للتعبير عن القصة كثيراً وإن كان قد فرّق بينهم في المجال الذي استعملوه فيه جرياً على ما قام عليه نظمه من دقة، وإحكام وإعجاز . فاستعمل النبأ والأنباء في الإخبار عن الأحداث التي مضى الزمن بعيداً بها . ولفها في أطوائه، على حين أنه استعمل الخبر والإخبار في الكشف عن الوقائع القريبة العهد بالوقوع . أو التي لا تزال مشاهدتها قائمة ماثلة للعيان .

وقد وضع " أبو هلال العسكري " فروقاً لغوية ودلالية بين هذه الألفاظ فيقول إن الفرق بين " الخبر "، و " الحديث " : أن الخبر هو القول الذي يصح وصفه بالصدق والكذب، ويكون الإخبار به عن نفسك وعن غيرك، وأصله أن يكون الإخبار به عن غيرك وما به صار الخبر خبراً هو معنى غير صيغته، لأنه يكون على صيغة ما ليس بخبر .

والحديث في الأصل هو ما تخبر به عن نفسك من غير أن تسنده إلى غيرك وسمى حديثاً لأنه لا تقدم له وإنما هو شيء حدث لك فحدثت به، ثم كثر استعمال

اللفظين حتى سمي كل واحد منهما باسم الآخر، فقليل للحديث خبر وللخبر حديث .

أما الفرق بين النبا والخبر أن النبا لا يكون إلا للإخبار بما لا يعلمه المخبر . فقد قال تعالى: " فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ " (سورة الشعراء من الآية ٦) وإنما استهزؤوا به لأنهم لم يعلموا حقيقته، ولو علموا ذلك لاتقوه: يعنى العذاب وقال تعالى: " ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ " (هود: من الآية ١٠٠)

أما الفرق بين القصص والحديث: أن القصص ما كان طويلاً من الأحاديث متحدثاً به عن سلف، ومنه قوله تعالى " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ " ولا يقال له قاص لأن الوصف بذلك قد صار علماً لمن يتخذ القصص صناعة، وأصل القصص في العربية، اتباع الشيء الشيء، وسمي الخبر الطويل قصصاً لأن بعضه يتبع بعضاً حتى يطول، وإذا استطال السامع الحديث قال هذا قصص . والحديث يكون عمن سلف، وعمن حضر، ويكون طويلاً وقصيراً، ويجوز أن يقال القصص هو الخبر عن الأمور التي يتلو بعضها بعضاً، حتى تحتوى على جميع أمره .

وفي القرآن الكريم أنباء لا تبلغ حدّ القصص خلافاً لما توهمه بعض الكاتبين، والقرآن لم يسمّها قصصاً لأنّها ليست أحداثاً ماضية، ولا لخلوها عن تتبع الآثار الماضية فقط...ولكن لأنه ليس فيها أمداد في التصوير . فهي في ذاتها لا تصلح للتسمية بالقصة لعدم انطباق العبرة ووضوح الرؤية للغرض القصصي الأصيل^(١١)

وكثيراً ما يقع في كتب التفسير " حكى الله تعالى "، وينبغي تجنبه قال الإمام أبو نصر القشيري^(١٢) في كتابه " المرشد ": قال معظم أئمتنا: لا يقال: " كلام الله يُحكى " ولا يقال: " حكى الله " لأن الحكاية الإتيان بمثل الشيء، وليس لكلامه - أي القرآن - مثل^(١٣).

ويذكر بعض الباحثين قائلاً: " إن عرض القرآن للأحداث الماضية ليس محاكاة لها ولا تمثيلاً لشخصها ومشاهدها، وإنما هو بعث لها وإعادة لها وإعادة لوجودها في هذا النظم الذي ينقل إليها الماضي، أو ينقلنا إليه، فنطالع هناك وجود الحياة في

زمانها ومكانها حتى لكأننا حتى أبناء هذه القطعة أو القطع من الزمن وأهله . فكان لفظ القصص أو القص أنسب يطلق على تلك الأنباء التي عرضها القرآن . إذ أن ذلك أشبه بقص أثر الشيء وتتبعه ثم الوقوف عليه بذاته لا على صورته أو ما يشبه صورته ...

ونخلص من هذا كله إلى القول بأن القصص أنباء وأحداث تاريخية لم تتلبس بشيء من الخيال، ولم يدخل عليها شيء غير الواقع، ومع هذا فقد اشتمل على ما لم يشتمل عليه غيره من القصص من الإثارة والتشويق مع قيامه على الحقائق المطلقة - الأمر الذي لا يصلح عليه القصص الأدبي بحال أبداً " (٤٧) .

أنواع القصة في
القرآن الكريم
عناصرها وأغراضها

أولاً: أنواع القصة في القرآن الكريم:

لقد استخدم القرآن - في أغراضه الدينية البحتة - كل أنواع القصة: القصة التاريخية الواقعية المقصودة بأمكانها وأشخاصها وحوادثها . والقصة الواقعية التي تعرض أنموذجاً لحالة بشرية، فيستوي أن تكون بأشخاصها الواقعيين أو بأي شخص يتمثل فيه ذلك الأنموذج، والقصة المضروبة للتمثيل ، والتي لا تمثل واقعة بنفسها، ولكنها يمكن أن تقع في أية لحظة وأي عصر من العصور^(٤٨) .

١- القصة التاريخية:

قبل الحديث عن القصة التاريخية في القرآن الكريم، يجب أولاً أن نوضح مفهوم التاريخ في القرآن، " فالتاريخ " أو بتعبير القرآن: " أيام الله " يذكر في موضعين: في سورة إبراهيم الآية الخامسة ، وفي سورة الجاثية الآية الرابعة عشر ، هو ثالث مصادر المعرفة الإنسانية بناءً على ما جاء في القرآن، فمن أهم أصول التعاليم التي جاء بها القرآن أن الأمم تحاسب بمجموعها . وأن العذاب يعجل لها في الحياة الدنيا بما اكتسبت من سيئات، ولكي يؤكد القرآن هذا المعنى فإنه دائب الإشارة إلى الأمم الخالية، داعياً إلى الاعتبار بتجارب البشر في ماضيهم وفي حاضرهم، فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (سورة إبراهيم: ٥)، ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ ﴾ (سورة آل

عمران: ١٣٧)، ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة آل عمران من آية ١٤٠)، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (سورة الأعراف آية ٣٤).

وهذه الآية الأخيرة مثل من أمثلة الأحكام التاريخية العامة يتجلى فيه التعيين والتحديد، وهى فى صيغتها البالغة الإيجاز توحى إمكان دراسة حياة الجماعات البشرية دراسة علمية باعتبارها كائنات عضوية، وعلى هذا فمن يزعم أن القرآن يخلو من بذور المذهب التاريخي يكون على ضلال مبين، وتجدد الإشارة هنا إلى أن ابن خلدون فى تعريفه قد دان بالجانب الأكبر مما استوحاه فيها لما استوحاه من القرآن، بل هو مدين أيضاً للقرآن إلى حد كبير حتى فى أحكامه على الأخلاق والطبائع

على أن عناية القرآن بالتاريخ بوصفه مصدراً من مصادر المعرفة الإنسانية تذهب إلى أكثر من مجرد الإشارة إلى تعليقات تاريخية، فقد وضع قاعدة من أعمق مبادئ النقد التاريخي، وبما أن التدقيق فى رواية الحقائق التى تكون مادة التاريخ شرط لا غنى عنه بوصفه علماً، وبما أن رواية الأخبار على وجهها الصحيح متوقفة على روايتها كل التوقف، فإن أول قاعدة من قواعد النقد التاريخي هى القاعدة التى تقدر أن أخلاق الراوي عامل مهم فى الحكم على روايته . وفى هذا يقول القرآن " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ " (١١) .

أما تفسير التاريخ من خلال القصص القرآني فينبني على أن الحاضر هو نتيجة الماضي، وأن المستقبل متوقف على الحاضر: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَّالٍ﴾ (سورة الرعد: من آية ١١) .

ومن المستشرقين من لا يعتبر القرآن قصة من أخبار مصدراً تاريخياً يمكن

الاعتماد عليه، وذلك لخلو هذه الأخبار من التفاصيل، ومما يحددها في الزمان والمكان، وعدم اتفاق بعضها مع ما جاء في كتب العهد القديم والجديد، وكتب التاريخ القديمة .

الحقيقة أن هذا لا ينافي صدق القرآن أو صحة أخباره، حيث إن التفاصيل التاريخية ليست من المقاصد التعليمية في قصص القرآن، لأن قرب الحادثة أو بعدها في الزمان والمكان، لا يؤثر فيما تحمل من عبر، ما دامت تلك الحوادث نابعة من غرائز الإنسان، مرتبطة بما في كيانه من نوازع الاستقامة والانحراف، قائمة على طريق الإنسانية التي لا تتغير في جوهرها بتغير الأجيال فالقرآن الكريم لا يذكر قصة لبيان تاريخ حدوثها، ولا لأجل التفكه بها، أو الإحاطة بتفاصيلها، وإنما لأجل العبرة والموعظة والهداية: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (سورة يوسف من آية ١١١)، ولبیان سنن الاجتماع: ﴿ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ (سورة غافر من آية ٨٥) .

ومن المؤرخين النابهين من لا يذكر من وقائع التاريخ إلا ما يستنبط منه الأمور الكلية، والأصول العامة، ولا يحفل بالجزئيات لما يقع فيها من الخلاف الذي يذهب بالثقة، ولما قراءتها من الإسراف في الزمن، فلا يكون عمله عرضة للتكذيب والظن كما هو الشأن في أكثر المصنفات التي تستقصى الوقائع الجزئية^(٥) .

أما إذا ورد في كتب التاريخ القديمة ما يخالف بعض هذا القصص القرآني، فعلى أن نجزم بأن ما أوحاه الله إلى نبيه، ونقل إلينا بالتواتر الصحيح، هو الحق . وما خالفه هو الباطل، وناقله مخطئ أو كاذب فلا نعهده شبهة على القرآن، لأن حال التاريخ القديم لم يكن من الدقة والتحري والضبط بحيث يكون حجة تعتمد في هذا المجال، إذ لا رواية يوثق بها للمعرفة التامة بسيرة رجال سندها، ولا تواتر يعتد به^(٥) .

أما عدم اتفاق بعض القصص القرآني مع ما جاء في كتب العهد القديم فإن القرآن - بوصفه سماوياً سلم من التبديل والتحريف بشهادة الباحثين المخلصين

للحقيقة من غير المسلمين - جاء مصداقاً لما في التوراة والإنجيل المنزلين من عند الله، وكاشفاً عن الحق فيها بعد أن ألبسه التحريف بالباطل: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (سورة النحل ٧٦).

إن وحدة المصدر لهذه الكتب السماوية هي التي تجمع بينها على طريق سواء في مبادئ الدين وأصوله العامة، وتجعل اختلافها في ذلك محالاً. وعلى هذا الاعتبار فإن تنزيه الله عن كل نقيضه، والأنبياء عن كل معصية أصل لا يتغير في جميع الأديان، وكلما وجدنا في نصوص العهد القديم ما يعارض مبدأ تنزيه الله، أو عصمة الأنبياء، أيقنا بتحريفه.

ونأتي هنا بواحدة من القصص التاريخية في القرآن ونتبع سير الأحداث فيها لنخرج في النهاية إلى أن العرض التاريخي في مثل هذه القصة حجة لا تقبل الطعن. تلك هي قصة " ذي القرنين " التي وردت في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكِّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلاً فَاتَّبَعَ سَبِيلاً حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتَ مُعَذَّبٌ وَإِنَّمَا أَنْتَ تَخَذُ فِيهِمْ حُسْنًا قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ثُمَّ أَتْبَعَ سَبِيلاً حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلاً كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ثُمَّ أَتْبَعَ سَبِيلاً حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا أَتُونِي زَبْرًا الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ أَتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ (الكهف: ٨٣-٩٨).

في هذه القصة لم يذكر القرآن شيئاً عن شخصية ذي القرنين ... ونحن كذلك لن ندخل في مناقشة حول من هو ذو القرنين شخصيته إلى آخر هذا .. فليس المقصود في القرآن الكريم من تحديد أعلام القصص، أن يحدد شخص بنفسه لأن التشخيص قد يفسد القضية . فإذا حاولنا أن نحدد من هم أصحاب الكهف مثلاً .. ومن هو فرعون موسى، ومن هو قارون، إلى آخر الشخصيات التي ذكرت في القرآن . فإننا نتوه عن الحقيقة التي أراد الله سبحانه وتعالى أن نعرفها . ذلك أن هذه الشخصيات تتكرر في كل زمان ومكان، وهي قصص مضروبة لكل عصر، والعبرة هنا تأتي بالشيوع، أي تأتي على من تنطبق عليهم القصة، في أي زمان كانوا وفي أي مكان وجدوا^(٥١)، وهذه هي السمة المطردة في قصص القرآن، فالتسجيل التاريخي ليس هو المقصود، إنما المقصود هو العبرة المستفادة من القصة^(٥٢).... فعندما يضرب الله مثلاً بالذين كفروا: " امرأة نوح وامرأة لوط "، فهو لا يعنى بذلك هاتين المرأتين بالذات فقط، وإنما كل امرأة يكون زوجها صالحاً وتخونه، وعندما يضرب المثل بامرأة فرعون، فإننا يعنى كل امرأة مؤمنة وزوجها كافر، وهذا يتكرر في كل عصر، والحادثة الوحيدة التي لن تتكرر هي قصة مريم، ولذلك قال سبحانه وتعالى: " ومريم ابنة عمران " أي أنه نسبها لأبيها لأنها لا تتكرر . إذاً فالتشخيص في القرآن الكريم، ليس معناه انتهاء الحدث بالشخص، ومن هنا فإننا حينما نتحدث عن ذي القرنين، نتحدث عن رجل مكن الله له من كل شيء، وآتاه من كل شيء سيباً؛ ولا نتحدث عن الخلاف حول شخصية ذي القرنين، ومن هو، إلى آخر ما يُراد به البعد عن الحكمة، على فرعيات ليست مطلوبة^(٥٣) .

ومن البدهي أنه لا تجوز محاكمة القرآن الكريم إلى التاريخ لسببين واضحين:

أولهما: إن التاريخ مولود حديث العهد، فاتته أحداث لا تحصى في تاريخ البشرية، ولم يعلم عنها شيئاً. والقرآن يروى بعض هذه الأحداث التي ليس لها لدى التاريخ علم عنها .

وثانيهما: إن التاريخ، وإن وعى بعض هذه الأحداث - هو عمل من أعمال البشر

القاصرة يصيبه ما يصيب جميع أعمال البشر من القصور والخطأ والتحريف . ونحن نشهد في زماننا هذا - الذي تيسرت فيه أسباب الاتصال ووسائل الفحص - أن الخبر الواحد أو الحادث الواحد يُروى على أوجه شتى، وينظر إليه من زوايا مختلفة . ويفسر تفسيرات متناقضة. ومن مثل هذا الركام يصنع التاريخ، مهما قيل بعد ذلك في التمحيص والتدقيق. فمجرد الكلام عن استفتاء التاريخ فيما جاء به القرآن الكريم من القصص، كلام تنكره القواعد العلمية المقررة التي ارتضاها البشر، قبل أن تنكره العقيدة التي تقرر أن القرآن هو القول الفصل ... وهو كلام لا يقول به مؤمن بالقرآن، ولا مؤمن بوسائل البحث العلمي على السواء . إنها هو مراء !!!^(٥٥) .

لقد سأل سائلون عن ذي القرنين، سألوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - فأوحى إليه الله بها هو وارد هنا من سيرته .. وليس أماننا مصدر آخر غير القرآن في هذه السيرة، فنحن لا نملك التوسع فيها بغير علم، وقد وردت في التفاسير أقوال كثيرة ولكنها لا تعتمد على يقين، وينبغي أن تؤخذ بحذر، لما فيها من إسرائيليّات وأساطير . وقد سجل السياق القرآني لذي القرنين ثلاث رحلات: واحدة إلى المغرب، وواحدة إلى المشرق، وواحدة إلى مكان بين السدين .

ونقف هنا أمام ظاهرتين جديرتين بالملاحظة والاهتمام في هذه الرحلات الثلاث أولهما: إن الله سبحانه وتعالى جعل لذي القرنين عملاً حين بلغ مغرب الشمس ... وجعل له عملاً حين بلغ بين السدين ... ولكن في الرحلة الثالثة لم يجعل له عملاً .. إذاً لاشك أن المراد هنا هو ما ذكره الله سبحانه وتعالى: " لم نجعل لهم من دونها ستراً " . إن ذي القرنين قد وصل إلى مناطق في الأرض لا تغيب عنها الشمس فترة طويلة ... أي أنه لا يتعاقب عليها الليل والنهار كباقي أجزاء الكرة الأرضية .. بل تظل الشمس مشرقة عليها لفترة طويلة لا يسترها ظلام . فكأن الله تعالى يريد أن يخبرنا أن هناك أماكن في الأرض لا تخضع لقواعد تعاقب الليل والنهار كالتي تخضع لها باقي أجزاء الأرض، وإنما تشرق الشمس عليها دون أن يسترها الظلام لفترة طويلة^(٥٦) .

أما الظاهرة الثانية، " فهي ظاهرة التناسق الفني في العرض .. فإن المشهد الذي يعرضه السياق هو مشهد مكشوف في الطبيعة: الشمس ساطعة لا يسترها عن القوم ساتر . وكذلك ضمير ذي القرنين ونيّاته كلها مكشوفة لعلم الله .. وكذلك يتناسق المشهد في الطبيعة وفي ضمير ذي القرنين على طريقة التنسيق القرآنية الدقيقة^(٥٧) .

وهكذا تنتهي قصة ذي القرنين الأنموذج الطيب للحاكم الصالح ، يمكنه الله في الأرض، ويسرّ له الأسباب، فيجتاح الأرض شرقاً وغرباً، ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنى المادي، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق، ولا يسخر أهلها في أغراضه وأطماعه. إنما ينشر العدل في كل مكان يحلّ به، ويساعد المتخلفين ويدراً عنهم العدوان دون مقابل، ويستخدم القوة التي يسرها الله له في التعمير والإصلاح، ودفع العدوان وإحقاق الحق . ثم يرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله، ولا ينسى وهو في إبان سطوته أن يعلن ما يؤمن به من أن الجبال والحواجز والسدود ستدك قبل يوم القيامة، فتعود الأرض سطحاً مجرداً مستويًا^(٥٨) : " قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً " .

وهكذا فإن القصص التاريخية في القرآن وإن لم يكن عرضاً تاريخياً بالمعنى المعروف، لكنه حجة لا تقبل الطعن في إثبات ما قصّ من وقائع تاريخية وقد أبان وجه الحق فيما دخل علي بعض القصص من زيف أو تحريف، سواء في كتب العهدين، القديم والجديد، أو في كتب التاريخ القديمة.

وفي القرآن إشارات لا تخلو من أصول علم التاريخ وبذور فلسفته، فعلى المدارس لقصصه ألا يقتصر على معرفة الوقائع، بل عليه أن يعرف أسبابها ونتائجها وسننها، ليتعمق في فهم الحكمة التي يسير بها هذا الوجود وفق نواميس هي من صنع الله، وهي على أكمل نظام، وأتقن ترتيب.

إن القرآن لم يقتصر علي عرض لوحات مجردة لماضي الإنسانية في صراع قوي الخير وقوي الشر، وإنما كان يهدف إلى بعث المثال من التاريخ، لإثارة الانفعالات الموحية بالهداية والإيمان، واستغلال الأحداث التاريخية في التربية ومعالجة النزعات النفسية في الإنسان، وأمراض المجتمع الذي يعيش فيه بما لتلك الأحداث من قوة مفروضة علي النفس تحدث فيها انصهاراً ووعياً ويقظة وإحساساً.

ومن هنا كان هذا القصص التاريخي أشد تأثيراً وأسمى طموحاً من التاريخ، لأنه يمدد الإنسان بسلاح الإيمان والثبات، ويعرفه بما لله من نواميس قارة في نظام الخلق والإبداع، ومن سنن مطردة في نظام الأقوام والأمم، سنن خاضعة لإرادة الله وليست مقيدة لها، تتصل فيها الأسباب بالمسببات، فلا تتغير أو تتحول محاباة من الناس، لأنها محور عدل الله وحكمته في تدبير الأمور " (٤٧).

٢- القصة الواقعية:

وهي التي تعرض أنموذجاً لحالة بشرية، فيستوي أن تكون بأشخاصها الواقعيين أو بأي شخص يتمثل فيه ذلك الأنموذج (٤٨). ومن أمثلة ذلك: قصة ابني آدم والتي وردت في قوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِن بَسَطْتَ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ (سورة المائدة: ٢٧-٣١).

هذه القصة تقدم أنموذجاً لطبيعة الشر والعدوان، وأنموذجاً كذلك من العدوان الصارخ الذي لا مبرر له. كما تقدم أنموذجاً لطبيعة الخير والساحة وأنموذجاً كذلك من الطيبة والوداعة. وتقفها وجهاً لوجه، كل منهما يتصرف وفق طبيعته (٤٩)،

حيث اتبع القرآن في هذه القصة أسلوب تصوير الشخصية، وهو من الأساليب القرآنية الرائعة التي سار عليها وذلك بأن تقف الشخصيتان في حادثة معينة، موقفين متباينين.. ثم ينطلق الحوار الناطق، كلمة بكلمة، والحوار الصامت، عملاً بعمل، ليعبر عن المعاني التي تجيش في نفس كل منهما إزاء موقفه.. ليفتح - من خلال ذلك - للإنسان الطريق الصحيح لممارسة الحياة في الإطار السليم^(٣٢).

أما عن السياق فتبدو القصة وإيجاءاتها ملتحمة التحاماً قوياً مع الأحكام التالية لها في السياق القرآني، ويحس القارئ المتأمل للسياق بوظيفة هذه القصة في موضعها، وبعمق الإيجاء الإقناعي الذي تسكبه في النفس وترسيه، والاستعداد الذي تنشئه في القلب والعقل لتلقي الأحكام المشددة التي يواجه بها الإسلام جرائم الاعتداء على النفس والحياة..

ولا يحدد السياق القرآني لا زمان ولا مكان ولا أسماء القصة. وعلي الرغم من ورود بعض الآثار والروايات عن " قاييل وهاييل " وإنهما هما ابنا آدم في هذه القصة، وورود تفصيلات عن القضية بينهما، والنزاع علي أختين لهما. فأننا نؤثر أن نستبقي القصة، كما وردت - مجملة بدون تحديد - لأن هذه الروايات كلها موضع شك في إنها مأخوذة عن قصة التوراة الواردة في سفر التكوين^(٣٣) وبقاء القصة مجملة - كما وردت في سياقها القرآني - يؤدي الغرض من عرضها، ويؤدي الإيجاءات كاملة، ولا تضيف التفصيلات شيئاً إلى هذه الأهداف الأساسية..

ولا يكفي السياق بالانتهاء من عرض القصة، بل يلتقط الآثار العميقة التي تركها في النفس رواية النبأ بهذا التسلسل، ليجعل منها ركيزة شعورية للتشريع الذي فرض لتلافي الجريمة في نفس المجرم، أو للقصاص العادل إن هو أقدم عليها بعد أن يعلم آلام القصاص التي تنتظره: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثُرُوا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لُمْسِرُونَ ﴾ (سورة المائدة: ٣٢).

من أجل ذلك .. من أجل وجود هذه النماذج في البشرية .. من أجل الاعتداء علي المسلمين الوادعين الخيرين الطيبين، الذين لا يريدون شراً ولا عدواناً .. ومن أجل أن الموعدة والتحذير لا يجديان في بعض الجبلات المطبوعة علي الشر، وأن المسألة والمواعدة لا تكفيان الاعتداء حين يكون الشر عميق الجذور في النفس .. من أجل ذلك جعلنا جريمة قتل النفس الواحدة كبيرة من الكبائر، تعدل جريمة قتل الناس جميعاً، وجعلنا العمل علي دفع القتل واستحياء نفس واحدة عملاً عظيماً يعد إنقاذ الناس جميعاً.. ولقد كتب الله ذلك المبدأ علي بني إسرائيل، لأنهم كانوا - في ذلك الحين - هم أهل الكتاب، الذين يمثلون " دار الإسلام " ما أقاموا بينهم شريعة التوراة بلا تحريف ولا التواء .. ولكن بني إسرائيل تجاوزوا حدود شريعتهم - بعد ما جاءتهم الرسل بالبيّنات الواضحة - وكانوا علي عهد رسول الله - صلي الله عليه وسلم - وما يزالون يكثر فيهم المسرفون المتجاوزون لحدود شريعتهم. والقرآن يسجل عليهم هذا الإسراف والتجاوز والاعتداء، بغير عذر، ويسجل عليهم كذلك انقطاع حجتهم علي الله وسقوطها بمجيء الرسل إليهم، وبيان شريعتهم لهم^(١٤) كما في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾
(سورة المائدة من الآية ٣٢) وهل من إسراف أشد من تجاوز حدود الله؟ والتعدي علي شريعته، بالتغيير أو بالإهمال؟

إن هذه القصة الواقعية القصيرة أو " القصة الذرية " ^(١٥) - قصة في خمس آيات - لأنها تشبه الذرة في ضالتها ومساحة تأثيرها الكبير، والتي قصّها علينا القرآن في إطار الحوار القصير، تجسّد لنا الصورة الحيّة لشخصية الإنسان الشرير إلى جانب شخصية الإنسان الخير، لتربطنا بفكرة الخير وتبعدنا عن فكرة الشر، في موقف يوحي للناظر والمستمع، بفضاعة موقف ذاك إزاء روعة موقف هذا، حيث نري الجريمة خالية من كل مبرراتها وحيثياتها العادلة التي تجعل منها عملاً عادلاً، لأنها نشأت من حالة نفسية معقدة بالحسد، فليس للضحية فيها أي ذنب، بل نجد - في

جو الآية - أن الضحية لم تحاول أن تجعل من قبول قربانها ورفض قربان المجرم لها، أساساً لأي تصرف استعراضي يُسئ إلى كرامته علي الشكل الذي يتبعه الراحون أمام الخاسرين لأن خلق الأخ المؤمن كان بعيداً عن ذلك كل البعد.

ولعل قيمة هذه القصة، أو بالأحرى، عرض القرآن لهذه القصة، تتمثل فيما تخلقه في نفس القارئ أو السامع، من تأثير نفسي ضد الجريمة والمجرم، وتعاطف روعي مع الضحية، مما يترك آثاره علي السلوك الإنساني العام فيما يريد أن يقدم عليه من عمل، أو يحكم عليه من أعمال الآخرين.

ويمكن الاستفادة من مثل هذه القصة تربوياً إذ تعتبر هذه القصة وسيلة حية للإيضاح عندما تتحول إلى عمل مسرحي أو ما يشبه ذلك، وأسلوباً من أساليب التوجيه والتربية فقد نجد من الخير لنا، أن نجعلها إحدى القصص الدينية التربوية التي نقدمها للأطفال أو للشباب، بالأسلوب الذي يتناسب مع ذهنياتهم في عملية تصويرية حية، بالكلمة أو بالصورة، أو بالتمثيل كما أنه يمكن استيحاء هذه القصة في وضع قصص متنوعة قريبة إلى مثل هذه الأجواء، لتعالج قضية الجريمة والمجرم، في أي جانب من جوانبها، سواء منها الذي يتمثل بالقتل، أو بالسرقة، أو بالزنا أو بالظلم والاعتداء علي الناس بشكل عام.. لأن دور الأسلوب القرآني هو دور تخطيط المنهج التربوي ليسير عليه الآخرون في حركة اتباع أو استيحاء وإبداع وليس دور إعطاء النصوص، لحفظها واستظهارها، ونقلها بطريقة "بغائية" جامدة لا تملك أن تتصرف أو تتحرك في اتجاه التنويع^(٣٧).

٣- القصة التمثيلية:

وهي نوع من أنواع المثل في القرآن الكريم يطلق عليه المثل القياسي، وهو سرد قصصي أو وصفي، يتعاطى أحد أمرين، فهو: إما أن يصور أنموذجاً من السلوك الإنساني بقصد التأديب أو التمثيل والتوضيح، وإما أن يجسّم مبدأ يتعلّق بملكوت الله ومخلوقاته^(٣٨).

وكما يتضح الصدق الواقعي في القصص التاريخي، وهو أكثر قصص القرآن، فإن

الصدق في القصص التمثيلي يلاحظ من وجهتين: موضوعية وفنية:

أما الواجهة الموضوعية فهي تمثيله بأشخاص غير معينين لم يكن لهم وجود بأسمائهم في واقع التاريخ، ولكن وجود أمثالهم في واقع الحياة ممكن، وذلك من حيث موافقهم وتصرفاتهم التي تملئها نوازع نفسية راسبة في شعور الإنسان لأنها من طباعه وفي غرائزه..

وأما الواجهة الفنية، ففي تصويره للشخصية من خلال الحوار تصويراً حياً، وفي دقة نقله لمشاعرها وتعبيره عن مواجدها وأحاسيسها، وهذه وظيفة الفن^(١٤).

ومن أبداع القصص التمثيلي في القرآن قصة صاحب الجنتين لما فيها من تشخيص حي للمشاهد يقصّر عنه التعبير في أي أسلوب آخر غير الأسلوب القصصي، والقصة تضرب مثلاً للقيم الزائلة والقيم الباقية، وترسم أنموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة، والنفس المعتزة بالله. وكلاهما أنموذج إنساني لطائفة من الناس: صاحب الجنتين أنموذج للرجل الثري، تذهله الثروة، وتبطره النعمة، فينسى القوة الكبرى التي تسيطر على أقدار الناس والحياة. ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى، فلن تحذله القوة ولا الجاه. وصاحبه أنموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه، الذاكر لربه يري النعمة دليلاً على المنعم، موحية لحمده وذكره، لا لجحوده وكفره^(١٥):

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلًا مِّثْلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَافَهُمَا نَهْرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودَتْ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِمَّا مُنْقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرْنِ أْنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَى

رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا
 أَوْ يُصْبِحَ مَاءً وَهِيَ غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا وَأَحْيِطْ بِثَمَرِهِ فَأُصْبِحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا
 أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ
 يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ
 عُقْبًا ﴿ (سورة الكهف ٣٢-٤٤).

تبدأ القصة بمشهد الجنتين في ازدهار وفخامة، ويختار التعبير كلمة "تظلم"
 "كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً) في معني تنقص وتمنع، لتقابل بين
 الجنتين وصاحبها الذي ظلم نفسه فبطر ولم يشكر، وازدهى وتكبر"^(١١)... ونلاحظ
 أن صاحب الجنتين قد بدأ الحوار مع صاحبه من موقع الإحساس بالقوة، بسبب ما
 يملك من كثرة المال والأتباع، وكان خطابه - معه - ينطلق من محاولته لإخضاعه
 نفسياً بمواجهته بواقع الفارق الكبير بينهما، وتميزه عنه، أما صاحبه المؤمن الفقير
 فيقف في حوار مع صاحب الجنتين، في موقع الإنسان الرسالي الذي يستنكر علي
 هذا الغني المزهو بغناه، كفره باليوم الآخر ونسيانه لله... ويبدأ في تذكيره بنعم الله
 عليه وحاجته إليه في كل شيء... ليقبي مشدوداً إليه في حال الإحساس بالقوة، كما
 يشعر بالارتباط به في حال الإحساس بالضعف، لأن القوة هبة، يهبها لمن يشاء
 ويسلبها ممن يشاء.. وبهذا يتجسد لنا الفارق الكبير بين العقليتين والاتجاهين في
 فهم الحياة من خلال هذا الحوار الذي أداره القرآن الكريم بين الرجلين لنستوحي
 منه الفكرة التي تحكم الموقف في حساب القيم والمعاني الكبيرة في الإسلام"^(١٢).

وتكتمل الصورة، بالمشهد الأخير في القصة، حيث ينقلنا السياق فجأة من مشهد
 النماء والازدهار إلى مشهد الدمار والبوار. ومن هيئة البطر، والاستكبار إلى هيئة
 الندم والاستغفار. فلقد كان ما توقعه الرجل المؤمن: " وَأَحْيِطْ بِثَمَرِهِ فَأُصْبِحَ يُقَلِّبُ
 كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا "
 .. وهو مشهد شاخص كامل: الثمر كله مدمر كأنما أخذ من كل جانب فلم يسلم
 منه شيء. والجنة خاوية علي عروشها مهشمة محطمة. وصاحبها يقَلِّبُ كَفَّيْهِ أَسْفَاً

وحزناً علي ماله الضائع وجهده الذاهب.. وهنا يتجسد لنا الدرس الرائع حيث نجد الإنسان المتجبر المزهو بذاته وبشائه، عارياً من كل شيء أمام الحقيقة الكبيرة التي تملأ الكون.. فلا نري هنا إلا الله الذي يمنح ويأخذ، ويعطي ويمنع.. فله الولاية الحق علي كل شيء: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾.

ويُسدل الستار على مشهد اللجنة الخاوية على عروشها، وموقف صاحبها يقلب كفيه أسفاً وندماً، وجلال الله يظلل الموقف، حيث تتوارى قدرة الإنسان^(٣١).

٤. القصة العاطفية:

تكلم القرآن الكريم عن الحب، والهوى، وتخلل الحب بعض قصصه لأهداف وعظية أوعز بها القرآن الكريم كي تستثمر فكراً كمنطلق لدراسة السلوك الإنساني والعواطف البشرية، وذلك خلال هدفها الديني المباشر.

مفهوم الحب في القرآن الكريم:

ظلت كلمة الحب من أكثر الألفاظ تردداً في القرآن الكريم، من أي كلمة أخرى تعبر عن معناها أو جانب من هذا المعني، فلم ترد كلمة "العشق" في القرآن مطلقاً... وقد وصف "العشق" بأنه تعبير عن الاشتهااء في حين أن "الحب" ميل قلبي ليس الاشتهااء دافعه أو غايته، والأمر اللافت حقاً أن "الحب" في القرآن الكريم جاء لمجرد الميل والتعلق، فوصف به الذين آمنوا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (البقرة من آية ١٦٥) ووصف به المؤمنون بأن الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة من آية ٥٤) ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران من آية ٣١). ووصف به الانحراف في العبادة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (البقرة من آية ١٦٥) كما وصف به الميل والتعلق بصفة عامة بين أفراد الأسرة، بل بين الإنسان وما يستهويه من متاع الدنيا ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ

اَقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرَضُّونَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿التوبة: آية ٢٤﴾،
وأيضاً: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ (آل عمران من آية ١٤).

وقد جاء الفعل " لا يجب " لنفي الميل في نفس هذه الدائرة من الاستعمال العام:
﴿فَلَمَّا أَفْلَحَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ (الأنعام من آية ٧٦) ﴿هَأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ (آل عمران من آية ١١٩).

وقد جعل ابن قيم الجوزية، الحبّ أول خطايا البشرية، وسبب معاناتها بالخروج من الجنة، وإن دل اللفظ علي أنه مردود لقول آخرين لم يعنهم: " قالوا: وقد حبّب الله سبحانه وتعالى إلى رسله وأنبيائه نساءهم وسراريهم، فكان آدم أبو البشر شديد المحبة لحواء، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه خلق زوجته منه ليسكن إليها. قالوا: وحبّه هو الذي حمله علي موافقتها في الأكل من الشجرة . قالوا: وأول حب كان في هذا العالم حب آدم لحواء، وصار ذلك سنة في ولده في المحبة بين الزوجين " (٧٧) .

علي أن الخطاب في الآيات القرآنية موجه غالباً إلى آدم وحواء معاً، والوصف بالعصيان خصّ به آدم وحده، ولم يقل لنا " ابن القيم " إذا كانت سنة الحبّ " بين الزوجين " قد بدأت بآدم وحواء، متي بدأت " سنة " الحبّ بين من ليسا بزوجين (٧٨) .

والحبّ كتعبير عن علاقة الرجل بالمرأة لم يرد في القرآن الكريم إلا في سياق قصة يوسف وامرأة العزيز حيث (قد شغفها حباً)، وحينئذ فان تقديم " الشغف " - وهو من شغاف القلب أي الباطن والصميم - قد خلع علي هذا الاستعمال نوعاً من التخصيص أعان عليه السياق . والآن مع متابعة قصة يوسف وامرأة العزيز خطوة خطوة لنرى كيف تتجسد من خلالها الصورة الحية المعبرة التي أراد القرآن منا أن نتمثلها في حياة الأنبياء السابقين:

يوسف وامرأة العزيز:

" وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوْءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ اللَّهُ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَضْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" (سورة يوسف آية ٢٣ إلى ٣٤).

تلك الصورة كاملة في قصته مع امرأة العزيز .. الجو مشبع بالإغراء .. وبالعوامل التي تقود إلى الانحراف .. فيوسف شاب في المرحلة المتفجرة من شباب الغريزة وحيويتها وامرأة العزيز أنثي يحرق مشاعرها وأحاسيسها جمال يوسف الرائع وشبابه المتفجر .. والأجواء التي يعيشها الاثنان تهيئ للألفة والاستلطاف للحب .. وتبدأ لتمهد للانحراف في ظل الخلوات ... والمشاعر تلتهب، والغريزة تلهث، في كيان هذه المرأة .. أما يوسف فلم يشغل ذهنه في هذا كله - للإيمان الذي

يغمر قلبه، والوفاء الذي يشعر به تجاه صاحب البيت^(٧٥).

وقد كَتَبَ القرآن الكريم عن المرأة التي دعت يوسف إلى نفسها بقوله تعالى: "التي هو في بيتها" سترأ علي هذه المرأة، حتى لا تفضح بين أهلها وقومها عن الملاء.. كما أن في إضافة يوسف إليها، وبأنه في بيتها، إشارة إلى أنها ذات سلطان علي يوسف، الذي هو نزيل بيتها، وريبب نعمتها، وأن لها أن تأمر، وعليه أن يطيع .. فإن لم يكن ذلك بسلطان جماها، كان بسلطان جاهها .. فكيف ويديها سلطان الجمال وسلطان الجاه؟^(٧٦).

ولذا فإن القصة لم تشر إلى أية مبادرة منه، بل كانت المبادرة من امرأة العزيز.. وراودته عن نفسه .. وغلقت الأبواب .. وقالت هيت لك.. هذه الدعوة السافرة الجاهرة الغليظة لا تكون أول دعوة من المرأة .. إنما تكون هي الدعوة الأخيرة. وقد لا تكون أبداً إذا لم تضطر إليها المرأة اضطراراً. والفتي يعيش معها وقوته وفتوته متكامل، وأنوثتها هي كذلك تكمل وتنضج، فلا بد وأن كانت هناك إغراءات شتي خفيفة لطيفة، قبل هذه المفاجأة الغليظة العنيفة^(٧٧).

فإن كان من امرأة العزيز هذا الاسترخاء لجماها وسلطانها أمام سلطان حبه يوسف - فإن هذا إنما يدل علي مدي تمكن الحب من قلبها حتى وقف بها هذا الموقف المهين لدلال المرأة، وعفاف الحرّة، وامتهان سلطان الجاه والجمال!^(٧٨).

بعد هذا العرض المشبّع بالإثارة جاء رد يوسف يحمل كلمة الإيذان:

" معاذ الله " .. وكلمة الوفاء: " إنه ربي أحسن مثواي " .. ومضي يلخص لها الموقف في كلمة حاسمة: " إنه لا يفلح الظالمون " .. فهي تظلم نفسها بالمعصية وتظلم زوجها بالخيانة، في هذا الموقف، أما هو، فيلاحقه الشعور بأنه سيتحول، إلى ظالم لنفسه، ولرب البيت الذي آواه ورعاه، فيما لو تجاوب معها في خطأ الانحراف والخيانة .. ولم تستجب للكلمة الحاسمة، فاعتبرتها دلالاً، أو خوفاً من النتائج .. وضاعفت الإغراء .. وهمت به لتثيره وتنحرف به عن موقفه الصامد: " وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ " .. هو موقف طويل من الإغراء، بعدما أبى

يوسف في أول الأمر واستعصم .. وهو تصوير واقعي صادق لحياة النفس البشرية الصالحة في المقاومة والضعف، ثم الاعتصام بالله في النهاية والنجاة .. ولكن السياق القرآني لم يفصل في تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغالبة، لأن المنهج القرآني لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضاً يستغرق أكثر من مساحته المناسبة في محيط القصة، وفي محيط الحياة البشرية المتكاملة كذلك . فذكر طرفي الموقف بين الاعتصام في أوله والاعتصام في نهايته، مع الإلمام بلحظة الضعف بينهما، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعاً^(٧٩) .

ولم يكن أمام يوسف إلا الهرب بدينه وإيوانه وخُلُقُه .. وانطلقت وراءه في حركة مسعورة، لترجعه بكل قوة .. حتى تمزق قميصه من ذلك .. وكانت المفاجأة لهما بالمرصاد .. فألفيا سيدها لدي الباب .. وحاولت أن تبرئ نفسها لتكون في موقف الضحية . أمام المعتدي .. ولكن براءة يوسف كانت ظاهرة في نبرات صوته، وصفاء روحه، وفي شهادة حاله التي تأكدت بالحكم الذي وضع القضية في إطار مصلحته^(٨٠) . واقتنع الزوج ببراءة يوسف، وأقبل علي امرأته، لا ليدينها وحدها في شخصها، بل ليجعل التهمة مشاعة في بنات جنسها جميعاً .. " قال إنه من كيدكن " أيتها النساء " إن كيدكن عظيم " .. إنه يتهمها بأنها المدبرة لهذا المنكر، والداعية إليه، ولكنه يغلف هذا الاتهام بتلك الكياسة السياسية التي هي صنعة الملوك، ومن في صحبة الملوك .. ثم ينهي هذا الموقف بالجمع بين المرأة وفتاها، في مقام النصح واللوم والتأنيب .. فيقول ليوسف: " يوسف أعرض عن هذا " ثم يلتفت العزيز إلى امرأته قائلاً: " وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ " .. وفي التعبير بلفظ الخاطئين، بدلاً من الخاطئات، ليخفف عنها وقع التهمة، فلا يجعل الخطيئة مقصورة علي بنات جنسها وحدهن، بل يشاركهن الرجال فيها، ولو أنه كان يريد أن يلقي امرأته بالاتهام الصريح، لقال لها: إنك كنت خاطئة ... ولكنه، كان يخاطبها بما يقضي به أدب الملوك، ومن اصطناع الكياسة، واللياقة واللفظ^(٨١) .

ويُسدل الستار علي المشهد وما فيه .. وقد صور السياق تلك اللحظة بكل

ملايساتها وانفعالاتها: " ولكن دون أن ينشئ منها معرضاً للنزوة الحيوانية الجاهرة، ولا مستنقعا للوحل الجنسي المقبوح " (٨٢).

ولم يحل السيد بين المرأة وفتاها .. ومضت الأمور في طريقها .. ولكن للقصور جدراناً، وفيها خدم وحشم . وما يجري في القصور لا يمكن أن يظل مستوراً، وبخاصة في الوسط الأرسقراطي، الذي ليس لنسائه من هم إلا الحديث عما يجري في محيطهن .. وإلا تداول هذه الفضائح ولو كها علي الألسن في المجالس والسهرات والزيارات: " وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةٌ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ " لأول مرة نعرف أن المرأة هي امرأة العزيز، وأن الرجل الذي اشتراه من مصر عزيز مصر - أي كبير وزرائها - ليعلن هذا مع إعلان الفضيحة العامة بانتشار الخبر في المدينة . وتساءل هنا: وما داعية الكشف عن وجه المرأة وعن مكانتها في المجتمع؟ وقد كان يمكن أن تمضي أحداث القصة دون حاجة إلى معرفة هذه المرأة بالذات، وحسبها أن تكون امرأة وقعت في حب ربيبها؟ ونقول - والله أعلم - إن القرآن الكريم لم يكشف عن وجه المرأة من قبل، لأن الأحداث كانت تجري علي المستوي المألوف في حياة عامة الناس وخاصتهم علي السواء .. فأبي بيت كان يمكن أن يضم إليه يوسف وأي امرأة كان من الممكن - أن تراوده عن نفسه، سواء أكانت امرأة ملك أو سوقة .. إنها امرأة أيا كان وضعها الاجتماعي إذ لم يكن ليوسف خيار في اختيار السيد الذي يملكه، والمرأة التي تكون في بيت هذا السيد... أما حين يكون للحدث ذكر، وشأن يراد به الكشف عن وقعه، في المجتمع وأثره في الناس، فإن الأمر يختلف بالنسبة لمن يتعلق به الحدث من حيث وضعه الاجتماعي ومكانته في المجتمع، فالحدث يكبر أو يصغر، وتتسع دائرته أو تضيق، تبعاً لما تعلق به الحدث . ومن البدهي أن تعلق عيون الناس وأذانهم بأصحاب السلطان والسيادة فيهم، يتسمعون إلى أخبارهم، ويشغلون بالحديث عنهم ... وعلي الرغم من أن حادثة امرأة العزيز كانت في دائرة ضيقة، لا تتعدى المرأة، ويوسف، والعزيز زوجها، فإنه سرعان ما نفذت العيون من خدم القصر إلى هذا السر، ووقعت الأذان عليه، فكان همساً علي الشفاه، ثم حديثاً دائراً

علي الألسنة، أقرب إلى الإشاعة منه إلى الحقيقة - ومن هنا كان لابد من كشف وجه هذه المرأة التي اهتم الناس بأخبارها، وشغلوا بالحديث عنها .. إنها امرأة العزيز وأن بيتها ليضم سراً خطيراً .. إنها تراود فتاها عن نفسه، وهو يتأبى عليها، وهو في الوقت نفسه ملك يديها^(٨٣)

الأسلوب التربوي في القصة:

١ - إن قيمة هذا الحوار كله يظهر في تجسيد صورة المؤمن عندما يتعرض للاحتراق في جحيم تجربة الانحراف عن الخط المستقيم، أمام نداء الجنس .. فيقف مع إيمانه مهما كانت التضحيات والآلام.

٢ - يتضح لنا من خلال المواقف المختلفة في مشاهد القصة أنه كان هناك حواراً صامتاً من جهة .. وحواراً طويلاً متنوعاً تدل عليه التجارب الفاشلة المبررة التي حاولتها هذه المرأة - بما في ذلك المؤتمر النسائي الذي عقده في بيتها .. وإن كانت كلمات الحوار بين يوسف وامرأة العزيز قصيرة جداً إلا أنها تقدم لنا الأنموذج الحي للموقف الإيماني الصلب أمام محاولات الإغراء، للإيجاء بأن قضية الدعوة إلى العفة في المجالات الجنسية، ليست من القضايا المثالية التي تتعد عن واقع التطبيق العملي للحياة الإنسانية، بل هي من قضايا الواقع التي تتمثل بأكثر من تجربة في أشد المواقف حرجة وصعوبة^(٨٤).

٣ - هذا وقد ينظر بعض ذوي الأبصار الكليلة إلى هذه القصة، وما فيها من المواقف العاطفية بين الرجل والمرأة، فيخيل لهم من ذلك القرآن الكريم إنما اصطنع هذا الموقف اصطناعاً ليرتضي به بعض الغرائز، استهواء للنفوس، وشداً لانتباهها، كما يحدث ذلك في أغلب ما يعرض القصاصون من قصص .. وهذا لاشك ضلال في الرأي، وفساد في الإدراك .. فالقصص القرآني منتزَل من عالم الحق، لا يلتبس به باطل^(٨٥)، وإنما هو كما وصفه الحق سبحانه وتعالى في قوله: "وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ" (سورة الإسراء: من الآية ١٠٥)

ولعل هذه الرؤية تجعلنا نثير التفكير حول نقطتين مهمتين نستوحيهما من عرض القصة:

أ- النقطة الأولى: إن الدين لا يتنكر للحديث عن الجوانب العاطفية في حياة الإنسان بما في ذلك قصص الغرام والحبّ التي يعيشها الناس، إذا كانت تخدم الأهداف الرسالية، باعتبارها تمثل موقفاً من مواقف الانتصار علي النفس في نوازعها الغريزية وشهواتها الجنسية .. لتعطينا الأنموذج الواقعي للإنسان الذي ينسجم مع رسالة الله . كدليل حي علي واقعية الإسلام في شريعته، ومفاهيمه .. وربما تصوّر بعض المواقف المأساوية للرجل والمرأة بسبب انحراف خاص، أو سلوك غير مسؤل .. فتنتلق القصة لتكون أسلوب ردع وتحذير عن مثل هذه المواقف في المستقبل .. ولهذا فإن من الممكن أن نستفيد من ذلك في التخطيط للأدب الإسلامي الملتزم، بالأخذ بالاتجاه القصصي الذي يعطي للمضمون العاطفي في قصص الحبّ والغرام دوره الكبير فيما يؤلف من قصص إلى جانب المضمون الاجتماعي، والسياسي وغيرهما ..

ب- النقطة الثانية: إن الدين يتحدث عن العلاقات الجنسية - الشرعية أو المنحرفة - حديثاً طبيعياً كما يتحدث عن أية قضية أخري من علاقات الإنسان - مما يوحي بأنه لا يعتبر مثل هذه العلاقات، في مجالات المعرفة، شيئاً معيباً كما توحي به التقاليد الاجتماعية، بل ربما نفهم من كثير من الآيات والأحاديث التي تسمي الأشياء بأسمائها .. كما تسمي سائر أعضاء الجسم العادية، إن الإسلام لا يمانع في الثقافة الجنسية حينما تخطط تخطيطاً سليماً بعيداً عن أجواء الإثارة تماماً كأى ثقافة أخري^(٨٧) ..

وخلاصة القول إن قصة يوسف وامرأة العزيز عندما عرضت الفتنة التي وقع فيها يوسف فإنها عرضت لحظة الضعف كما هي بلا "رتوش"، إنها فتنة . إنها ضعف . إنها خضوع لدافع من دوافع النفس الفطرية . ولكنها - علي واقعيته - لا تستحق الاحتفال، إلا من جانب واحد .. هو أن الإنسان يفتى منها إلى نفسه، ويعرف أنها كانت لحظة ضعف فيرتفع عنها، وينيب إلى الله^(٨٨).

٥- القصة الرمزية:

قبل أن نقدم أنموذجاً للقصة الرمزية في القرآن الكريم يجب أن نحدد نقطتين مهمتين لفهم " الرمزية " في قصص القرآن الكريم:

أولاهما: إن الرمزية في قصص القرآن الكريم قد جاءت لتأكيد قيمة المعاني الثانية في هذه القصص، وهو ما يسمي بإيحاءات الألفاظ ووقعها النفسي في الصورة الأدبية، وهذا ينقلنا إلى أقدم تعريفاً للرمز علي المستوي اللغوي قدمه " أرسطو " فهو يري: " إن الكلمات رموز لمعاني الأشياء، أي رموز لمفهوم الأشياء الحسية أولاً ثم التجريدية، و " أن " الكلمات المنطوقة رموز لحالات النفس، والكلمات المكتوبة رموز للكلمات المنطوقة " (٨٨) .

أما الموسوعة الإنجليزية فقد جاء منها: " إن الرمز " مصطلح أطلق علي الموضوع المرئي الذي يمثل بالعقل تشابه " Semblance " شيء غير مرئي " not shown " ولكنه تحقق عن طريق الارتباط به أو التداعي " Association " (٨٩) .

إذا فالرمز ليس نقلاً عن الواقع، وإنما أخذ منه ثم تجاوزه، وتكثيفه ليتخلص من واقع المادة ليرتفع إلى مجال التجريد . وهنا يتحقق الإيحاء " Suggestion " بالانفعالات والأفكار عن طريق إعادة خلقها في العقل كي يتم التعبير عن حالات نفسية تستعصي علي التفسير أو التقرير، كفكرة الحياة والموت واللانهاية وفقدان المعني، ولذا وجد ما أطلق عليه بعداً ثالثاً: " A third dimension " وهو البعد الإيحائي الذي يحقق التوافق بين المحسوس والمجرد (٩٠) .

ثانياً: إن القرآن لا يقصّ قصة إلا ليواجه بها حالة .. ولا يقرر حقيقة إلا ليغير بها باطلاً، فهو يتحرك حركة واقعية حية في وسط واقعي حي، إنه لا يقرر حقائقه للنظر المجرد، ولا يقصّ قصصه لمجرد المتاع الفني (٩١)

ولذا يمكن القول إن الرمزية في قصص القرآن نجدها في تعدد مشاهدته في السور لظروف وأسباب يستدعيها المقام، فتجئ مطابقة للأحوال المتعددة وللمواقف الكثيرة، وللنفوس المتغايرة، لأن هذه المعاني أدل في كل أغراض القرآن،

وهي متصلة أوثق اتصال بالدلالات الأولى باعتبارها مبعث الإثارة، والطريق إلى المعاني الثواني، كما أنها تتنوع إلى دينية ونفسية واجتماعية في إطار ديني تدعو إلى العقيدة الصحيحة، وإلى الإيمان بالله، وإلى خلق الأنموذج المتكامل^(١١٠).

ومن نماذج القصة الرمزية في القرآن قصة آدم فهي من أكثر قصص القرآن ثراء بالجوانب الرمزية والمعاني الثواني، وتأخذ مشهد إغواء إبليس لآدم وزوجه والذي ذكره الله تعالى في قوله: "فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ" (سورة الأعراف: ٢٠-٢١). وفي قوله تعالى: "فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى" (سورة طه: ١٢٠).

أ- لا شك أن هذه الأوصاف التي خلعتها إبليس علي الشجرة لا تلتقي مع الواقع، ولا تستقيم مع الحق، وإنما هي من تلفيقات إبليس وأكاذيبه، لينخدع بها ويغري، ومع هذا فإن المفسرين والقصّاص قد ذهبوا في الحديث عن نوع الشجرة كل مذهب، مستندين في هذا إلى روايات معزّوة إلى بعض الصحابة والتابعين أو إلى ما يرجع إلى مصادر إسرائيلية. والحقيقة أن القرآن الكريم إذ وقف بالشجرة دون أن يحدد نوعها في الحديث إلينا عنها يسمح لأن يكون للشجرة مفهوم خاص عندنا، لا يدخل فيه نوعها.. أيا كان: فلنحاول أن نفهم ما ترمز إليه هذه الشجرة: إن نهي آدم عن الاقتراب منها إنما هو امتحان له، وابتلاء لعزيمته، أمام الإغراء وحب الاستطلاع: "وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا" (سورة طه: ١١٥)

ب- إن غريزة حب الاستطلاع أقوى غريزة متحكمة في طفولة الإنسانية كما هي متحكمة في طفولة الأطفال، وطفولة الإنسانية كلها، مُندسّة في كيان "آدم" ولهذا فإن هذا النهي الذي تلقاه آدم من ربه عن الاقتراب من الشجرة قد وقع من نفس آدم في موقعين:

١ - موقع الخوف من الجهة التي أَلقت بهذا النهي، والحذر من أن يخالف ما نهى عنه .

٢ - الرغبة الصارخة في مدانة هذه الشجرة والتعرف عليها، وعلي ما يمكن فيها .

ثم إلى جانب هذه الرغبة الصارخة إلى مقاربة الشجرة، كانت وسوسة إبليس لأدم، وإغراؤه له . الأمر الذي عَجَّل بخطوات آدم إلى الشجرة، وسيره حثيثاً إليها، ولو لم يقم إبليس من وراء آدم يغريه بالشجرة ويدفعه إليها، لسار هو وحده نحوها، ولبلغها، ولأكل منها .. ولكن بعد زمن متراخ عن هذا الوقت الذي اقترب فيه بالفعل من الشجرة وأكل منها^(١٣) .

وفي القصص القرآني موقف كهذا الموقف الذي كان من إزاء نهيه عن الاقتراب من الشجرة، فلقد نهى " صالح " عليه السلام قومه " ثمود " عن أن يعرضوا للناقة بسوء، فكان هذا النهي منه كأنه إغراء لهم بالعدوان عليها، هذا العدوان الذي كان سبباً في إهلاكهم، وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى في سورة هود " وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ مَتَّبِعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرٌ مَّكَذُوبٍ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنَّ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا آلَا إِنْ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ " (سورة هود: ٦١-٦٨) .

ج- ولهذا فإن الآيتين الكريمتين: خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ " (سورة الأنبياء: من الآية ٣٧) " وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا " سورة الإسراء: من الآية ١١ تكملان الصورة التي خلق عليها آدم، وإن إغراء إبليس له قد عجل بظهور الإنسان في آدم.

وهكذا نري أن قصة هبوط آدم كما جاءت في القرآن لها معني ثان غير ظهور الإنسان الأول علي هذا الكوكب، وهو بيان ارتقاء الإنسان من بدائية الشهوة الغريزية إلى الشعور بأن له نفساً حرة قادرة علي الشك والعصيان..

ويقول محمد إقبال: " وليس يعني الهبوط أي فساد أخلاقي، بل هو انتقال الإنسان من الشعور البسيط، إلى ظهور أول بارقة من بوارق الشعور بالنفس .. هو نوع من اليقظة من حلم الطبيعة، أحدثتها خفقة من الشعور بأن للإنسان صلة عليّة بوجوده، ويقول: إن القرآن لا يعتبر الأرض ساحة للعذاب، سجت فيه إنسانية شريرة العنصر، بسبب ارتكابها خطيئة أصلية فالمعصية الأولى للإنسان كانت أول فعل له، تتمثل فيه حرية الاختيار.. ولهذا تاب الله علي آدم وغفر له " (٤) .

د- تؤكد قصة آدم ما للنفس الإنسانية من حرية وخلود، وتضع نظرية محددة معينة في مصير الإنسان بوصفه وحدة من وحدات الوجود، هذه النظرية، في شخصية الإنسان وفرديته يستحيل معها أن تزر وازرة وزر أخري، بل يقتضي أن كل امرئ بما كسب رهين، ولذلك رفض القرآن الكريم فكرة الفداء.

ه- وهذه الجوانب الرمزية في القصة لا تتنافي مع ما ذكرناه من أن القرآن الكريم لا يقنص قصة إلا ليوافقها حالة، ولا يقرر حقيقة إلا ليغيّر بها باطلاً. ومثال علي ذلك ما ورد في ختام قصة آدم وتحذيره وذريته من إبليس وكيدته: " يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَ آتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ " (الأعراف: آية ٢٦-٢٧).

لابد أن نلاحظ أن مشهد العري بعد ارتكاب المحذور، والخصف من ورق الجنة، ثم هذا التعقيب بتذكير بني آدم بنعمة الله في إنزال اللباس الذي يواري سواتهم والرياش الذي يتزينون به، وتحذيرهم من فتنة الشيطان لهم لينزع عنهم لباسهم وريشهم كما نزع عن أبويهم - لابد أن نلاحظ أن ذكر هذه الحلقة من القصة والتعقيب عليها علي هذا النحو، إنما يواجه حالة واقعة في المجتمع الجاهلي العربي المشرك، حيث كانوا تحت تأثير أساطير وتقاليد معينة يطوفون بالبيت عرايا، ويحرمون أنواعاً من الثياب وأنواعاً من الطعام في فترة الحج، ويزعمون أن هذا من شرع الله، وأن الله قد حرّم عليهم هذا الذي يحرمونه علي أنفسهم، ومن ثم الحالة الواقعية في الجاهلية .. وفي كل جاهلية في الحقيقة .. أليست سمة كل جاهلية هي التعري والكشف وقلة الحياء من الله وقلة التقوي؟^(٩٧).

ثانياً: عناصر القصة في القرآن الكريم:

على الرغم من أن القرآن الكريم يقصّ علينا القصص لأغراض دينية، فإن ذلك لم يمنع وجود الخصائص الفنية في عرضه للقصص " فالقرآن الكريم يجعل الجمال الفني أداه مقصودة للتأثير الوجداني، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية، بلغة الجمال الفنية "^(٩٨).

وعناصر القصة هي الركن الأساسي في بنائها، وهي في القصة القرآنية توزع توزيعاً يبلغ حدّ العجب من الناظر فيه بفكر، والمتفطن له بفهم، والفاحص عن أسراره بعمق، فهو يوزّع على أساس إبراز عنصر واحد وإلقاء الضوء القوي عليه حتى يحل مكان الصدارة من القصة أو الأقصوصة وحتى يكاد ما عداه من عناصر أخرى أن يختفي أو يهمل، فلن نجد عناصر الأحداث والأشخاص والحوار مجتمعة في كل قصة قرآنية وموزعة التوزيع الذي يجعل لكل عنصر منها قيمته وخطره في القصة بحيث لو اختفي لاختل التوازن الفني وانهدّ ركن من أركان البناء القصصي لأن هذه الأشياء إنما تُطلب في الرواية وفي القصة الطويلة، والقصص القرآني كان يجري على أساس الأقصوصة لا القصة الطويلة، وربما أن

توزيع العناصر في القصة القرآنية كان يتبع الغرض الديني ويجرى معه في مضمار، فإننا نرى أن عنصر الأحداث هو العنصر البارز في الأفاصيص التي يقصد منها إلى التخويف والإنذار، وعنصر الأشخاص هو العنصر البارز في الأفاصيص التي يقصد منها إلى الإفاضة والإيجاء أو تثبيت المؤمنين، وعنصر الحوار هو العنصر البارز في الأفاصيص التي يقصد منها إلى الدفاع عن الدعوة الإسلامية والرد على المعارضة وهكذا^(٤٧).

الأحداث :

يتناول التعبير القرآني أحداث القصص بريشة التصوير المبدعة التي يتناول بها جميع المشاهد والمناظر التي يعرضها . وكثيراً ما يستعين القرآن على إبرازها بوسائل عديدة منها:

أ- الوصف الدقيق المصوّر: كوصف نوح لإعراض قومه عن دعوته^(٤٨)، كما في قوله تعالى: " وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا " (سورة نوح: آية ٧)

ب - المعاني المعبرة عن المشاعر والانفعالات والأحوال النفسية: كانفعال لوط عندما جاءته رسل ربه: " وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ " (سورة هود: ٧٧)، لأنه كان يعرف قومه . ويعرف ما أصاب فطرتهم من انحراف وشدوذ عجيبين، ويدرك الفضيحة التي ستناله في ضيوفه^(٤٩).

ج - بإبراز الصراع منسجماً مع المغزى العام للقصة: وهو دائماً صراع الخير والشر، والحق والباطل، أو الإيمان والكفر، أو الفطرة السليمة والطوارئ التي تجنح بها ذات اليمين وذات الشمال . وهذا الصراع يكون حيناً صراعاً مادياً: كموقف موسى عليه السلام مع السحرة لما رمي عصاه ورموا عصيهم: " قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَن تُلْقِي وَإِنَّمَا أَنْ نَكُونُ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِبَاهُهُمْ وَعَصِيهِمْ يُحِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ إِنَّهَا تَسْعَى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى

وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ
آتَى" (سورة طه: ٦٥-٦٩).

وحينا صراعاً نفسياً داخلياً كموقف إبراهيم وتجاربه مع الكواكب والقمر
والشمس، في رحلته من الإيمان الفطري إلى الإيمان الواعي، حيث وجد حقيقة
الألوهية في الوعي والإدراك مطابقة لما استكن منها في الفطرة والضمير: " فَلَمَّا جَنَّ
عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ
بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى
الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا
تَشْرِكُونَ " (سورة الأنعام: ٧٦-٧٨) .

وتأتى أهمية الصراع في القصة القرآنية عندما يظهر أثره في ربطه الأحداث من
جهة، والشخصيات من جهة أخرى، والحوار من جهة ثالثة، من جميع جهاتها
ويستولى عليها ثم يمضي إلى غايته المرسومة: فمثلاً عندما ننظر إلى الصراع في قصة
يوسف عليه السلام نجده قائماً بين نفس يعقوب وأبنائه، وبين يوسف وامرأة
العزيز، وبين يوسف وإخوته بعد تسلمه مقاليد مصر، نجد الصراع وقد أمسك
زمام القصة من جميع أطرافها، وهو الذي قادها ووجه أحداثها وهو الذي كان
الجاذب الكبير في مختلف أجزائها، على أنه لم يزد على طبيعته الأصلية التي هي صراع
الخير والشر، والحق والباطل، والإيمان والضلال^(١٠٠) .

وطبيعة الأحداث في القصص القرآني مختلفة فهناك ذلك النوع من الأحداث
الذي يكون نتيجة تدخل عنصر القضاء والقدر في القصة^(١٠١)، فالأحداث التي
جرت فيها قصة مولد موسى عليه السلام، تنكشف إرادة الله فيها، وتحدى القدر
لفرعون رغم شدة حرصه على قتل أى طفل ذكر يولد، حذراً من أن يكون هلاكه
على يديه، كما أخبره بذلك الكهنة ولكن يد القدر تقتحم بالوليد على فرعون قلب
امراته، بعد ما اقتحمت به عليه حصنه . لقد حمته بالمحبة . حمته بالحب الحاني في

قلب امرأة . وتحدثت به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره .. وهان فرعون على الله أن يحمى منه الطفل الضعيف بغير هذا الستار الرقيق الشفيف من الحب^(١٠٠) .. ونلاحظ أن تدخل القدر في هذه الأحداث كان خفياً، لأن نتائجها لم تنكشف إلا بعد وقوعها بمدة .. ولكن القدر يكون تدخله بطريقة سافرة مكشوفة عندما يتحدى بالحوارق أو المعجزات، وهى الأمور التي يجريها الله على يد رسوله أو يحدثها في الكون استجابةً لدعوة الرسول حين التحدى وطلب البينة، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: " فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزَلَفْنَا ثُمَّ الْآخِرِينَ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ " (سورة الشعراء ٦٣-٦٦). أما المفاجأة في الأحداث فهي متنوعة ومختلفة:

فقد يكتف سراً المفاجأة عن البطل والقراء، حتى يكشف لهم معاً في آن واحد، كما في قصة موسى مع العبد الصالح في سورة الكهف^(١٠١)، حيث تبرز مفاجأتها المتعاقبة . وفي النهاية مع دهشة السّر المكشوف يختفي الرجل كما بدا، فقد يخطر للأذهان الدهشة بعد أن تصحو أن تسأل: من هذا؟ ولكنها لن تتلقى جواباً . لقد مضى في المجهول كما خرج من المجهول، فالقصة تمثل الحكمة الكبرى، وهذه الحكمة لا تكشف عن نفسها إلا بمقدار ثم تبقى مجهولة أبداً .

ومرة يكشف السّر للقراء، ويترك أبطال القصة عنه في عماية، وهؤلاء يتصرفون وهم جاهلون السّر، أولئك يشاهدون تصرفاتهم عالمين . وأغلب ما يكون ذلك في موضع السخرية، ليسترك القراء فيها، منذ أول لحظة، حيث تتاح لهم السخرية من تصرفات الممثلين^(١٠٢) . كما وقع في قصة أصحاب الجنة في سورة القلم: " وَلَا يَسْتَشْتُونَ فِطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا صُلْحًا مِّمَّنْ بَيْنَ يَدَيْهِمْ لِيُحِطَّ لَهُمْ بِالْأَمْرِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَّا فِي الْقُرْآنِ وَإِن تَوَلَّوْاْ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَخِرْنَا مِنْهُمْ إِذْ أَخَذُوا مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ فَاسْتَوَسَّوْا بَيْنَهُمْ وَنَحْنُ نَعْلَمُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " (سورة القلم ١٠-١٤).

ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" (سورة القلم آيات ١٨-٣٣).

وهذه القصة قد تكون متداولة ومعروفة، ولكن السياق القرآني يكشف عمًا وراء حوادثها، من فعل الله وقدرته، ومن ابتلاء وجزاء لبعض عباده ويكون هذا هو الجديد في سياقها القرآني .. ومن خلال نصوصها وحركاتها نلمح مجموعة من الناس بدائية أشبه في تفكيرها وتصورها وحركاتها بأهل الريف البسطاء السذج . ولعل هذا المستوى من النماذج البشرية كان أقرب إلى المخاطبين بالقصة، الذين كانوا يعاندون ويحذون، ولكن نفوسهم ليست شديدة التعقيد، إنما هي أقرب إلى السذاجة والبساطة ..

والقصة من ناحية الأداء تمثل إحدى طرق الأداء الفني للقصة في القرآن وفيها مفاجآت مشوقة، كما أن فيه سخرية بالكيد البشري العاجز أمام تدبير الله وكيده .. وفيه حيوية في العرض حتى لكان السامع - أو القارئ يشهد القصة حية تقع أحداثها أمامه وتتوالى، فيعلم ما لا يعلمه أصحاب الجنة من أمرها .. فقد شهد تلك اليد الخفية اللطيفة تمتد إليها في الظلام، فتذهب بثمرها كله .. وهذا لون من ألوان التناسق في التعبير الفني القرآني، يضاف إلى نظائره هنالك.

والله سبحانه وتعالى يسوق إلى قريش هذه التجربة من واقع البيئته، ومما هو متداول بينهم من القصص، فيربط بين سنته في الغابرين وسنته في الحاضرين، ويلمس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم . وفي الوقت ذاته يشعر المؤمنون بأن ما يرونه على المشركين - من كبراء قريش - من آثار النعمة والثروة إنما هو ابتلاء من الله، له عواقبه، وله نتائج . وسنته أن يبتلى بالنعمة كما يبتلى بالبأساء سواء . فأما المتبطرون المانعون للخير المخدوعون بما هم فيه من نعيم، فذلك كان مثلاً لعاقبتهم: " ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون " . وأما المتقون الحذرون فلهم عند ربهم جنات النعيم: " إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم " .. وهو التقابل في العاقبة، كما

أنه التقابل في المسلك والحقيقة ... تقابل النقيضين اللذين اختلفت بهما الطريق،
فاختلفت بهما خاتمة المطاف^(١٠٠).

١ - ومرة يكشف بعض السّر للقراء، وهو خاف على البطل في موضع، وخاف على القراء وعن البطل في موضع آخر، في القصة الواحدة . مثال ذلك قصة عرش بلقيس الذي جرى به في غمضة، وعرفنا نحن أنه بين يدي سليمان، في حين أن بلقيس ظلت تجهل ما نعلم: " فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرَشُكِ " (سورة النمل من آية ٤٢) فهذه مفاجآت عرفنا نحن سرها سلفاً، وهذه المفاجأة الضخمة لم تكن لتخطر على بال الملكة ولذلك جاء ردّها: " قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ " (سورة النمل من آية ٤٢)، وهذا الرد لا ينفي ولا يثبت " ويدل على فراسة وبديهة في مواجهة المفاجأة العجيبة .

وهنا فجوة في السياق، فكأنما أخبرت بسرّ المفاجأة، فقالت: إنها استعدت للتسليم والإسلام من قبل . أي منذ اعترفت القُدوم على سليمان بعد رد الهدية . وكان سليمان - عليه السلام - قد أعد للملكة مفاجأة أخرى لم يكشف السياق عنها بعد، كما كشف عن المفاجأة الأولى من قبل ذكر حضورها - وهذه طريقة أخرى في الأداء القرآني في القصة غير الطريقة الأولى: " قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " (سورة النمل: آية ٤٤) .. لقد كانت المفاجأة قصراً من البلور، أقيمت أرضيته فوق الماء، وظهر كأنه لجة . فلما قيل لها: ادخلي الصرح، حسبت أنها ستخوض تلك اللجة، فكشفت عن ساقَيْهَا . فلما تمت المفاجأة كشف لها سليمان عن سرها .. ووقفت الملكة مفعوة مدهوشة أمام هذه العجائب التي تعجز البشر، وتدلل على أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاقة البشر . فرجعت إلى الله، وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره، معلنة إسلامها " مع سليمان " لا لسليمان ولكن " لله رب العالمين " .

وهكذا سجّل السياق القرآني هذه المفاجآت وأبرزها في أحداث القصة، للكشف عن طبيعة الإيمان بالله، والإسلام له . فهي العزة التي ترفع المغلوبين إلى

صف الغالبين بل التي يصبح فيها الغالب والمغلوب أخوين في الله . لا غالب منهما ولا مغلوب وهما أخوان في الله ... رب العالمين - على قدم المساواة (١٠٠).

وقد لا يكون هناك سراً، بل تواجه المفاجأة البطل والقراء في آن واحد ويعلمان سرها في الوقت نفسه .. وذلك كمفاجآت قصة مريم، حين تتخذ من دون أهلها حجاباً، فتفاجأ هناك بالروح الأمين في هيئة رجل، فتقول: " قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا " (سورة مريم من آية ١٨). لقد عرفنا قبلها بلحظة أنه " الروح ولكن الموقف لم يطل فقد أخبرها: " قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا " (سورة مريم من آية ١٩) . وقد فوجئنا كذلك معها، إذا جاءها المخاض إلى جذع النخلة: " فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّ نَسِيًّا فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا نَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا " (مريم: ٢٣-٢٤).

والقصص القرآني يُبرز أحداثه ويصورها بعاملين أساسيين، هما الزمان والمكان.

أولاً: العنصر الزمني:

إن العنصر الزمني مما تقوم عليه القصة الناجحة، فإن الخيوط الزمنية تمسك بكل جزئيات القصة حتى تطلع بها في الوقت المنشود . كما أن اختفائه يستوجب اختفاء عنصر مهم من القصة.. ولذلك قبل أن نتحدث عن العنصر الزمني في القصص القرآني، يجب أولاً أن ندرك مفهوم الزمان في القرآن الكريم..

الزمان في القرآن الكريم:

في القرآن أنواع من الزمان أبرزها ثلاثة:

١- الزمان الكوكبي:

وهو هذا الزمان الذي نقيم عليه حساباتنا، من أيام وأقسامها ومضاعفاتها . وفيه يقول الله تعالى: " وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَانُهُ

تَفْصِيلاً" (سورة الإسراء: ١٢) .

أ- وهذا الزمان الكوكبي تتحدّد أعمار الأفراد ومراحل السنّ^(١٠٧) .

ب- وهو الزمان الذي تتحدّد به العبادات اليومية^(١٠٨) .

ج- والعبادات السنوية أو عبادة العمر كالحج^(١٠٩) .

د- ويربط العبادات ذات الطابع الاقتصادي والاجتماعي كالزكاة، بالزمان،

فيقول عن الثمار: " وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ " (سورة الأنعام من آية ١٤١) .

هـ- ويربط به أعمار الأمم ودورات ازدهارها وأفولها^(١١٠) .

٢- ما قبل الزمان الكوكبي:

يقول تعالى: " وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ " (سورة ق: ٣٨) . والكواكب بما فيها من أجرام نعلم بها عدد السنين والحساب داخلة ضمن هذا " الخلق "، فمفهوم " يوم " في هذه الآية مختلف عن " اليوم " الذي نتعامل به في حياتنا .

٣- ما بعد الزمان الكوكبي:

يقول تعالى عن يوم القيامة: " يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ " (سورة إبراهيم: ٤٨) .

وترد في القرآن الكريم آيات تدل على طول ذلك اليوم، بعد أن تبدل الأرض غير الأرض والسماوات: " تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ " (سورة المعارج: آية ٤) ويقول: " وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ " (سورة الحج من آية ٤٧) .

٤- الزمن النفسي:

وفيه يبدو إحساس الإنسان بطول الزمن أو قصره . ويضرب الله مثلاً، بحوار يدور يوم القيامة: " قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ " فَأَلْوَا لِبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ

يَوْمَ فَاسْأَلُ الْعَادِينَ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ " (سورة المؤمنون آيات ١١٢-١١٥) .

وصفوة القول إن الزمان في القرآن: مقياس معلومة، ومقاييس مجهولة سابقة ولا حقة، وإحساس به، قصر أو امتداداً، يطغى على القياس المعلوم (١١١) .

الزمان والتجربة الشعورية:

تشير بعض آيات القرآن الكريم (١١١)، بما تبين من حقيقة ما نعلمه عن الزمان، إلى وجود مستويات للشعور مجهولة لنا .. إن المعضلة الوجودية التي تواجهنا هي كيف نحدد طبيعة الوجود النهائية . فكون العالم يلبث في زمان أمر لا يقبل الشك، ولكن لأن الزمان خارج عن أنفسنا يمكن أن نشك في وجوده..

الحقيقة أن التغير المستمر لا يمكن تصوره من غير زمان، مقياساً على تجربتنا الباطنة يكون معنى الوجود الشعوري، الوجود في زمان، على أن إنعام النظر في طبيعة الحياة الشعورية يظهر أن النفس في حياتها الباطنة تتجه من مركزها إلى الخارج، وربما جاز لنا أن نقول في وصفها إن لها قوتين: القوة العاملة، والقوة العاملة . وقوة النفس العاملة تتعلق بما نسميه عالم الحيز - وهو موضوع علم النفس الارتباطي المعروف " بالمذهب الحسي " - أي النفس العملية التي تتصل في الحياة اليومية بالترتيب الخارجي للموجودات التي تعين حالات شعورنا العابرة وتطبعها بصفات المتحيزة التي تعزل كلاً منها عن الآخر ... والتعمق في تحليل الحياة الشعورية يكشف لنا الناحية العاملة في النفس، فنحن نغوص في أعماق نفوسنا ونبلع المركز الداخلي للتجربة في لحظات التأمل العميق فقط عندما تكون النفس العاملة معطلة . وحالات الشعور في حياة هذه الذات العميقة تذوب كل واحدة منها في الأخرى ... وزمان النفس العاملة يبدو كأنه آن مفرد، تحيله النفس العاملة في اتصالها بالعالم المتحيز إلى سلسلة من الآنات كحبات اللؤلؤ المنظومة في خيط واحد؛ وعلى هذا فإن فيها ديمومة بحثة لا تشوبها شائبة الحيز..

ويشير القرآن بما تميّز من وضوح وبساطة إلى ظاهرتي تعاقب المدة وعدة تعاقبها في الآيات الآتية: " وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا " (سورة الفرقان: ٥٨-٥٩) - و " إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمَحٍ بِالْبَصْرِ " (سورة القمر: ٤٩-٥٠) .

إننا إذا نظرنا إلى الحركة المتضمنة في الخلق من الخارج وهي ما أطلقنا عليه اسم " ما قبل الزمان الكوكبي " وحاولنا فهمها عقلياً، وجدناها قد استغرقت آلاف السنين، لأن اليوم الإلهي في لغة القرآن يعدل ألف سنة حسب ما أخبرنا الحق سبحانه وتعالى في قوله: " وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ " (الحج: من آية ٤٧). وهذا الخلق الذي استغرق آلاف السنين هو من وجهة نظر أخرى فعل مقرر غير منقسم " كلمح بالبصر "، على أنه يستحيل علينا أن نعبر في كلمات عن هذا الإدراك الباطني للديمومة البحتة، لأن اللغة تكيفت بالزمان المجرد، زمان النفس الفاعلة في كل يوم^(١١١).

أما إذا رجعنا إلى التأمل في القرآن الكريم، نجد فيه كلمة من حرفين، تعبر عن أقصى مدى التعبير عن تصوّر السرعة، هذه الكلمة هي " كن " وإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ " (سورة البقرة من آية ١١٧). وهي تعبير عن مقياس السرعة الإلهية، التي تعتبر السرعة الضوئية بالمقياس إليها سرعة السلحفأة، أو أدنى من ذلك... فبين الكاف والنون تتم إبداعات القدرة الإلهية، بمقياس كوني يلغى الزمن، فلا يجعله شرطاً لإبداع الخالق، وإن جعلته الإرادة المبدعة بعداً رابعاً للوجود، وشرطاً لاستمراره، فالزمن مخلوق كما أن المادة مخلوقة. ومن مدلول السرعة الكُنِّيَّة، حيث لا زمن، ومدلول السرعة السلحفائية. إن صح التعبير - تقع كل احتمالات قياس السرعة على اختلاف تصوراتها من جاذبية، إلى صوتية، إلى ضوئية... وعلى هذا لا يكون ما نقول عن السرعة الكُنِّيَّة (بين الكاف والنون) متعارضاً مع ما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى: " وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا

يَمُوتُ وَسَبَّحَ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بُدُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَيْرًا " (سورة الفرقان ٥٨ : ٥٩) .. لأن هذه مشيئة الإرادة التي تملك الإنجاز في لا زمن، كما تملكه في نطاق الزمن، وهي التي ربطت بين المادة والزمن (١١١) .

نعود إلى النفس العاملة حيث نجد إنها بمثابة جهاز مصحح للنفس الفاعلة، من حيث إنها تتركب في كلية الشخصية المتناسكة جميع " الهنات " (الهنا بالفتح تستعمل للمكان الحسي)، والآفات - أي التعبير القليل في المكان والزمان مما لا غنى عنه للنفس الفاعلة . فالزمن المحض إذاً، كما يكشفه التحليل العميق لحياتنا الشعورية، ليس خيطاً من لحظات متفرقة متقلبة، وإنما هو كل مركب، ليس الماضي فيه متخلفاً، ولكنه متحرك مع الحاضر ويؤثر فيه - والمستقبل يتصل بهذا الكل المركب لا بوصفه موجوداً أمامه، ليجتاز بعد، وإنما يتصل بهذا الكل المركب بمعنى إنه مائل في طبيعته في صورة إمكان قابل للتحقيق (١١٢) .

والزمن باعتباره كلا مركباً . هو الذي يسميه القرآن التقدير: " إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ " (سورة القمر: ٤٩)، و " التقدير " هو الزمان عندما ننظر إليه على أنه سابق على وقوع إمكانياته، هو الزمن الخالص من شبك تتابع العلة والمعلول، أي حالة الرسم البياني التي يفرضها الفهم المنطقي على الزمان، وبالاختصار هو الزمان كما نشعر به، لا كما نفكر فيه أو نحسبه . ولذا وجب أن يأتي بعد " التقدير " قوله تعالى: " وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ " (سورة القمر ٥٠) فهي إشارة واحدة . أو كلمة واحدة يتم بها كل أمر: الجليل والصغير سواء . وليس هنالك جليل ولا صغير . إنما ذلك تقدير البشر للأشياء . وليس هنالك زمن ولا ما يعادل لمح البصر، إنما هو تشبيه لتقريب الأمر إلى حس البشر . فالزمن إن هو إلا تصور بشري ناشئ من دورة أرضهم الصغيرة، ولا وجود له في حساب الله المطلق من هذه التصورات المحدودة (١١٣) .

والقصة القرآنية تساعد على توضيح أحداثها باستخدام أساليب الزمان الأربعة،

ففي قصة يوسف نقرأ ثلاثة أساليب في معاملة الزمان:

١- ذكر العشاء في قصة إخوة يوسف لأنه جزء من الليل يمكن فيه تدبير الجريمة . ولذلك تستر إخوة يوسف في ظلامه، وجاءوا فيه إلى أبيهم يخبرونه هذا الخبر المشئوم المكذوب " وَجَاؤُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ " (سورة يوسف ١٦) . فهذه الجزئية من جزئيات الزمن حرص القرآن على ذكرها لأن لها مكاناً في سير أحداث القصة .. ذلك أن ظلام الليل الذي أظلم هذا الكذب الذي وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله: " وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ " (سورة يوسف: ١٨) . هو نفسه الظلام الذي نم على الكذب، ودل عليه، وألقى في خاطر الأب، أن أبناءه لو كانوا صادقين فيما أخبروا لسارعوا إلى أبيهم بالحدث في وقته، لأن مثل هذا الحدث لا يسكت عليه لحظة^(١١٧) .

٢- بعد أن أبى يوسف الاستجابة لمرادة امرأة العزيز، وشهد شاهد من أهلها، بما يثبت براءته . قال العزيز: " يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ " (يوسف: ٢٩) . . ولكن أصرت امرأة العزيز على متابعة ما هي فيه . ويأتى قول الله تعالى: " ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجْنَهُ حَتَّىٰ حِينٍ " (يوسف ٣٥) .. وتسير القصة حتى ينبئ يوسف صاحبيه في السجن ما رأيا في المنام، " وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ " (سورة يوسف: ٤٢) .

ونقف عند قوله تعالى: " حتى حين " وقوله " بضع سنين " فالمدة التي قضاهما يوسف - رغم أهميتها - غير محددة في القصة . " وبضع " لغوياً قد تكون بين الثلاث والتسع، وعدم التحديد هنا يزيد من الإحساس بالظلم الواقع على يوسف، وبفساد نظام الحكم وقتئذ، فساداً يمكن أن يبقى فيه البريء سجيناً مدة لا حساب للزمن فيها، السجن دفعته أهواء الحكم وسلطة الحاكمين إلى السجن، وقد تدفعه إلى النور شهادة ساقى الخمر، أو وساطة من حاشية الحاكم^(١١٨)، ومن ناحية أخرى يبرهن عدم التحديد على أن يوسف ذو عزم متين وصبر عجيب^(١١٩) .

٣- ويبدو حساب الزمن دقيقاً إذا كنا بسبيل التخطيط وإنقاذ الناس من المجاعة المنتظرة، لا مجال هنا لبضع سنين أو إلى حين . ولكن المجال لجميع جهود وتحديد مدة وتنظيم عمل، وفي هذا يقول الله تعالى عن الخطة التي رسمها يوسف ليقابل بها المجاعة المنتظرة: " قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ " (يوسف: ٤٧ - ٤٩) .

والخطة ثلاث مراحل: سبع سنين لكل من المرحلتين الأولى والثانية وواحدة للمرحلة الثالثة . ولكل من الثلاث عمل يختلف عن الأخرى:

الأولى: تحديد مدة، إنتاج زراعي، ينبغي أن يرتفع فيه معدل الإنتاج، " دأباً"، ومع وفرة الإنتاج تقييد الاستهلاك ويتمثل في قوله تعالى: " إلا قليلاً مما تأكلون " وذلك من أجل ادخار أكبر قدر ممكن من المحصول يتمثل في قوله تعالى: " فما حصدتم فذروه في سنبله " .

الثانية: مرحلة استهلاك منظم يتوفر فيها عدالة التوزيع ودقته فلا يأتي الاستهلاك علي كل المخزون، ويتمثل هذا في قوله تعالى: " يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون " .

الثالثة: مرحلة إعادة الاستثمار، وذلك بعد ارتفاع الفيضان - بعد قحط السنوات السبع - فتجد الأرض البذور المدخرة، فيزرع الناس ويحصدون ويعصرون .

ارتبط حساب الزمان هنا بالتخطيط والعدل، كما ارتبط إغفال الزمان بالتسيب والظلم، وكان تعريف الزمان وتنكيره، عاملاً ساعد علي إبراز الظاهرة الاجتماعية، ويبدو من هذا كيف تخدم الحقيقة التاريخية هدف القصة في القرآن، وأن تحديد الزمان فيه، علي أساس انتقائي، مرتبط بالهدف وهو العبرة، دون اقتصار علي مجرد المعرفة^(١٢) .

وفي خواتيم هذه السورة نقرأ الربط بين السرد والهدف في قوله تعالى:

" لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " (سورة يوسف: آية (١١١).

ونلاحظ كذلك في قصص القرآن الكريم، أنه يسلك بالزمن - إذا تناوله - مسلك التدرج في تتابع أحداثه، إلا في موضع واحد فيما نذكر .. وهو قصة البقرة التي لم تذكر في القرآن الكريم أكثر من مرة واحدة .. فإن الله سبحانه بدأ في هذه القصة بذكر الشطر الثاني منها^(١١١)، فعندما نقرأها نقف أمام مجهول لا نعرف ما وراءه، فنحن لا نعرف في مبدأ عرض القصة لماذا يأمر الله بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة، كما أن بني إسرائيل إذ ذاك لم يعرفوا، وهذا اختبار لمدي الطاعة والاستجابة والتسليم ... ولذلك تم تأخير الشطر الأول، فقد كانت العناية متجهة إلى ناحية الحوار في أمر البقرة، ولونها وصفاتها الأخرى، فلا نري الحوار ينقطع ليثبت ما دار بين موسي وربه، ثم يعود إليهم بالجواب ... ولكن سياق القصة لا يقول: إنه سأل ربه ولا أن ربه أجابه .. ليكون في ذلك أيضاً تشويق لمبدأ القصة .. فإن داعية المعرفة تتحرك لطلب السبب في أمر الله جل شأنه بني إسرائيل بذبح البقرة^(١١٢): " وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِصٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْئِمَّا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقْع لَوْئِمَّا تَسُرُّ النَّاطِرِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ " (سورة البقرة ٦٧-٧١) ثم تنتهي إلى المباغته في الخاتمة - كما بوغت بها بنو إسرائيل - انتفاض الميت مبعوثاً ناطقاً، علي ضربة من بعض جسد

لبقرة بكاء مذبوحه، ليس فيها من حياة ولا مادة حياة (١٣٣) " وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ " (سورة البقرة ٧٢-٧٣).

ثانياً: العنصر المكاني:

يقرّر القرآن الكريم أن العالم لم يُخلق عبثاً: " وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِينٍ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ " (سورة الدخان ٣٨-٣٩)، وهذه الحقيقة، يجب أن تُوضع موضع الاعتبار: " إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ " (سورة آل عمران ١٩٠-١٩١) .. وفوق هذا فالعالم مرتب علي نحو يجعله قابلاً للزيادة والامتداد: " يزيد في الخلق ما يشاء " (سورة فاطر: ١) .. فليس هذا العالم كتلة، وليس جامداً غير قابل للتغير والتبدل، بل ربما استقرّ في أعماق كيانه حلم نهضة جديدة: " قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " (سورة العنكبوت: آية ٢٠).

والحق أن حركات الكون واهتزازاته الخفيّة، وهذا الزمان السابح في صمت يبدو لأنظارنا البشرية في صورة تقلّب الليل والنهار، يعدّه القرآن إحدى آيات الله الكبرى: " يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ " (سورة النور: ٤٤).

وهذا الامتداد العظيم في الزمان والمكان يحمل في طياته الأمل في أن الإنسان الذي يجب عليه أن يتفكر في آيات الله سيتم غلبته علي الطبيعة بالكشف عن الوسائل التي تجعل هذه الغلبة واقعة (١٣٤).

وسوف يوضّح لنا " المكان " في القصة القرآنية، طبيعة هذا الأمل وإمكانية

تحقيقه، واضعين في الاعتبار الناحية الفنية في ذكر المكان، فالقرآن الكريم لم يلتفت لذكر المكان في القصة إلا إذا كان له وضع خاص يؤثر في سير الحدث أو يبرز ملامحه أو يقيم شواهد نفسية وروحية تفتقدها القصة^(١٢٥):

ولذلك يختلف مدى وضوح المكان من قصة إلى أخرى:

(أ) فقد يذكر المكان باسمه الصريح المعروف كالمسجد الحرام والمسجد الأقصى^(١٢٦). فلا يختلف فيه وقت نزول القرآن ولا بعده .

(ب) وقد يذكر الاسم العلم ولكن يختلف في تحديد موقعه كالجودي: جبل نوح^(١٢٧).

(ج) وقد يذكر بصفته كـ " ربوة ذات قرار ومعين " ^(١٢٨) فتتعدد في تفسيرها وتحديد الآراء.

(د) وقد تذكر القصة دون إشارة إلى المكان مثل قصة إدريس^(١٢٩).

(هـ) وقد يذكر اسم صاحب القصة دون أن تذكر قصته كذي الكفل^(١٣٠) وقوم تبع^(١٣١).

(و) وقد ينسب صاحب القصة إلى المكان كأصحاب الرّسّ^(١٣٢) دون عرض القصة.

(ز) وقد تذكر القصة دون تحديد لمكانها ولا اسم صاحبها كقصة الرجل المؤمن في سورة يس^(١٣٣).

(ح) وقد تذكر مجموعة من الأقاليم في نسق واحد كأنها قواعد تسير عليها الرسالات مثل قوله تعالى: " أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ " (سورة إبراهيم: ٩).

وتتتابع بعد هذا الآيات توضح ما حدث للرسل وأقوامهم وجزاء من اتبعوهم ومن أعرضوا عنهم في الدنيا والآخرة ...

الوحدة الجغرافية: التوزيع والعلاقات:

أولاً: منطقة القلب:

أهم مكان يعني به القرآن الكريم هو المسجد الحرام . وهذا البيت هو مركز منطقة القلب في قصص القرآن والتاريخ الإنساني التي ذكر الله فيها أكبر عدد من الأسماء متجمعة: البيت . مكة . مقام إبراهيم . الصفا . والمروة . عرفات . المشعر الحرام.

ثانياً: نطاق الغزوات:

وحول منطقة القلب هذه نطاق أوسع يمكن أن نسميه " نطاق الغزوات " جاءت فيه الأماكن الآتية: " المدينة ^(١٣٤)، " بدر " ^(١٣٥)، " حنين " ^(١٣٦). وفيها نرى اتساعاً في المساحة وقلّة في عدد الأماكن المذكورة بأسمائها ^(١٣٧).

ثالثاً: الدائرة الثالثة:

وإذا اعتبرنا البيت الحرام أو مكة مركز دائرة نصف قطرها نحو ١٢٠٠ كيلو متراً، وجدنا اليمن والعراق والشام ومصر علي محيط هذه الدائرة أو قريباً منها . وفي نطاق هذه الدائرة أو الحلقة الثالثة وقعت معظم أحداث القصص القرآني:

١- ومن المركز يمتد محور جنوبي إلى اليمن وبه قصص عاد ونيهم هود: " **وَإِذْ كُنَّا أَهْلًا عَادٍ إِذْ أَنْذَرْنَا قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ** " (سورة الأحقاف من آية ٢١).. وهي جبال الرمل باليمن ويصف الله مواطنهم بالغني.

جاء في هذا المحور ذكر سبأ:

" **لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ** " (سورة سبأ: من آية ١٥) ولا زالت آثار السد والجنتين باقية.

٢- ومن المركز يمتد محور شمالي، يذكر فيه الله عدة أماكن متتابعة علي طريق التجارة.

أ- قري لوط في قوله تعالى: " وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ " (سورة الحجر: ٦٧) . ثم وصفها بقوله: " وَإِنَّهَا لَبَسِيلٌ مُّقِيمٌ " (سورة الحجر: ٧٦) . وهي المؤتفكات في قوله تعالى: " وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى " (سورة النجم: ٥٣)

ب- أصحاب الأيكة في قوله تعالى: " وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ " (سورة الحجر: ٧٨) وهي مدين في قوله تعالى: " وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا " (سورة الأعراف: ٨٥).

ج- ديار ثمود وهم أصحاب الحجر في قوله تعالى: " وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ وَأَتَيْنَاهُم آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ " (سورة الحجر: ٨٠-٨٣).

وتضم هذه الأماكن قصص لوط، وشعيب نبي مدين، صالح نبي ثمود ...

فروع المحور الشمالي: ويتفرع هذا المحور إلى ثلاث شعب:

أ- الأولى: شمالية تصل بنا إلى المسجد الأقصى في قوله تعالى:

" سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ " (سورة الإسراء: ١).

وذكر الله ديار الروم في قوله تعالى: " غَلَبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ " (سورة الروم ٢-٤).

ب- الثانية: شمالية شرقية: ويمكن أن نعتبرها امتدادا لقوس بلاد الشام الموصل إلى العراق . وإليها جاءت الإشارة في قوله تعالى:

" وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ " (سورة البقرة: من آية ١٠٢) .. وتتصل بالعراق قصص نوح وإبراهيم.

ج- الثالثة: شمالية غربية: إلى مصر . وردت باسمها الصريح كما وردت سيناء: " أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي " (سورة الزخرف: من آية ٥١).

" وَشَجْرَةَ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصِبْغٌ لِلْكَالِبِينَ " (سورة المؤمنون: آية ٢٠) .. وترتبط بها قصص إدريس - في بعض الأقوال - وإبراهيم، وإسحاق وبنيه، وإسماعيل ويوسف، وموسى، وعيسى، ومحمد في ليلة الإسراء وبولده إبراهيم من مارية القبطية (١٣٨)

الوحدة الجغرافية والعبرة من القصص:

١- هناك ارتباط قوي بين منطقة القلب ومناسك الحج وقصص إبراهيم وإسماعيل ومحمد - صلي الله عليهم وسلم - . ولا زالت هذه المنطقة قلب العالم الإسلامي النابض بالأمر الإلهي لإبراهيم: " وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ " (سورة الحج: ٢٧) .

٢- ثم هناك الرحلات التجارية التي قام بها سكان منطقة القلب إلى اليمن جنوباً والعراق والشام ومصر شمالاً والتي نقرأ توقيتها في قوله تعالى: " لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ " (سورة قريش). وكيف أن هذا التنظيم والتدبر فيه آية تدعو إلى الإيمان وعبادة الله ..

٣- وفي الحلقة الوسطي أماكن الغزوات، وترتبط جميعاً بسيرة النبي بما فيها من عبر تمثل فيها غزوتها بدر وحينين ..

٤- أما الحلقة الثالثة: فالله يصف بعض قصصها بأنها لسبيل مقيم، وبإمام مبين وخاطبنا عن قوم لوط: " وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ " (سورة الصافات: ١٣٧-١٣٨). فاعتبر هذا المرور من وسائل التفكير والتأمل .. فهذه الأماكن إذاً من وسائل التأمل . وهي بهذا تساعدنا على زيادة الاعتبار من القصص ..

قصص لم يذكر الله مكانها في القرآن:

ومع هذا لا يمكن القول بأن قصص القرآن كله له ارتباطاته المكانية التي يمكن إدخالها في حلقة من الحلقات السابقة، ويمكن تقسيم هذا القصص إلى مجموعتين:

المجموعة الأولى:

قصص ما قبل الطوفان وبخاصة قصة آدم، وتشمل قصص إدريس ونوح. وفي هذه المجموعة لا نكاد نجد ذكراً للمكان إلا ما جاء في أمر الجودي في قصة نوح. ولا زال موضعه محل جدل. والمكان رغم ضآلته في هذه المجموعة أوضح في القصص المتأخر - نوح - عن القصص الأقدم - آدم وإدريس - والجودي مرتبط بأحداث ما بعد الطوفان. وعلي هذا نستطيع أن نستبعد التحديد المكاني استبعاداً كاملاً من قصص ما قبل الطوفان^(٣٤).

المجموعة الثانية:

قصص سورة الكهف. وإن كثرت فيها الأقوال، ويهمننا في دراسة هذه المجموعة أنها تعطي الامتداد المكاني في التاريخ في قول الله تعالى: " حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ " (من آية ٨٦) " حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ " (من آية ٩٠).. ولا يصرفه التجوال عن مسئوليات محددة عليه أن يحملها: " حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا " (آية ٩٣).. وهنا أقام معهم السد محكماً قوياً وشاركوا في العمل. وعندما رفعه واختبره قال: " هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي " (من آية ٩٨) وبين قصتي " أصحاب الكهف، وذي القرنين، نجد قصة موسى والعبد الصالح، وهي قصة لم يطلبها كفار قريش؛ ثم قصتي "آدم" وقصة الصالحين" .. وهذا الإغفال أو التعميم الذي نراه في الأماكن، يمكن أن نراه في نواح أخرى من قصص الكهف مثل عدد أصحاب الكهف .. وفي قصة ذي القرنين عبارات عامة .. حتى أنه ذكر بصفته دون اسمه .. فإذا لجأت قريش إلى يهود تستنصرهم علي النبي وتحاول أن تأخذ من الكتب القديمة مادة تمتحن بها الوحي من جهة وتحدي النبي بهذه القصص أن يخرجوا بأسئلتهم عن النطاق الجغرافي الذي ظل فيه قصص القرآن .. والحق أن الآيات أتت من عند الله تحسم هذه الاتجاه، وليأت في عدد أصحاب الكهف: " سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ

رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةً وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا " (آية ٢٢) ولتقف كثيراً عند الأمرين الأخيرين في هذه الآيات ثم نقرأ نبي الله نبيه عن الارتباط مع اليهود أو قريش بموعد يتعلق بالوحي: " وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا " (آية ٢٣).

ولعلنا بذلك نستطيع أن ندرك جانباً من العبرة في وضع قصة موسى والعبد الصالح بين قصتي أصحاب الكهف وذوي القرنين . فالصحبة بين موسى والعبد الصالح تستمر ما دام موسى متبعاً شرط العبد الصالح: " فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا " (آية: ٧٠) بعد أن مهد لذلك بتحذيره: " قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا " (٦٧-٦٨).

وتأتي المشكلات - كما يقول القرطبي (١٤٠) - قريبة مما حدث في حياة موسى، فيقول في تفسير الآيات التي وقعت لموسي مع العبد الصالح: إنها حجة علي موسى، وعجباله. وذلك أنه لما أنكر أمر خرق السفينة نودي: يا موسى أين كان تدبيرك هذا وأنت في الثابوت مطروحاً في اليم، فلما أنكر أمر الغلام قيل له: أين إنكارك هذا من وكرك القبطي وقضائك عليه، فلما أنكر إقامة الجدار نودي: أين هذا من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أجر. ومع هذا لم يستطع موسى الصبر . وكان سكوته إن سكت فاتحاً لباب العلم وسؤاله حين سأل مغلقاً هذا الباب. وأحسب أنه من هذه الرواية نستطيع أن نلمس جانباً من النهج الذي ساق الله به قصص هذه السورة بالذات.

وصفوة القول في المكان:

إنه لم يكن من أهداف القرآن أن يستغرق الأماكن حصراً وتسجيلاً. وإنما اكتفي بأن أورد لنا نمطا واضحا من الدراسة يتمثل في مركز ودوائر متتابعة في الاتساع ومحاور تربط بين القلب والأطراف، فالقلب هو البيت الحرام، وهو مركز التاريخ الإنساني: أول بيت وضع للناس، وحوله دائرة الغزوات حيث يتمثل الدفاع عن

العقيدة وحماتها، وتليها دائرة الاعتبار في القصص الممتد علي المحورين الشمالي بفروعه والجنوبي، ثم دائرة واسعة غير محدودة تمثل وجوب السير في الأرض لمزيد من الاعتبار، سيراً إلى مطالع الشمس ومغارها، وعملاً في مجال العقيدة، والإنشاء والتعمير، والحصول علي مزيد من العلم مع التواضع الدائم لله: " قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا " (سورة العنكبوت من آية ٢٠) وهي بدورها ممهدة لتطوير المجتمعات وبناء أفضل للتاريخ الإنساني، وهي معان تمثلها جميعاً قصص سورة الكهف دون أن تنفرد بها^(٤١).

القدرة الإلهية وحواجز الغيب:

١ - لقد مرَّ القرآن حواجز الغيب وحاجز الزمن الماضي، وحاجز الزمن المستقبل، وحاجز المكان، علي أن هناك أيضاً حاجزاً آخر، هو حاجز النفس البشرية، ما يخفيه الإنسان داخل نفسه.

ولقد مرَّ القرآن حاجز الزمن الماضي، فيخبرنا بما حدث للأمم السابقة ويقص علينا قصص الرسل السابقين، ويكفي أن نقرأ في القرآن: ما كنت، وما كنت، وما كنت: لنعرف كم أخبر الله رسوله بأنباء من الغيب الماضي:

" وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ " (آل عمران من آية ٤٤)
و " وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغُرِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ " (القصص من آية ٤٤)

و " وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا " (سورة القصص من آية ٤٥).

و " وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ " (القصص من آية ٤٦).

وهكذا نري أن القرآن مرَّ حجاب الزمن الماضي في أكثر من مناسبة ليخبر محمداً - عليه الصلاة والسلام - بالأخبار الصحيحة عمَّن سبقوه من الرسل

والأنبياء... ويصحح ما حُرّف من الكتب السماوية، ذلك لأن التحدي للقرآن من تمزيق حجاب الزمن الماضي، وصل إلى أدق أسرار الرسائل السماوية الماضية فصَحَّحها لهم، وبيّن ما حَرَفوه منها وما أخفوه، وتحذّاهم أن يكذبوا ما جاء في القرآن فلم يستطيعوا، ومن ذلك قوله تعالى: " ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ " (سورة مريم: ٣٤).

ثم بعد ذلك مَرَّقَ القرآن حجاب المستقبل: انظر إلى قوله سبحانه وتعالى " سَيَهْزِمُ الْجُمُعَ وَيُوَلُّونَ الدُّبَرَ " (سورة القمر: آية ٤٥) تبشّر بانتصار المسلمين في بدر، وقد نزلت هذه الآية في مكة والمسلمون قلّة. وكذلك قوله سبحانه وتعالى: " الْمَ غَلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ " (سورة الروم: آيات ١-٥). ثم يمضي القرآن ليمعن في التحدي: " وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " (سورة الروم: ٦).

لقد قصّ القرآن أنه بعد بضع سنين ستحدث معركة بين الفرس والروم وينتصر فيها الروم..

ثم مَرَّقَ الله حجاب المكان لمحمد صلي الله عليه وسلم، وجاء في أدق الأمور وهو حديث النفس: " ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله .. فالقرآن هنا لا يقول لهم لقد هتكت حاجز الماضي، وأخبرتكم بأبناء الأولين ولا يقول لهم سأهتك حاجز المكان، وأخبركم بما يدور في بقعة قريبة لا ترونها، بل يقول: سأهتك حاجز النفس، وأخبركم بما في أنفسكم، أي بما في داخل صدوركم بما لم تهمس به شفاهكم، وكان يكفي لكي يكذب الكافرون محمداً أن يقولوا لم تحدثنا أنفسنا بهذا، إذا فالقرآن في هتكة لحجاب المكان دخل إلى داخل النفس البشرية، وإلى داخل نفوس غير المؤمنين الذين يههم هدم الإسلام، قال تعالى: " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يُعَادُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ

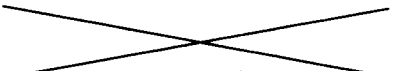

حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ" (سورة المجادلة: ٨).

وبعد أن وجدنا أن لكل من الزمان والمكان أثرهما في بناء القصة القرآنية وفي لباسها ثوباً من الواقع الذي يجتذب إصغاء القارئ وانتباهه نجد أيضاً ما يقابل ذلك تماماً إذ كثيراً ما يعرض الحدث مجرداً عن ذكر الزمان والمكان اللذين وقع فيهما، مع عدم الإخلال بسير الحادثة، بل إنه قد يضيف إليها جمالاً في الأداء ولنستمع إلى قوله تعالى: " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ" (سورة البقرة: آية ٢٤٣). في أي أرض كانوا؟ وفي أي زمان خرجوا من ديارهم وهم أُلُوفٌ حذر الموت؟ لم يذكر النص القرآني ذلك مع الوضع في الاعتبار أن الله سبحانه وتعالى لو أراد بياناً عنهم لبيّن، كما يجيء القصص المحدد في القرآن، إنما هذه عبرة وعظة يراد مغزاها، ولا يشكل المكان والزمان أهمية فيها إذ أن تحديد الأماكن والأزمان لا يزيد هنا شيئاً علي عبرة القصة ومغزاها، إنما يراد هنا تصحيح التصور عن الموت والحياة، وأسبابها الظاهرة، وحققتها المضمرة، وردّ الأمر فيهما إلى القدرة المدبّرة، والاطمئنان إلى قدر الله فيهما، والمعني في حمل التكاليف والواجبات دون هلع ولا جزع، فالمقدر كائن، والموت والحياة بيد الله في نهاية المطاف. يراد القول: إن الحذر من الموت لا يجدي وأن الفرع والهلع لا يزيدان حياة، ولا يمدان أجلاً، ويردان قضاء، وأن الله هو واهب الحياة، وهو آخذ الحياة، وإنه مفضل في الحالتين: حين يهب وحين يسترد، والحكمة الإلهية كامنة خلف الهبة وخلف الاسترداد، وأن مصلحة الناس متحققة في هذا وذاك، وأن فضل الله عليهم متحقق في الأخذ والمنح سواء... ثم جاء قوله تعالى بعد هذه الأقصوصة، أو القصة الذرية: " وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" (سورة البقرة آية ٢٤٤).. هنا ندرك طرفاً من حكمة الله في سوق هذه التجربة للجماعة المسلمة في جيلها الأول، وفي أجيالها جميعاً... ألا يقعدن بكم حب الحياة، وحذر الموت، عن الجهاد في سبيل الله. وبعد تقرير تلك الإيماءات الإيمانية التربوية الكريمة، التي تضمنتها الحادثة يأت بعد ذلك دور الجمال الفني في الأداء: " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ

ديارهم وهم ألوف حذر الموت ؟ " .. إن في التعبير استعراضاً لهذه الألوف وهذه الصفوف استعراضاً ترسمه هاتان الكلمتان: " ألم تر؟ " .. وأي تعبير آخر ما كان ليرسم أمام المخيلة هذا الاستعراض كما رسمته هاتان الكلمتان العاديتان في موضعهما المختار .. ومن مشهد الألوف المؤلفة الحذرة من الموت، المتلفتة من الذعر .. إلى مشهد الموت المطبق في لحظة، ومن خلال كلمة: " موتوا " .. كل هذا الحذر، وكل هذا التجمع، وكل هذه المحاولة .. كلها ذهبت هباءً في كلمة واحدة: " موتوا " .. ليلقي ذلك في الحس عبث المحاولة، وضلالة المنهج؛ كما يلقي صرامة القضاء، سرعة الفصل عند الله ..

" ثم أحياهم " .. هكذا بلا تفصيل للوسيلة .. إنها القدرة المالكة زمام الموت وزمام الحياة، المتصرفة في شؤون العباد، لا ترى لها إرادة، ولا يكون إلا ما تشاء .. وهذا التعبير يلقي الظل المناسب علي مشهد الموت ومشهد الحياة: " وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيَضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ " (سورة البقرة: ٢٤٤-٢٤٥).

ونحن في مشهد إماتة وإحياء . قبض للروح وإطلاق .. فلما جاء ذكر الرزق كان التعبير: " والله يقبض ويبسط " .. متناسقاً في الحركة مع قبض الروح وإطلاقها في إيجاز كذلك واختصار:

يقبض		موتوا
أحياهم		يبسط

وهكذا يبدو التناسق العجيب في تصوير المشاهد إلى جوار التناسق العجيب، في إحياء المعاني وجمال الأداء بالرغم من إغفال عنصري الزمان والمكان^(١١).

٢. الشخصيات:

إن المذهب المتبع في رسم الشخصيات في القصة القرآنية أو في معظمها على أقل تقدير كان المذهب غير المباشر، أي عرض الشخص في تفكيرهم وأعمالهم،

وحركاتهم، ويترك لنا نحن التعرف عليها من طرق تفكيرها ونهج أعمالها وسبحات روحها حتى لكأنها الشخص الذي نعاشره منذ زمن فعرفنا خلقه ومزاجه وطوايا عقله وحنايا فؤاده^(١١٣).

وهذا المذهب سمة فنية محضة، وهو بعينه غرض للقصص الفني المجرد - وها هو ذا القصص القرآني، ووجهته الأولى هي الدعوة الدينية، يُلمّ في الطريق بهذه السمة أيضاً، فتبرز في قصصه جميعاً، ويرسم بضع " نماذج إنسانية " من هذه الشخصيات، تتجاوز حدود الشخصية المعينة إلى الشخصية النموذجية^(١١٤).

ومهما تكن صورة هذه الشخصية فإنها بطبيعة الحال هي التي تحرك الأحداث، وتضطرب بها، أو تقوم الأحداث نفسها بتحريك الشخصيات، أو تتساقق وتتوازن، فلا تطفئ الشخصية علي الحدث، ولا يطفئ الحدث على الشخصية^(١١٥).

فالقُرآن حرص علي إحداث الترابط الوثيق بين الشخص والحدث مع الوحدة في أخلاقيات الشخصية فلا تتغير ملامحها، أو تبته صورها فلا تقوم علي وجه واحد دون اضطراب أو تناقض أو تبديل وتحوير^(١١٦).

لذلك لم يعن القرآن برسم الخطوط الشكلية للشخصية، وإبراز ملامحها الخارجية، كما يفعل بعض المولعين بالقصّ، فيذكرون مثلاً لون الشعر والعينين ووصف الفم والأنف والجبين، وتشبيه نبرات الصوت والمشية، وتفسير نظرات الفرح، والحزن والغضب، وابتسامات البراءة والمكر والسخرية، ونحو ذلك من الأوصاف الفيزيولوجية التي تجعل الشخصية كأنها ماثلة للعيان، لأن ذلك كله لا يخدم أي غرض ديني من أغراض القصة القرآنية، وإنما يكشف القرآن عن مزاج الشخصية، وعن دوافعها وانفعالاتها، وسلوكها من خلال الوصف، أو سرد الأحداث بصورة عرضية لم تقصد لذاتها بالأصالة^(١١٧).

الأشخاص والأبطال:

إن القرآن الكريم ليس مجرد تاريخ أنبياء ولا تاريخ ملوك، فمن الأنبياء من أغفل

القرآن ذكره " مِنْهُمْ مَّنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ " (سورة غافر من آية ٧٨)، وعنايته بالملوك والحكام محدودة وما ذكره القرآن عن الملوك والحكام ليس سوي نماذج أعطاها تبيّن مشاهد من الحكم، لتكون لمن بعدهم عظة وذكرى.. والقرآن الكريم يذكر من الأسماء ما تدعو إليه حاجة القصة، حتى تترك أثرها في نفس القارئ أو السامع، ولا يسرف في ذلك البيان حتى لا تفتر روعته... ولكنه يمثل للقارئ أو السامع صوراً حية تهز المشاعر في دائرة تدور حولها أحداث القصة.. ويتطلب ذلك في القصص القرآني بالذات، أن تكون الأشخاص كائنة في الوجود ومعروفة مستيقنة لكل من القارئ والسامع..

ولهذا التأكيد البالغ لوجود الشخصيات التي ذكرها القصص القرآني بأسمائها، أثر بعيد في الأحداث التي تشارك فيها. وفي الأعمال التي تضاف إليها.. حيث يري المرء وحدة الحركة بين الشخصيات والأعمال التي تصدر عنها.. وحقاً لا تلوح لعين الناظر شخصيات مهزوزة متعددة تحاول كل منها أن تمسك بالحدث بعد أن يبرز ويأخذ مكانه في الوجود^(٨٤). ولذلك عندما نبحث في شخوص القرآن. نجد أنها تعكس نظرة القرآن الكلية لأمر الوجود؛ النظرة التي تضم المبدأ والمعاد، والإنسان والكون، ومناشط الحياة الإنسانية حتى أن القرآن يتحدث عمّا صغر من الخلق كالنمل، كما يتحدث عمّا عظم كالسماوات البروج ومواقع النجوم.. وهذه النظرة تنعكس علي شخوص التاريخ في القرآن وأبطاله، فشخوص القرآن مجموعة بشرية متكاملة بحيث كانت مصادر للإلهام وأسوة للناس مصداقاً لقوله تعالى فيما قصّ علي رسوله عن الأنبياء: " أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ افْتَدِيهِ " (سورة الأنعام من آية ٩٠). وإذا كان المصطفى - وهو رحمة الله المهداة وخاتم النبيين - يدعوه ربه إلى الاهتداء بمن سبق من الأنبياء، فما أحرانا أن نطيل الوقوف عند هذه النماذج الإنسانية، ومن ارتبط بقصصهم، أو جاهد علي فترة منهم^(٨٥).

في الأنبياء نجد نماذج متكاملة من الأعمار، طفولة عيسى، وشباب إبراهيم، وكهولة محمد، ثم شيخوخة إبراهيم ونوح. ويقابل هذا من النساء: طفولة مريم

وشبابها ونضج امرأة فرعون وإيائها، ثم زوج إبراهيم، وقد تقدمت بها السن: " قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ " (سورة هود: آية ٧٢).

ونقرأ نماذج متعددة من الأسر وموقع الأسر وموقع المؤمن فيها: نجد الابن المؤمن والأب الكافر في قصة إبراهيم، والأب المؤمن والابن الكافر في قصة نوح، والزوج الصالح والزوجة الطالحة، في قصة نوح أيضاً، والزوجة المؤمنة والزوج الكافر في قصة امرأة فرعون، والأب الصالح وقد توزع أبناؤه بين الصلاح والحسد والأحقاد كيوسف وإخوته، حتى أكرم الله الجميع بالنبوة وجمع الشمل: " قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْعِلِنَ " (سورة يوسف الآيتان ٩٢-٩٣) . ويختبر الله الإنسان في صحته وماله كما في قصة أيوب . وفي الهجرة من وطنه وهي قدر أكثر من نبي ورسول . وقد تنهي حياته بأن يموت شهيداً كما في قصة يحيى، وقد يلقي في السجن كيوسف، وقد يختبره الله بإقبال الدنيا كسليمان: " قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ " (النمل: من آية ٤٠).

وقد يُبتلى بأن يصرف عنه قومه، ويرموه بالجنون والسحر والكهانة والكذب، وقد لقي الرسول هذا كله واحتمله، ونفي القرآن الكريم هذا كله، وسجل الصراع الشديد وصبر الرسول والمؤمنين معه. يقول تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ " (سورة البقرة من آية ٢١٤).

وبذلك نري في القصص القرآني رحمة الله وقد أدركت رضيعاً لا يدرك من أمره شيئاً: " وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ " (القصص: ٧).

وشابا وقف وحيداً يدافع عن الحق: " قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ

"(سورة الأنبياء: ٦٠) ثم كان من قومه أن " قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ فَلَمَّا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ " (الأنبياء: ٦٨-٦٩).

وتدرك شيخاً كبيراً أمضي السنين داعياً إلى الله فلم يستجب له إلا القليل، يقول الله تعالى عن نوح: " فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ " (الأعراف: آية ٦٤).

وقد تدرك الرحمة وحيداً كيونس عندما ابتلعه الحوت ثم نبذه في العراء أو جمعاً محصوراً بين الماء والعدو: " فَلَمَّا تَرَأَى الْجُمُعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ " (الشعراء: ٦١-٦٢).

وقد تكون النجاة برّاً، كما في هجرة المصطفى من مكة إلى المدينة، أو بحرّاً كما في قصة نوح والسفينة^(١٥٠).

رسم الشخصيات في القصة:

الأشخاص في القصص القرآني من نوع الشخصيات النامية، أي التي تتطور وتنمو قليلاً قليلاً، بصراعها مع الأحداث أو المجتمع، فتتكشف للقارئ كلما تقدمت في القصة، وتفجؤه بما تغني به من جوانبها وعواطفها الإنسانية المعقدة، وهذا التصوير الفني للشخصيات يقدمه لنا القرآن بشكل مقنع، فلا يعزو إليها من الصفات إلا ما يبرر موقفها تبريراً موضوعياً في محيط القيم التي تتفاعل معها..

وفي كل قصة من قصص القرآن تقريباً، نجد شخصاً أو أشخاصاً يقومون بدور رئيس فيها، إلى جانب شخصيات أخرى ذات دور أو أدوار ثانوية، يقوم بينهم جميعاً رباط يوحّد اتجاه القصة ويتضافر علي ثمار حركتها، وعلي دعم الفكرة أو الأفكار الجوهرية فيها، وذلك بتلاقيهم في حركتهم نحو مصائرهم، وتجاه الموقف العام في القصة، ويلاحظ في التصوير القرآني لهذين النوعين من الشخصيات أنها مأخوذان من واقع الحياة، وكل شخصية منها لها دورها ورسالتها التي تؤديها في خدمة أغراض القصة وأهدافها^(١٥١).

ومن النماذج الإنسانية التي قدمتها القصة القرآنية، وتجاوزت بها حدود الشخصية المعينة إلى الشخصية النموذجية، نشير فيما يلي إلى أبرز شخصيات القصص القرآني:

١- شخصية إبراهيم:

لقد كانت شخصية إبراهيم محوراً لأحداث مختلفة كشفت عن ملامحها في تطور رائع، إنه أنموذج الهدوء، والتسامح والحلم: " إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ " (هود: ٧٥، والتوبة: ١١٤) فهاهو ذا في صباه، دائب التفكير والتأمل يبحث عن ربه: " فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ " (الأنعام: ٧٦-٨٠).

ثم وهو يحاور أباه في معبوده، ويقنعه أن يهجر عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه شيئاً، وينهاه عن عبادة الشيطان، لأنه يخاف عليه أن يسمه عذاب من الرحمن، ويكون للشيطان ولياً. ويقف الأب من ابنه موقفاً غليظاً صلباً ويأمره أن ينتهي عن آرائه ومعتقداته، ويعجب منه كيف يرغب عن آلهة أبيه، ثم يهدده بالرجم، أو الطرد إن لم ينته ويتراجع. ويبقى الفتى أديباً، باراً، محباً لأبيه، جديراً بتحمل رسالة السماء، متلطفاً في جوابه لأبيه، فيقول له: " قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَرُكُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا " (مريم: ٤٧-٤٨). وإبراهيم الهادي الرزين الوقور في صباه، وشبابه يبقى هو هو في شيخوخته، بل تزيده الشيخوخة وقاراً ورزاقاً، وعقلاً. ذلك أنه حين ينزل في مكة مع أهله وأسرته يجد الأرض قفرًا، والدنيا قحلاً، والمكان جديباً، فيرفع يديه إلى السماء ضارِعاً إلى من آمن به ويجأر

داعياً: " رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَاءَ مَنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ " (سورة إبراهيم: ٣٧) ومثل هذا الهدوء والإيمان، وطاعة الله تتجلى حين يري في المنام أنه يذبح ابنه، فيلبي، ويطيع، وتكون معجزة الفداء بذبح عظيم^(١٥٦).

وهكذا برزت شخصية إبراهيم المثالية من خلال هذه المواقف، فكان مثلاً في حصافة الرأي، وحب التطلع إلى اليقين، والامتثال لأمر الله في تفران وإخلاص، والرفق والحلم والرأفة والحنان. وقد تجمع في شخصه من جليل الخصال ما تفرق عن غيره من الناس علي مدي الأجيال. فكان أمة بذاته كما أثنى الله عليه: " إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لَأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ " (سورة النحل: ١٢٠-١٢٢).

ولا عجب، فإبراهيم صاحب القلب الكبير الذي وسع الناس بمحبته ولينه، يحنو علي قومه، رغم إيذائهم له. فهو لا يطلب العذاب والملاك لمن عصاه، وإنما يكلهم إلى رحمة الله وغفرانه فيقول عن قومه " رَبِّ إِنِّي نَزَّلْتُ مِنَ السَّمَاءِ مَائِدًا مِنَ النَّاسِ قَوْمٍ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ " (سورة إبراهيم: ٣٦).

كما أن ما جُبل عليه من سخاء ورأفة أبان عنه احتفاؤه بضيوفه وإكرامهم، وسؤال ربه أن يعفو عن قوم ابن أخيه لوط، وقد أبلغه ضيوفه من الملائكة أنهم مرسلون إلى لوط ليأمره بالخروج من القرية مع أهله قبيل الصبح، موعد هلاك قومه. فكان يجادل ربه في شأنهم رجاء أن ينظر إليهم بعين الرحمة^(١٥٧).

وبينما يرسم بعض القصص القرآني لشخصية إبراهيم هذه السمات نراه يرسم لشخصية " موسي " مثلاً سمات أخرى، منها ما يلتقي معها، وفيها ما يقابلها. فيجعل منه أنموذجاً للزعيم القوي المندفع بحدة الطبع والمزاج، وسرعة الانفعال، وحساسية الوجدان. ولعل هذه السمات هي التي جعلت نجاحه قوياً في قيادة شعب صلب المراس، معقد النفسية، وهو شعب بني إسرائيل الذي كان من طبعه

التلكؤ في الطاعة، والجمود في المشاعر، والمراوغة، والسخرية في المواقف الجدية، ومقاومة شيع الحكام المصريين الذين كان من أخلاقهم البغي والكبر، واحتقار الفقراء والضعفاء، وتقديس الكبراء وذوي الشراء: "الله أعلم حيث يجعل رسالته" (سورة الأنعام: من آية ١٢٤).

٢- شخصية موسى: نموذج للزعيم المندفع العصبي المزاج:

فها هو ذا قد رُبِّي في قصر فرعون، وتحت سمعه وبصره، وأصبح فتي قويا: "وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ" (سورة القصص: من آية ١٥) وهنا يبدو الانفعال العصبي واضحا..

وسرعان ما تذهب هذه الدفعة العصبية، فيثوب إلى نفسه شأن العصبيين: "قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنَّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ" (سورة القصص من آية ١٥-١٧). "فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ" (سورة القصص من آية ١٨)... وتعتبر مصور لهيئة معروفة: هيئة المتفرع المتلفت للشر في كل حركة. وتلك سمة العصبيين أيضاً.

ومع هذا، إنه ينظر: "فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ" (سورة القصص: من آية ١٨). ولكنه يهّم بالرجل الآخر كما هَمّ بالأمس، وينسيه الاندفاع استغفاره وندمه وخوفه وترقبه، لولا أن يذكره من يهّم به بفعلته، فيتذكر ويخشى: "فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطَشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ" (سورة القصص: ١٩). وحينئذ ينصح له بالرحيل رجل جاء من أقصي المدينة يسعى، فيرحل عنها كما علمنا. فلندعه هنا لنلتقي به في فترة ثانية من حياته بعد عشر سنوات، فلعله قد هدأ وصار رجلاً هادئ الطبع حلیم النفس:

كلا، فها هو ذا ينادى من جانب الطور الأيمن: أن ألق عصاك فألقاها فإذا هي حية تسعى وما يكاد يراها حتى يشب جرياً، لا يعقب ولا يلوي . إنه الفتى العصبي نفسه ولو أنه قد صار رجلاً، فغيره كان يخاف نعم، ولكن لعله كان يبتعد منها، ويقف ليتأمل هذه العجيبه الكبرى^(١٥٥) ..

ثم لندعه فترة أخرى، لنرى ماذا يصنع الزمن في أعصابه:

لقد انتصر علي السحرة، وقد استخلص بني إسرائيل، وعبر بهم البحر، ثم ذهب إلى ميعاد ربه علي الطور، وإنه لنبي . ولكن ها هو ذا يسأل ربه سؤالاً عجيباً: " قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي " (سورة الأعراف من آية ١٤٣) .. ثم حدث ما لا تحتمله أية أعصاب إنسانية: " فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ " (سورة الأعراف: ١٤٣) .. عودة العصبي في سرعة واندفاع!

ثم ها هو ذا يعود، فيجد قومه قد اتخذوا لهم عجلاً إلهًا، وفي يديه الألواح التي أوحاها الله إليه، فما يترى وما يني: " وَاللَّيْلِ الْأَلْوَابِ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ " (سورة الأعراف من آية ١٥٠) ... وإنه ليمضي منفعلًا يشد رأس أخيه ولحيته ولا يسمع له قولاً: " قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي " (سورة طه: ٩٤) ..

وحين يعلم أن " السامري " هو الذي فعل الفعل، يلتفت إليه مغضباً، ويسأله مستنكراً. حتى إذا علم سرّ العجل: " قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا " (سورة طه: ٩٧) .. وهكذا في حلق ظاهر وحركة متوترة ..

فلندعه سنوات أخرى: لقد ذهب قومه في التيه ونحسبه قد صار كهلاً حينما افترق عنهم، ولقي الرجل الذي طلب إليه أن يصحبه ليعلمه مما آتاه الله علماً .

ونحن نعلم أنه لم يستطع أن يصبر حتى يبنئه بسرّ ما يصنع مرة ومرة ومرة،
فافترقا ...

تلك شخصية موحدة بارزة، وأنموذج إنساني واضح في كل مرحلة من مراحل
القصة جميعاً^(١٥٥). وهكذا نلاحظ أن إبراز سمات الشخصية في القرآن يقوم علي مبدأ
عام يسمي في علم النفس " اتساق شخصية الفرد " بحيث إن سلوكه يتناغم بصفة
مستمرة مع الظروف الداخلية والخارجية التي يتعرض لها، وذلك بما يحمل من
خصائص معينة تلازمه من موقف لآخر، وتؤثر في سلوكه، وتحدّد وجهته ونمطه ..
وما ذلك إلا لأن القرآن قد عبّر بأمانة عن تصرف الشخصية في مواقفها، واستخدم
دقة التعبير عن مشاعرها، وصدق الترجمة الباطنية عن خواطرها. فهي رغم تعدد
مواقفها وتنوعها في مواطن متفرقة من القرآن لا يتناسق جمعها في موضع أو سورة،
لانعدام الوحدة الموضوعية بينها، لكننا نجد في تلك الشخصية من توافق العناصر،
وائتلاف الصفات، وتفاعل السمات المزاجية والخلقية علي الخصوص. ما يلقي
الأضواء علي جوانبها النفسية^(١٥٦).

فإذا انتقلنا إلى شخصية يوسف عليه السلام، وما كان فيها من سمات تترجح بين
الإنسانية والمثالية بين مطلع حياته، وفي كنف أبيه يعقوب عليه السلام، وفي بيت
عزيز مصر، ثم في جلوسه أميناً علي خزائن الأرض وحاكماً.. ومثل شخصية يوسف
المرجحة بين الإنسانية والمثالية شخصية سليمان عليه السلام، وقصته مع ملكة سبأ،
إنها تعكس مرة صورة الإنسان، وأخري صورة النبي، وثالثة هذه وتلك، دون أن
تطغي واحدة علي الأخرى^(١٥٧).

الأبطال المجهولون:

ومما تفرّد به القرآن عنايته بالأبطال المجهولين، فيخصص لهم عدداً من الآيات،
وتفاصيل من الحوار وإشادة بالمواقف، ويسلّط عليهم من الأضواء أكثر مما يسلّط
علي بعض الأنبياء .. وقد تجاوز القرآن في هذه المجموعة من القصص بعض عناصر
التحديد من الأسماء والأماكن والأزمنة، وإن تباين هذا التجاوز من قصة إلى

أخري، وأكثر نماذج الأبطال المجهولين تفصيلاً في القرآن هي " مؤمن آل فرعون ":
وتبدأ قصته من قوله تعالى:

" وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ
اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ
بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ " (سورة غافر: ٢٨) إلى
قوله تعالى: " فَسْتَذَكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ
فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا
غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ " (سورة غافر: ٤٤-٤٦).

ثم يذكر بعد ختام القصة ومشاهد القيامة، قاعدة وثيقة الصلة بكل داع إلى الله:
" إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ
الظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُمْ وَهُمْ اللَّعْنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ " (سورة غافر ٥١-٥٢).

والقصة مما تفرّد به القرآن، وهي درس عن الحق والدعوة إليه، لجأ فيها المؤمن
إلى تذكير قومه بالآخرة، ثم ذكّرهم بقوم نوح وعاد وشمود، وربط جحودهم بما
حدث من آبائهم بعد وفاة يوسف: " حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ
رَسُولًا " (سورة غافر: ٣٤). وكيف وقف المؤمن يعارض فرعون، وهو يأمر وزيره
هامان أن يبني له صرحاً يبلغ به أسباب السماوات ليطلع إلى إله موسى. ثم دعا قوم
فرعون إلى اتباع الحق. وصرّح الرجل بإيمانه بعد أن كان يكتمه، وحذر قومه مغبة
سيئات ما مكروا. ونجّى الله المؤمن وحقاق بال فرعون سوء العذاب^(٥٥).

وهذا النظر مما يلقي الضوء علي مثل قوله الله عز وجل: " وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا
أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ
فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ " (سورة يس: ١٣-١٤).. ونقرأ حتى آخر القصة نجد
خلوها من الأسماء.. حتى للمرسلين.. فهذه الشخصيات المغطاة النكرات لا

تدعو ضرورة إلى كشفها أو التعريف بها، لأنها لا تؤدي دورها في الحدث القصصي هنا باعتبارات خاصة مميزة لها .. وإنما هي مثل عام لجنسها كله في صلاحيته للقيام بهذا الدور.. ومن هنا تكون عمومية المثل وصلاحيته وشموله لجميع الأفراد فيما ضرب له، وسبق من أجله، ولأن غرض السامعين أو القارئ، وعبرة القصة، ونتاج الموعظة لا تستدعي أكثر من ذلك^(١٥٠).

مما سبق عرضه يتضح لنا أن المحور الرئيس لهذه القصص جميعاً هو الإيمان بالله تعالي، إلا أن نشاطات هؤلاء الأبطال في المجتمع متنوعة، وتمثل الحرف الرئيسة زراعة وصناعة وتشييداً...

وهذه البطولات المجهولة ممتدة ولا تزال تظهر في نصره الحق. يقول الله تعالي: " مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا " (سورة الأحزاب: ٢٣)

وجزاء الله لكل عامل من هؤلاء قائم:

" فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذَكَرَ أَبُو أُتْهِ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ " (سورة آل عمران: ١٩٥)

والآيات دعوة إلى متابعة المسيرة في بناء الحياة علي الخير وعمرانها بالعمل الصالح وهي تنير السبيل أمام بطولات جديدة دون أن تقتصرها علي مواقع محددة من المجتمع . وصفوة القول إن البطولة في القرآن لا تقتصر علي الأنبياء، وإن كان لهم فيه النصيب الأوفى، ولا تقف كثيراً عند الملوك، وإنما تمتد مظلتها لتشمل الأبطال المجهولين والجموع المؤمنة .. وإذا كانت العناية قد زادت في الاتجاهات التاريخية المعاصرة بحركات الشعوب والجماعات الإنسانية، وفيها الكثير من البطولات المجهولة . فإن قطاعات التاريخ التي عرضها القرآن الكريم تضم هذا جميعاً وتوسع له^(١٥١).

شخصية المرأة:

جاء القرآن الكريم بحقوق مشروعة للمرأة لم يسبق إليها في دستور شريعة أو دستور دين، وأكرم من ذلك لها أنه رفعها من المهانة إلى مكانة الإنسان المعدود من ذرية آدم وزوجه، وبرأها من رجس الشيطان ومن حطة الحيوان..

وأعظم من جميع الحقوق الشرعية التي كسبتها المرأة من القرآن الكريم لأول مرة أنه رفع عنها لعنة الخطيئة الأبدية ووصمة الجسد المزدول. فكل من الزوجين قد وسوس له الشيطان واستحق الغفران بالتوبة والندم^(١١١):

"فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا" (سورة الأعراف: ٢٠)

وكلاهما ظلم نفسه بذنبه:

"قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ" (سورة الأعراف: ٢٣). وليس علي ذرية آدم وزوجه من بنين وبنات جريرة تلحقهم بعد أبويهم أو تلحق أحداً من الأبناء بجريرة الآباء:

"تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (سورة البقرة: ١٣٤)

ولذلك حرص القرآن الكريم في قصصه علي تقدير المساواة بين الرجل والمرأة، في طبيعتها البشرية، وأنه ليس لأحدهما من مقومات الإنسانية أكثر مما للآخر، وأنه لا فضل لأحدهما علي الآخر بحسب عنصره الإنساني وخلقته الأول، وأن المفاضلة بين أي رجل وأية امرأة إنما تقوم علي أمور أخري خارجة عن طبيعتهم، وهي الأمور المتعلقة بالكفاية والعلم والأخلاق.. وما إلى ذلك، كما هو شأن المفاضلة بين الرجال أنفسهم بعضهم مع بعض^(١١٢).

وتبرز المساواة بينهما في القيمة الإنسانية المشتركة، في قصة إبراهيم وتبشيره بغلام، فقد كانت البشارة مرة له: "وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ" (سورة الذاريات: ٢٨)

ومرة لزوجته " فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ " (سورة هود: ٧١).. وذلك لا يدلّ علي أن في القصة واقعتين مختلفتين، أو أن القرآن يتناول مسائل التاريخ في حرية فنية، كما يري الناظرون في قصص القرآن^(١١٦)، ولكنه يدلّ علي نظرة القرآن إلى الزوجين وكأنهما شيء واحد في الشعور الإنساني . فإسحاق ابنهما معاً، فهما شريكان في هذه المنة^(١١٧) .

ويتضح من ذلك أن القرآن الكريم أعطي للمرأة مكانة واضحة في القصة لأمرين أولهما ارتباط القصة بالدعوة^(١١٨) . وثانيهما إبراز مساواتها مع الرجل في صفاته الطبيعية . جسمانية وعقلية وروحية .. وإن كان هناك شيء من التمييز فإنه يدعو إليه تنسيق العناية الإلهية .. كما يشير إلى ذلك قوله سبحانه: " هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها . فلما تغشها حملت حملاً خفيفاً فمرت به " (سورة الأعراف: ١٨٩) .

فإذا ذكرت المرأة في القرآن أو في قصص القرآن فذلك لأن وضعها يستوجب لها ذلك . وحكم الواقع والمجتمع والنظام يقتضيه^(١١٩) .

وبالنظر والتأمل نجد النواحي التي تدمج المرأة في القصص القرآني الكريم تقرر في النفوس معاني هي بالمرأة ألصق وأثوثها بها أحق . كما أنها تحقق عبراً لا تتحقق دون ذكر المرأة فنذكر من ذلك علي سبيل المثال:

١- عاطفة الأمومة:

تتمثل بمميزاتها في المرأة ولا تتمثل بغيرها، وكذلك الحنان الأثوي والعطف الإنساني، وذلك كله يتحقق في قصة ميلاد موسي:

" وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنِ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنَعْلَمَ أَنَّ وَعَدَ اللَّهُ

حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" (سورة القصص: ٩-١٣).

تتجلى هنا يد القدرة الإلهية في حماية موسى، حمايته بالمحبة، ذلك الستار الرقيق الشفيف، لا بالسلاح ولا بالجاه ولا بالمال، حمته بالحب الحاني في قلب امرأة، وتحدث به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره - وهان فرعون على الله أن يحمي منه الطفل بغير هذا الستار الشفيف^(١٣)

٢- الحياء والخجل:

فالحياء الطبيعي والخجل المحب لا يتجلى علي وجهه الصحيح الصادق في غير المرأة ولننظر في قصة موسى مع بنات شيخ مدين: "وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى هُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" (القصص: ٢٣-٢٥).

ونقف هنا عند قوله تعالي: "تمشي علي استحياء" حيث تبرز فيه مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة العفيفة النظيفة حيث تلقي الرجال. "علي استحياء" في غير ما تبذل ولا تبرج ولا تبجح ولا إغواء. جاءته لتنهى إليه دعوة في أقصر لفظ وأوجزه وأدله: "إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا". فمع الحياء الإبانة والدقة والوضوح، لا التلجلج والتعثر والربكة. وذلك كذلك من إيجاء الفطرة النظيفة السليمة المستقيمة. فالفتاة القويمة تستحي بفطرتها عند لقاء الرجال والحديث معهم، ولكنها لثقتها بطهارتها واستقامتها لا تضطرب. الاضطراب الذي يطمح ويغري ويهيج، إنما تتحدث في وضوح بالقدر المطلوب.

٣- الفكر المستقل والإدارة المتحررة:

لقد أخذت المرأة مكانها في القصص القرآني، كإنسان لها شخصيتها التي تعبر

عنها بالقبول والرفض، والفكر المستقل، والإدارة المتحررة، وكامرأة لها خصائص أنوثتها.. فقد استطاعت امرأة فرعون أن تحرر فكرها ووجدانها من كل الأواصر والمؤثرات والقيود، فترفض أن تسير في ركاب زوجها، وأن تنساق في تيار المجتمع الذي تعيش فيه، بل تعلن عن موقفها في ثبات وإيمان، بعد أن اتضح لها ضلال فرعون وقومه، وتبين لها الحق في دعوة موسي، رغم ضغط المجتمع وشدة وطأته، ورغم مغريات الحياة الرخيّة الناعمة في قصر أعظم ملوك الأرض، ورغم آصرة الزوجية التي تربطها بفرعون فكانت مثلاً للشخصية الإنسانية المستقلة في الإيمان بالمبادئ والقيم^(١١٨):

" وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِن الْقَانِنِينَ " (سورة التحريم: ١١-١٢)

وإفراد امرأة فرعون بالذكر هنا مع مريم ابنة عمران يدل على المكانة العالية التي جعلتها قرينة مريم في الذكر، بسبب ملابسات حياتها.. فهما الاثنتان أنموذجان للمرأة المتطهرة المصدقة القاننة .. ولا يعيننا هنا التحقيق التاريخي لشخص امرأة فرعون.. فالإشارة القرآنية تعني حقيقة دائمة مستقلة عن الأشخاص، والأشخاص مجرد أمثلة لهذه الحقيقة، فالقرآن الكريم يستخدم الحادثة المفردة لتصوير الحقيقة المجردة، الباقية وراء الحادثة ووراء الزمان والمكان^(١١٩).. أما ذكر اسم مريم كاملاً فهو اصطفاء لمريم بالذات وهو اختيارها دون نساء العالمين كلهن: " وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ " (سورة آل عمران: ٤٢-٤٣)- اختيارها لتضع مولودا دون أن يمسه رجل.. ولذلك لم يذكر القرآن الكريم اسم امرأة فرعون، لأن القرآن حين تأتي أخبار المعجزات والقصص الإيمانية، لا يذكر الله سبحانه وتعالى الاسم كاملاً، لأن هذه لمحات إيمانية مقصود أن يقتدي بها الناس ..

ولو أنهم ذكروا بأسمائهم كاملة، لكانت هذه المعجزات خاصة بهم لا تتكرر لغيرهم .. إلا مريم - فكلما ذكرت في القرآن (١٧٧) .. لأن معجزة الميلاد من أنثى بلا ذكر لن تتكرر بالنسبة لنساء العالمين كلهن إلى يوم القيامة .. ويلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى لم يستخدم لفظ " نساء الأرض "، ولكنه استخدم لفظ " نساء العالمين "، أى نساء الإنس والجن وكل مخلوقات الله .. لن توجد أنثى يتكرر لها ما حدث لمريم مما اصطفاه الله سبحانه وتعالى به، وهى معجزة الميلاد من أنثى بدون ذكر (١٧٧).

وكانت على نقيض ذلك امرأة لوط، وامرأة نوح، فكلتاها لم تهتد بنور النبوة المشرق في بيتها، بل تحولت عن زوجها النبي إلى الجبهة المعادية وخانت دعوته، وكانت حرباً عليه مع الكافرين . فأصابها ما أصابهم من عذاب أليم: " صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةٌ نُوحٍ وَامْرَأَةٌ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِن عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ " (سورة التحريم: ١٠)

وفي إشارة القرآن هنا ما يؤكد المسؤولية الفردية: فكل إنسان رجل أو امرأة مسؤول عن ذاته، ولن يعفيه من هذه المسؤولية شيء (١٧٧).

كذلك فإن القصص القرآني يشير إلى ضعف المرأة أحياناً أمام عاطفة الحب حتى إنها لتندفع في بعض الأحيان دون أن تشعر إلى ما كان ينبغي خلافه .. فقد راودت يوسف وغلقت الأبواب .. وقالت: هيت لك .. إلى أن مكرت به حين تعفف عن متابعة الهوى الجموح وامتنع عن الإصغاء إلى داعى الشهوة والإثم والجريمة، وأثر مرضاة الله، وقال: " قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ " (سورة يوسف: ٢٣)

وفي هذه القصة تظهر وهى عاشقة ؛ وهى منتقمة لكبريائها ؛ وهى نادمة، كما صور لنا أيضا القصص القرآني المرأة وهى في مكان الصدارة الدولية، ملكة ذات دولة ودلال .. وذات سلطان وجلال، ولها في قومها المكان الذي اكتسبته بعقلها وحكمتها وتديرها قبل أن تكتسبه بملكها وسلطانها .. يتمثل ذلك في ملكة " سبأ

" وما كان بينها وبين سليمان ممّا ورد في قصة الهدهد إذ يقول: "إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ" (سورة النمل: ٢٣)، واستطاعت تلك الملكة أن تدبّر أمر مملكتها، وتستشير قومها إلى أن اجتمعت بنبي الله سليمان، وأسلمت معه لله رب العالمين " (١٧٦) .

وهنا تساؤل مثار حول المرأة في القصص القرآني: هل إذا خلت القصة القرآنية من المرأة يكون تلك القصة مكانها من التأثير والإثارة في نفس القارئ، شأنها هذا شأن القصة التي تطلّ فيها المرأة بوجهها؟

في الحقيقة لقد جاءت القصة القرآنية خالية من ذكر المرأة، أو الإشارة إليها، تلميحاً أو تصريحاً، وقد تمثل ذلك في قصص كثيرة أبرزها قصص سورة الكهف، مثل قصة أصحاب الكهف، وقصة صاحب الجنتين، وقصة موسى والعبد الصالح، وقصة ذى القرنين .. وجاءت أيضاً القصة القرآنية والمرأة تكاد تكون العنصر الغالب فيها مثل قصة يوسف، وقصة ملكة سبأ، وقصة مريم ..

ومن دراسة هذين النموذجين من القصص القرآني يبدو لنا في وضوح بيّن أن وجود المرأة في القصص القرآني أو عدم وجودها، ليس له وزن في حساب هذا القصص، إلا من حيث تقرير الواقع، وما يقضى به منطق الحق في الحدث التي تصوّره القصة القرآنية وتعرضه منها، وكان لها مكانها البارز فيه كأنموذج من نماذج الحياة الإنسانية، التي تلتمس منها العبرة العظة، أما إذا لم يكن للمرأة هذا الواقع الحقيقي في الحدث، ولم يكن لها أثر في إبراز عبرة أو موعظة، فإنه لا يكون للمرأة مكان في القصة القرآنية، بحال أبداً، لأن القرآن الكريم إنما ينقل قصص من واقع الحياة الماضية، ويبعث الأحداث الغابرة من مرقدتها على النحو الذي كانت عليه من قبل، وعلى ما كان لها من موقف في الحدث الذي تنقله القصة القرآنية (١٧٧) .

وليس من أهداف القصة القرآنية أن تستعرض أمثالاً لحب وهوى المرأة وعاطفتها إن لم يكن ذلك لحكمة أرادها الحق سبحانه وتعالى مثلاً وعبرة لأولي الألباب .

٢ - الحوار في القصص القرآني:

للقصة في القرآن الكريم طريقتان:

أ) طريقة عرض الأحداث بشكل تقريرى ينتقل فيه الحدث من مرحلة إلى مرحلة حتى يبلغ نهايته.

ب) طريقة الحوار .. الذي يحاول أن يمثل فيه كل طرف من أطراف القصة، ولكل بطل من أبطالها دوره الذي يعبر عنه بأسلوب واضح، ويثير فيها بعض القضايا التي يقف إزاءها البطل الآخر ليعبر عن دوره بكل أمانة ووضوح..

أما قيمة الطريقة الأولى، فتتمثل في ملاحظتها للقضايا الصغيرة في التاريخ، ووقوف القاص، موقف المرشد الذي يقود تفكير السامعين أو القارئ إلى النقاط الأساسية في أسلوب يقرب من التلقين الذي يُراد منه تعبئة الفراغ بشكل دقيق..

وأما طريقة الحوار، فإن قيمتها في محاولتها تبسيط الفكرة في جميع مجالاتها، فلا يترك أي جانب خفي فيها، لأن كل طرف من أطراف الحوار يحاول أن يثير الجوانب التي يؤمن بها ويدافع عنها..

وهناك نقطة أخرى، يتميز فيها الحوار، وهي أنها تجسد الموقف فنشعر فيه بالحياة المتحركة التي تنتقل من موقف إلى موقف، ومن جوٍ إلى جوٍ وتعيش فيها الأحداث الماضية من خلال أبطالها الذين نشعر بهم، ونحن مندمجون في القصة - يتحركون أمامنا في أدوارهم وأوضاعهم كما لو كنا حاضرين معهم..

ومن الطبيعي أننا لا نستطيع الحصول على أكثر هذه الجوانب في عرض القصة بالطريقة التقريرية التي تتحدث عن الموضوع بأسلوب الحكاية أو التقرير، وإن كانت تعطينا معرفة تفصيلية للموقف..

وربما كان هذا هو السبب في تركيز القرآن الكريم على الحوار القصصي في أكثر من موقف، وفي أكثر من قصة من أجل التأكيد على الصورة الحقيقية المتجسدة المتحركة للتاريخ الرسالي الذي يراد له أن يرتبط بالحاضر، في عملية وحدة رسالية

رائعة، أو للقضايا الحيوية التي يريد القرآن الكريم إثارتها في حياة الناس وتعميقها في نفوسهم^(١٧٥).

ولذلك تميز الحوار القصصي القرآني بأنه لم يكن مصدره دائماً هو الإنسان، كما هو المؤلف بل اشتركت فيه عناصر متباينة:

فوجد في القصص القرآني حواراً:

بين الله والملائكة:

" وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (البقرة: ٣٠)"

" أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ " (البقرة: ٢٥٩)

وبين الله وإبليس:

" قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ " (الأعراف: ١٢-١٤).

وبين الإنسان والملائكة:

" وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَرَعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا نَخَفُ خَضَمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاخْتُمُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَّلِي نَعْجَةٌ وَّلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ " (سورة ص: ٢١-٢٢).

وبين الإنسان والحيوان:

" وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ " (النمل: ٢٠-٢٢)^(١٧٦).

والحوار في القصص القرآني يجري في نمط أساليبه الرفيعة . مهما كانت الأشخاص والمتحاورون، فهي مقابلة بين شخصين أو أكثر، يعبر عن معانيها أرفع الكلام وأسماه وأعرقه في مرماه، إنه صور تُخرج خبايا النفوس، فيصوّرها خالقها من خلالها، وتكشف عن طوايا الصدور، فيعرضها الرب سبحانه علي وجهها .. ونحن حين نقف بين يدي أحد مواقف القرآن في حوار القصصي نجد المشهد كله حاضراً مشخّصاً يملأ الأسماع والأبصار، ويملاً حتماً تلك الفراغات والفجوات التي تقع عادة بين ثنايا الحوار وطوايا الصراع من غير تعمل أو تكلف أو اصطناع^(١٧٧).

ولا شك أن الحوار الذي يديره القرآن في دقة وحساسية لإحياء مشاهد القصص أو تصوير انفعالات الأشخاص قد اقتضي اتباع أسلوب اللاعنف، وطريقة اللين لأن القصة القرآنية مرتبطة بالخط القرآني الكبير، وهو الدعوة إلى الله وإرشاد الناس إلى الحق.

وإن شئنا أن نستزيد تصوراً لذلك، فلنتابع الحوار في قصة موسى عليه السلام:

الحوار في قصة موسى:

لقد كانت قصة موسى عليه السلام، في القرآن الكريم، من أكثر القصص القرآني توزيعاً في سوره، فقد ذكرت فيما يقرب من الثلاثين موضعاً أو تزيد، ولعل قيمتها في هذه الحياة المتحركة أبداً.. في شخصية موسى القوية التي دخلت إلى الحياة في ظروف صعبة، في أول ولادته، وفي المجتمع المقهور المستعبد في ذلك الوقت، وفي الحياة القلقة التي درج فيها في أول خطواته، مما جعله يخترن ذلك كله في كيانه، ليواجه الحياة من موقع الشعور بالقوة التي ما أن تمتد في الصراع الذي يحاول أن

يجرّها بعيداً حتى ترجع إلى الله سبحانه في موقف إنابة وابتهاال .. ولقد مرت حياتها بمواقف صعبة جداً، قبل أن يرسله الله نبياً إلى فرعون، فحفلت بالكثير من الأحداث والمواقف .. مما ترك أثراً في شخصيته، فجعلها تهتز قليلاً في شعور خفي قلق من قوة الطغيان والكفر، المتمثلة في فرعون وسيطرته الكبيرة الممتدة في حياة أمته (١٧٨):

حواره مع الله:

ولذلك وقف موسي - أمام تكليفه بالرسالة - في الموقف الخائف الذي يتقبّل الرسالة بإيمان، ولكنه يريد أن يستجمع - في نفسه وفي خطواته - عناصر جديدة من القوة، التي يستمدّها من ألطاف الله من جهته، ومن مشاركة أخيه له من جهة أخري. ولقد أبرز الحوار هذا الموقف العصيب الذي وقفه موسي، وهو يتلقى من الله سبحانه التكليف بالذهاب إلى فرعون لأداء الرسالة إليه .. هذا الحوار الذي تنطبق عليه قاعدة المشاهد الأربعة التي جاءت في القرآن الكريم، عن هذه المرحلة في سور " طه " و " القصص " و " الشعراء " و " النمل "، ثم الصور المجملّة غاية الإجمال في " الفرقان " و " السجدة " و " النازعات "، فالتفصيل الذي تبدو فيه الصورة بكل معالمها الكبرى، ومعظم خطوطها الفرعية، تأتي في موضع ثم لا تلبث أن تتأكد هذه الصورة بتلك المعالم بصورة قريبة منها، وإن كان الإجمال يعوّض بإيراد تفاصيل جديدة، تحفظ للصورة طرافة تعينها علي استشارة الاهتمام، وبعث التشوّق والتطلّع، ثم تأتي بعد ذلك الصور التي يزيد نصيبها من الإيجاز، ليكون دورها إبراز خلاصة الحدث، وكأنه الحكم النهائي الذي يستنبطه حكمة هذا كله، وتبدأ الصورة الكبرى في سورة " طه " إذ يقول الله تعالى:

" وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ " (سورة طه: ١٣-١٦).

ثم تبدأ المناجاة: " وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ

بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَى قَالَ أَلْقَهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى
 قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ
 مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى لِئُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى" (سورة طه: ١٧-٢٣). ثم تحتتم
 المناجاة أيضاً في سورة " طه " : " اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي اذْهَبَا
 إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالََا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ
 يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَأْتِيَاهُ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا
 رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بآيَةٍ مِّنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ
 اتَّبَعَ الْهُدَى" (سورة طه: ٤٢-٤٧).

ثم تأتي السورة التالية، سورة القصص، أقل ترسلاً، في إيراد التفاصيل ولكن مع
 الحرص علي جوهر الواقعة، وفي صيغة بطبيعة الحال، مخالفة للصيغة الأولى، أولاً
 لاعتبارات الإيجاز والإجمال، ولإحداث التناسق أو الاتساق مع العبارة المستعملة
 في هذه الصورة، والإيقاع العام في السورة، التي هي الإطار الشامل، وتبدأ الصورة
 بالمناجاة، ثم تتبعها الوقائع بلا تمهيد:

" فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا
 مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ
 يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ
 مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ
 وَمَلِكِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ
 وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ
 يُكَذِّبُونِ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا
 أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ" (سورة القصص: ٣٠-٣٥).

والمقابلة بين ما جاء في سورة " طه "، وما جاء في سورة " القصص " تبرز تماماً،
 منهج القرآن الكريم في التفصيل في الموضع الذي يختاره الله تعالى، ومنهجه في

الإيجاز في الموضع الذي يختاره لذلك رب العالمين " (١٧٩) ومن ناحية أخرى عرض الحلقة من القصة التي تؤدي الغرض منها وتبرزه في إطار السياق العام للسورة التي تعرض منها، " فالقصة القرآنية تخضع في طريقة عرضها للغرض المراد من هذا العرض. فهي أداة تربية للنفوس ووسيلة تقرير لمعان وحقائق ومبادئ. وهي تتناسق في هذا مع السياق الذي تعرض فيه، وتتعاون في بناء القلوب، وبناء الحقائق التي تعمّر هذه القلوب " (١٨٠).

حواره مع فرعون:

إن من أخطر مشاهد القصة القرآنية، وأكثرها دلالة علي دور هذه القصة وأعظمها امتلاء بخصائص القصة وتنوع أسلوب الحوار فيها، ذلك المشهد الذي دار الحوار فيه بين موسى عليه السلام من جانب، وفرعون مصر من جانب آخر، ففي هذا الحوار تتضح فلسفتا التوحيد والشرك، فتتصارع حجج الحق مع دعاوي الباطل، في إيجاز ووضوح، مع سرعة في الهجوم والدفاع حتى يتحوّل الموقف إلى مبارزة فكرية... وقد جاء ذكر هذا المشهد في عدة لقطات في سور " الأعراف "، و" طه " و" الشعراء ".

وبمقارنة هذه اللقطات يتضح جلياً الفارق بين أسلوب الإفاضة والإطناب، وأسلوب الإيجاز والاقتضاب، ففي الأسلوبين، نستطيع أن نعرف جوهر الحوار والأفكار الأساسية، التي دار حولها، وموقف المتحاورين وحجة كل منهما وحالته النفسية من الهدوء والطمأنينة في جانب، والقلق والانفعال والإذلال بالقوة في جانب آخر، ولكن في الإسهاب نجد الأفكار مبسطة وعناصرها جميعاً مذكورة، والأمثلة المتعددة كلها واردة، ويستغني عن هذا كله في مواضع الإجمال (١٨١)، ففي سورة طه نقرأ قوله تعالى:

" قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا

مَنْ نَبَاتٍ شَتَى كُلُّوَا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى " (سورة طه: ٤٩-٥٥) .

١- أسلوب المراوغة في الحوار:

لقد تجاهل فرعون في - البداية - معرفة رب موسى وهارون، الذي يحملان رسالته وحاول أن يثير السؤال أمامهما عنه، كعملية إيجابية لقومه، بأن القضية لا تعدو أن تكون متعلقة بشخص منافس له غير معروف.. وكان جواب موسى كلمة جامعة تضع السائل في موقع الجهل التام، ولكن فرعون لم يستسلم وبدأ في إثارة سؤال آخر يريد به صرف الأنظار عن الجواب الذي لم يستطع مواجهته بشيء يذكر، وتوجيه الانتباه نحو قضية جانبية، تخلق جواً من الإثارة التي تعكر الأجواء ضد الرسالة والرسول، وهو موضوع القرون الأولى التي كانت تسير في غير خط الإيمان.. وكان جواب موسى، أن علمها عند الله فهو يعلم ما عملوا ويحفظه في كتاب يواجههم به يوم القيامة.. ثم أعاد موسى الحديث عن الله وخلق السماء التي تهب الحياة للأرض مما تنزله من ماء يبعث الخصب الذي تنتفع به الناس والأنعام، ثم لخص الدورة التي يقتطعها الإنسان في هذه الأرض، منذ بداية وجوده، إلى خروجه منها ليوقف بين يدي الله.

" وهذه لفظة بارعة من موسى - النبي - يواجه بها فرعون بخلاف ما أراده من الهروب عن جو الإفاضة في الحديث عن الله خشية منه أن يؤثر موسى علي أفكار من حوله، الذين كانوا يستمعون إلى الحوار بترقب ولهفة، إذ لم يسبق لأحد أن واجه فرعون بمثل ما واجهه به موسى من دعوة وحوار" (١٨٣).

بد أسلوب الازدراء والاستخفاف:

كما يتضح من قول فرعون لموسي في سورة الشعراء: " ألم نريك فينا وليداً، ولبثت فينا من عمرك سنين، وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين " (الشعراء: ١٨-١٩).

وذلك للتحقير من شأن موسى في قومه والحط من منزلته عندهم، فيذكره

بتريبته في قصره، ويذكره بحادث مقتل المصري في تهويل وتجسيم: " قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا
وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ
وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ " (الشعراء: ٢٠-٢٢).

ويلاحظ من ناحية التنسيق الفني في التعبير: " أن حرف الفاصلة في السورة هو
الميم أو النون وقبلها مد . فقولهُ: من المرسلين . يتمشى موسيقياً مع الإيقاع السائد
في السورة، بعكس ما لوقيل: وجعلني رسولا . ولكنه مع هذا يؤدي معني
مقصوداً. وهو أنه واحد من كثيرين وأن الامر ليس بفذ ولا عجيب . وهكذا يجتمع
التناسق الفني والديني في التعبير"^(١٨).

وبذلك يتضح لنا كيف تصرّف القرآن في التلوين، وكيف يربط جو القصة مع ما
هي فيه من المناسبات، ويحكم أسلوبها بكل جو يلابسها من أجواء الكلام، ويجعل
جو السورة الواحدة مقياس العرض الرفيع الأنيق.. فهناك معانٍ متقاربة بين قصة
موسي في سورة " الشعراء " وقصة موسي في سورة " طه "، وقصة موسي في سورة
" القصص "، وغيرها من السور، ولكن الأسلوب يختلف بين هذه وتلك، اختلاف
كل سورة عن الأخرى في مسلكها البياني الخصب، وعرضها الرباني العجيب، مما
يُدرِك بالذوق علي تفاوته..

ومن مزايا الحركة المتنقلة بين أبعاد القصة في القرآن، ملء الفراغات التي تكون
عادة بين مقاطع الحوار، حتى يشعر القارئ أو السامع أو المشاهد بأنه يعيش فعلاً
مع أحداث القصة، ينتقل مع أشخاصها ويحاور أبطالها، ويشفق لهم أو منهم، أو
عليهم.. فكل قصة - موقف أو مواقف تجتذب التأمل، وتستعيد الناظر المتمهل،
وتندمج في سلك الهداية الرفيعة والموعظة الحسنة..

وهذا هو السرّ في أن القرآن الكريم تارة يختصر القصة، وأحياناً يطيل في عرضها،
ثم هو في موقف يأخذ بعض جوانبها، وفي موقف آخر يأخذ بعضاً بغاية الحكمة،
ودقة التصوير، وجمال التقدير..

ونجد القصص القرآني الكريم يتميز بالصدق في مدلولاته والتحقيق لمعاني
ألفاظه وعباراته.. والتثبت من مفاهيم أبطاله وشخصياته .. فالشخصيات فيه

حقائق لها وجودها الذاتي ولها منطقتها وسلوكها، ولها منزعتها واتجاهها، ولها استقلالها وكيانها، وليس وراءها في أي مشهد ما، أو في أي موقف من المواقف يد تحركها، أو أصابع تشدها، أو "مخرج" يفصل دورها علي "قدها"، أو مؤلف يضع الكلمات في الأفواه، ويشد الشفاه بالعبارة والحوار..

من أجل هذا، كان للحوار القصصي في القرآن شأواً بعيداً جداً في إحياء المشاهد التي ضم عليها الحدث القصصي، وفي إقذارها علي التأثير بالكلمة في تصوير رائع ملئ بالحركة.

ومن هنا، نستطيع أن ندرك الفرق الكبير والبون الشاسع بين القصص الأدبي الذي تتحرك فيه الأشخاص وتتحدث بها يضع القاص علي ألسنتهم من حوار، والقصص القرآني الكريم الذي يمكن القول فيه: بأنه جميعه انفعالات وانطباعات تصوّر الحق، وتتلون في ألوان الصدق، لما فيها من تحقيق الواقع العجيب، وتصوير الصدق القوي الذي يملأ النفوس إيماناً. ويزحم المشاعر بالإنسانية الرشيدة، والهدايات السديدة، ضرورة أنه من القرآن "الرِّكَّابُ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ" (سورة هود: ١).. و "إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ" (الطارق: ١٣-١٤). في ختام الحديث عن عناصر القصة القرآنية ينبغي القول: "إن من حكمة القصص القرآني عدم استيفاء العناصر في موقف واحد، بل هي موزعة التوزيع الذي يترك في كل موقف أثره المنشود. وهذا يرتبط ارتباطاً واضحاً بمفهوم سليم.. وهو أن القصص القرآني في جملته يجري مجرى الأقصوصة لا مجرى القصة الطويلة، ومن أسرار ذلك أن تكون النفوس مشوقة إلى استيفاء بعض العناصر، فتدرك جانباً منها في مقام وجانباً آخر في مقام، وهكذا حتى تستكمل القصة جميع عناصرها، ويبلغ الأمر مبلغه من المعاني المنشودة التي يستهدفها القرآن الكريم من قصصه"^(١٨٥).

ثالثاً: أغراض القصص القرآني

إن اشتغال القرآن الكريم علي هذه الوفرة الغزيرة من القصص الواعي المحكم،

ليدلّ علي الأهمية الكبيرة والمكانة العظيمة للقصة القرآنية، وقيمتها في التوجيه النفسي، وفي الهداية إلى الحق وإلى طريق مستقيم..

ولم يكن هذا القصة سرداً مجرداً لبعض الروايات القديمة يتسلّى بها السامعون، ثم يغفلون عن حكايتها أو يتعظون،... إن هذا القصة كان تاريخاً لسيرة الدعوة الدينية، وكيف خطت مجراها بين الناس منذ فجر الخليقة، وما هي العقبات التي اعترضتها؟ وهل وقفت عندها أو تغلبت عليها؟ وماذا صنع الأنبياء بإزائها وكيف قبلت الأمم المدعوة رسالات الله؟ أو صدّت عنها، بم انتهى الصراع بين الغي والرشد^(١١٨).

" وهكذا قضي سبحانه أن تجيء القصة القرآنية متجاوبة مع غريزة " حب الاستطلاع " مشبعة لها . علي صفة لا يحس فيها المستمع بضغط التكليف ومشقة الامر والنهي، وهكذا أصبحت القصة علي المدي الطويل لها دورها في التأثير، وفي مجري الحياة من حيث لا يشعر الإنسان " ^(١١٨) .

والحكمة المنسودة من وراء هذا القصة المتنوع نقرؤها في قوله تعالى: " لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " (سورة يوسف: ١١١).

فالقرآن كتاب الدعوة وتاريخها. وفي ثنايا السرد التاريخي لأخبار الأولين يزداد عرض الدعوة وضوحاً ويستبين منهجها الذي تحدو البشرية إليه، والذي لا يختلف وإن اختلفت العصور وكرت الدهور. وإنما لنجد فيما قصّ القرآن الكريم من وصايا الأنبياء ونصائحهم وإرشادهم لأمتهم، كلاماً منسجماً، وهدياً منسجماً، صدر من مشكاة واحدة، وانساق إلى هدف واحد يمهد أوله لآخره وتصدق نهاياته بداياته، وكأنهم خطباء فوق منبر واحد، مع إنه بين النبي والنبي أزمان وأزمان، وبين الأمة والأمة تغيرت قري، وبادت أمصار، هذا وقد عرض القرآن الكريم قصصاً أخرى لم يكن أبطاها أنبياء ولا مرسلين، وإنما أقوام من هنا أو من هناك ممن طواهم الدهر ولكن بقيت ذكراهم - إن خيراً أو شراً باقية أمام الناس ماثلة أمام

أعينهم علّهم يثوبون إلى دينهم، فالدين يهدف إلى صلاح المعتقد، وتدبير حياة الإنسان علي الوجه الأتم، فليس الدين بمعزلٍ عن الحياة، وبذلك تكون القصة إحدى وسائله الكثيرة إلى أغراضه الدينية، والتي تتمثل في إبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها " (١٨٧) ، فقد " تناولت القصة القرآنية جميع الأغراض القرآنية، إثبات الوحي والرسالة، وإثبات وحدانية الله الواحد القهار وتوحد الأديان في أساسها، ومظاهر القدرة الإلهية، وعاقبة الخير والشر، والإنذار والتبشير، والصبر والجزع، والشكر والبطر.. وكثير غيرها من الأغراض الدينية والمرامي الخلقية، قد تناولته القصة، وكانت أداة وسبيلاً إليه " (١٨٨) ... وفوق كل ذلك رقت القصة القرآنية ذوق العرب والمسلمين، وارتقت بأساليب البيان عندهم، ومهدت لهذه الآثار الضخمة من الكتب والموسوعات، ودواوين الشعر " (١٨٩) .

وفي الحقيقة أن أول أهداف القصة القرآنية وأغراضها نستمدّها من الظروف التي أوجت بهذا القصص.. فقد جاء أن " النضر بن الحارث " كان يجلس إلى الناس كما كان يجلس الرسول - عليه الصلاة والسلام - وكانت قریش تستملح حديثه، وتنصرف عن النبي، فكان طبيعياً - ومحمد - صلي الله عليه وسلم - بصدد البرهنة علي أن ما جاء به حق - أن يعلمه الله سبحانه وتعالى مثل هذا القصص ليلبغه إلى قومه عساهم يؤمنون، وعن غيهم الفاسد يرجعون، وما كان لهم - لو أنهم أرادوا وجه الحق - إلا أن يؤمنوا به ويصدقوا دعواه، محمد - صلي الله عليه وسلم - لم يكن كاتباً ولا قارئاً، ولا عُرف عنه أنه يجلس إلى أبحار اليهود والنصارى، فإذا جاء وأخبر عن أمم بادت وقرون خلت، وأسهب في قصص إبراهيم ويوسف وموسي وعيسي - عليهم السلام - أفلا يدل ذلك علي أن ما يقوله حق ؟ لقد اتخذ القرآن من هذه القصص دليلاً علي أنه وحي يوحى .. ولذا كان من أغراض القصة القرآنية:

أولاً: إثبات الوحي والرسالة:

فالقرآن ينصّ علي هذا الغرض نصاً في مقدمات بعض القصص أو في أعقابها

حيث جاء قوله تعالى في أول سورة " يوسف " : " إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِينَ " (يوسف: ٢-٣) .

وفي سورة " هود " التي وردت بعد قصة نوح نقرأ قوله تعالى: " تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ " (هود: ٤٩) .

ثانياً: الدعوة إلى الصبر والثقة في الله:

لأنه إذا عرض سبحانه وتعالى علي نبيه سيرة أصحاب الدعوات مع أقوامهم، وما لاقوه من متاعب، وما صادفهم من أزمات انكشف غمّه وانزاح همّه، وثبت علي دعواه.. والقرآن يبرز ذلك في قوله سبحانه: " وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ " (هود: ١٢٠) .

وهكذا كان الرسول - صلي الله عليه وسلم - يجد في هذا القصص صدي نفسه.

ثالثاً: التوجيه والإرشاد:

إذ لا ينكر أحد أبداً ما جاء به القصص القرآني من توجيهات دينية قد تدحض كل خلق أو عادات أو آراء زائفة .. فالقصص القرآني يتجه إلى تحقيق دعوة السماء للأرض من الإيمان بالله ورسله، وذلك بشرح العقائد وتصويرها وحسن التصرف فيها .. وقد وجه القرآن الكريم إلى هذا الهدف في جوامع من عباراته بقوله سبحانه: " وَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَمَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ " (النحل: ٣٦) .

وهنا نري أن الله سبحانه أضاف إلى ذلك القصص، الأمر بالسير في الأرض لزيادة العظة والاعتبار، وتوجيه العباد إلى تطبيق كل ما ورد في القصص القرآني علي

الواقع الخارجي. وإرشادهم إلى أن الخير في اتباع ما يوحى إلى رسوله وما يدعوهم الرسول إليه.

رابعاً: الترغيب والترهيب:

ويقترّب أمر السير في الأرض بالإنذار والتخويف، فالإنذار في القصص القرآني له معنى تهذيبي إصلاحي يهدى به الله من شاء من عباده إلى الطريق الحق وإلى صراطٍ مستقيم .. ومازلنا نمارس هذه السنة الإلهية الكريمة في نظام الكون والوجود: "أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأناروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون" (سورة الروم: ٩). وهذا الغرض من أغراض القصص القرآني يجعلنا نطرح تساؤلاً حوله: إن الإنذار بالعذاب، ونحوه من أغراض القرآن الكريم في غير القصص. فما الذي يدعو إلى هذا اللون من القول. وإلى الحفل به والعناية بأمره والجواب: إن ذلك لحق. ولكن الذي يجب التنبيه عليه والالتفات إليه، هو أن للقصص من التأثير على النفوس بمقتضى فطرها ما ليس لغيره من ألوان القول، فهو لون يبين أن ما نذر الله سبحانه به من العذاب قد وقع لمن جحد - وعند - ونزع عن رحابة الإيمان وعمق العقيدة، وأصالة الحق، إلى ضنك الباطل وزيف الضلال^(١٩).

خامساً: إبراز وحدة الدعوة بين الأنبياء:

إذ أن المدقق في القصص القرآني بقلب عامر بالإيمان وإعمال سليم للعقل لا بد أن يشعر أن من أهم أهداف هذا القصص القرآني إبراز حقيقة عقيدية مهمة تنضح خلال السرد التاريخي وهي أن الأنبياء والرسل جميعاً عليهم صلوات الله وسلامه جاءوا بكلمة واحدة وقضية واحدة علي تتابع الأجيال . كلمة واحدة هي: لا إله إلا الله. وقضية واحدة هي: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره..

هذا الهدف من أهم أهداف القصص القرآني في الحقيقة، يبدو بارزاً شديد البروز من خلال السرد القرآني، وتتخذ له وسائل شتى:

أ- فأحياناً يوحد أسلوب القصص (مع التنويع الواضح في القرآن) بحيث تحيى العبارة موحدة علي لسان كل رسول، في الشريط المتتابع للرسول:
كل رسول يقول الكلمة ويمضي، ويأتي من بعده بنفس الكلمة بلا تغيير.

ب- وتارة يقال عن قوم معينين أنهم كذبوا " الرسل " مع إنهم لم يرسل إليهم إلا رسول واحد، ليوحى التعبير بأن تكذيب الرسول الواحد هو بمثابة تكذيب الرسل كلهم.

ج- وتارة يقال عن أقوام متعمدين إنهم عَصَوْا " رسول " ربهم، فيوضح ذلك أن كل أمة كذبت رسولها، ويوحى في ذات الوقت أنه كأنها هو رسول واحد الذي بُعث إلى هذه الأقوام جميعاً، لأنهم - علي اختلاف أقوامهم، وأزمانهم وأماكنهم ولغاتهم - قد قالوا ذات القضية.. ومن هنا فالرسل جميعاً كأنهم رسول واحد يتكرر لكل قوم من الأقوام..

فمن أمثلة النوع الأول ما جاء عن الرسل في سورة الأعراف، وسورة هود، وسورة الشعراء بصفة خاصة: " لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه . فقال: يقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم... وإلى عاد أخاهم هودا . قال يقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون .. وإلى ثمود أخاهم صلحاً قال يقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاء تكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية .. وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . وقد جاء تكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان " (الأعراف: ٥٩-٨٥) (١١١).

ومن أمثلة النوع الثاني سورة الشعراء: حيث جمعت بين الوسيلتين، إذ وُحِّدَت قول الرسل كلهم في عبارة واحدة يكررها كل رسول، ثم جعلت كل قوم بمفردهم يكذبون " المرسلين " جميعاً، بتكذيبهم للرسول الخاص الذي أرسل إليهم . وكذلك ما جاء في سورة الفرقان عن قوم نوح من أنهم كذبوا " الرسل " مع أنهم كذبوا رسولهم الخاص وحده وهو " نوح " ولكن ذلك بمثابة تكذيب الرسل جميعاً:

" وَقَوْمٌ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرَّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا " (الفرقان: ٣٧).

ومن أمثلة النوع الثالث ما جاء من أنباء ثمود وعاد، وفرعون، والمؤتفكات، في سورة الحاقة: " كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَابِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَفَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ وَجَاء فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْحَاطِئَةِ فَعَصُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَاخَذَهُمُ أَخَذَةً رَّابِيَةً " (الحاقة: ٤-١٠).

والتعبير - وإن كان يُفهم منه أن كل فرقة من هؤلاء قد عصت رسولها - إلا أن اللفتة فيه واضحة، أن الرسل كلهم الذين أرسلوا إلى فرعون، ومن قبله، والمؤتفكات قد جمعوا في رسول واحد، لأن مهمتهم كلها واحدة، وقصيتهم كلها واحدة .. فكأنهم رسول واحد تكرر بعثه لكل فرقة منهم في حينها ..

وكذلك ما جاء في سورة الشعراء عن " موسى وهارون " معاً، أنهما " رسول رب العالمين: " قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أُرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ " (الشعراء: ١٥-١٧).

وليس هناك لبس علي الإطلاق في أن المتكلم اثنان معاً لا واحد، لأن الأمر صادر إليهما معاً: " فقولا "، ولأنهما يقولان: " أرسل معنا بني إسرائيل " فموسي وهارون يتكلمان معاً .. وحتى لو فرضنا أن موسي وحده الذي يتكلم باسميهما معاً فهو يقول " إنا " ولا يقول " أنا " .. أي أنه يتكلم بضمير المثني لا المفرد، ومع ذلك يقول " إنا رسول رب العالمين " لأنهما - وهما شخصان - يقومان بمهمة واحدة ورسالة واحدة فكأنهما رسول واحد^(١١).

سادساً: وحدة المعارضة:

ومن الأهداف المهمة، الموازية في أهميتها لقضية وحدة الرسالة ووحدة الرسل، إبراز الموقف الموحد الذي تفقه الجاهليات جميعاً من رسلها الذين أرسلوا إليها .. فكما أنها رسالة واحدة مكررة، وإن اختلف الأشخاص واللغات، والزمان والمكان:

- " كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ اتَّوَصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُونَ " (الذاريات: ٥٢-٥٣).

وهكذا نري أنه دور واحد تقوم به الجاهلية دائماً إزاء هذه الدعوة البسيطة غاية البساطة، الخطيرة غاية الخطورة .. دعوة لا إله إلا الله .. والقرآن يبرز هذا الدور إبرازاً تاماً في قصص الأنبياء .. وقد كان من أهداف هذا الإبراز ولا شك أن يقال للرسول - صلي الله عليه وسلم - وللمؤمنين: إن ما تفعله بكم جاهلية قريش من اضطهاد وتعذيب، هو عينه الذي صنعه كل جاهلية من قبل في التاريخ .. ثم كانت النهاية دائماً هي انتصار الحق، وهزيمة الباطل والعذاب للمكذبين، ولنقرأ قول الحق تبارك وتعالى حيث يقول:

" فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ " (سورة الأعراف: ٦٤) (نوح عليه السلام)

" فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ " (الأعراف: ٧٢) (هود عليه السلام).

" فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ " (الأعراف: ٧٨-٧٩) (صالح عليه السلام).

" فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ " (الأعراف: ٨٣-٨٤) (لوط عليه السلام).

" فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ " (الأعراف: ٩١-٩٣) (شعيب عليه السلام).

كان هذا هدفاً قائماً بالنسبة للمؤمنين إزاء اضطهاد قريش لهم وقت نزول هذا القرآن .. ولكنه هدف قائم أبداً طالما كانت في الأرض جاهلية من أي نوع، ودعاة يعلنون دائماً: لا إله إلا الله، فيضطهدون ويعذبون ويقتلون .^(١٩٣)

سابعاً: مؤازرة النبي وإمداده بالمعجزات:

ويضاف إلى أهداف القصص القرآني تأييد النبي - صلي الله عليه وسلم - فيما اصطفاه الله له من الرسالة، ولهذا التأييد هدف آخر غير هدف التثبيت والتسرية، فإن التثبيت هدف يتجلى في تحمّل الشدائد، ومقابلة الأذى بقلب ثابت، والصبر علي المكاره.. أما التأييد فيتصل بالتحدي بالغيب، والإعجاز بمعرفة تفاصيل لا يطلع عليها إلا علام الغيوب.. فهو يوحي بها إلى من يصطفيه من عباده: " وَكَلَّمَا فَضُلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ هَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا " (سورة النساء: ١١٣)^(١٩٤).

ثامناً: بيان الأصل المشترك

بين دين " محمد " ودين إبراهيم بصفة خاصة ثم أديان بني إسرائيل بصفة عامة، وإبراز أن هذا الاتصال أشد من الاتصال العام بين جميع الأديان . فتكررت الإشارة إلى هذا في قصص إبراهيم وموسي وعيسي:

" إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى " (سورة الأعلى: ١٨ - ١٩) " أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى " (سورة النجم ٣٥-٣٨) " إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ " (سورة آل عمران: ٦٨) " مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ " (سورة الحج: ٧٨) و " وقفينا علي ءاثرهم بعيسي ابن مريم مصداقاً بين يديه من التورة إلى قوله تعالى " وَأَنْزَلْنَا

إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ" (سورة المائدة ٤٦ -٤٨).

تاسعاً: بيان نعمة الله على أنبيائه وأصفيائه

كقصص إبراهيم وموسي وعيسي، وسليمان وداود وزكريا ويونس، فكانت ترد حلقات من قصص هؤلاء الأنبياء تبرز فيها النعمة في مواقف شتى، ويكون إبرازها هو الغرض الأول، فمن تقدير القرآن الكريم لحياة سيدنا إبراهيم وبيان نعم الله عليه، قوله سبحانه: "وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ" (البقرة: ١٣٠).

وإن للسادة الصوفية شرحاً جميلاً لكلمة "الصالحين" حينما ترد، في مثل هذه المقامات، أنهم يقولون: "الصالحون للحضرة الإلهية، فيكون معني الآية الكريمة: وإنه في الآخرة لمن الصالحين، لحضرتنا.. هذا وقد أتت عدة أوصاف لإبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم نذكر منها:

- إنه كان مسلماً: أي أسلم وجهه لله وأخلص له العبادة.
- وإنه كان أمة: والأمة والجماعة من كان علي الحق ولو كان وحده فهو قدوة يقتدي بها في الحق، وهو إمام.
- وإنه كان قانتاً: والقانت هو الخاضع الخاشع.
- وإنه كان حنيفاً: والحنيف هو الذي لا ينحرف ولا يميل ميل نزعات أو ميل شرك.
- وإنه كان حليماً.
- وإنه كان أوهاً: والأواه كثير التأوه، وذلك يعني رقة القلب.
- وإنه كان منيباً: والمنيب هو الراجع إلى الله في كل أموره.
- وكان شاكراً لأنعم الله، وأنه في النهاية كان خليل الله . يقول سبحانه: " وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا" (النساء: من آية ١٢٥) (١٩٥).

عاشراً: الدعوة إلى التفكر وإعمال العقل:

ومن أهداف القصص القرآني إيقاظ العقل ليفكر ويستنبط . يقول تعالى " فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" (سورة الأعراف: ١٧٦).. وهكذا إن كان الإمتاع هدفاً للقصة مطلقاً، فإن القرآن الكريم يضيف إلى متعة العين والأذن، متعة العقل بالتفكير، ومتعة القلب بالصبر والثبات، علي أن ينتهي ذلك كله بالعمل الذي يتوج المكلف به حياته^(١٩٦).

وهناك هدف من أهداف القصص القرآني، ربما لم يكن منصوصاً عليه في القصص ذاته، ولكنه مفهوم من سياق القصص أولاً، ومنصوص عليه كذلك في مواضع أخرى من القرآن، كما جاء في أول سورة العنكبوت:

"الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ" (العنكبوت: ١-٣).

إن القصص القرآني يقول لنا - من خلال السياق - إن الابتلاء هو سنة الله للمؤمنين ثم يقول إن الله هو الذي يضع المؤمنين في الابتلاء بقدر منه .. ويضع الطغاة في موضع الغلبة بقدر منه، حتى إذا جاء أمر الله جاء النصر للمؤمنين بقدر من الله، ووقع الهلاك بالمكذبين بقدر كذلك من الله^(١٩٧).

الحادي عشر: التحذير من الغواية والتباعد الشيطان:

ومن أهم أغراض القصص القرآني ذلك الغرض الذي يرمي إلى تنبيه أبناء آدم إلى غواية الشيطان، وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ أبيهم آدم، وإبراز هذه العداوة عن طريق القصة أروع وأقوي، وأدعي إلى الحذر الشديد من كل هاجسة في النفس تدعو إلى الشر، وإسنادها إلى هذا العدو الذي لا يريد بالناس الخير^(١٩٨).

الثاني عشر: التربية والتهذيب:

قصص القرآن متناسق في منهجه التربوي مع منهج القرآن، فهو تطبيق بالمثال الحي لهذا المنهج المتكامل، ذلك أن القرآن بقصصه ومواعظه وتوجيهاته العقائدية

والتشريعية وحدة متناسقة، وإن تنوعت طرقه في التبليغ، والتعليم قصد الإمعان في التأثير، وتجديد نشاط النفس بتجدد انتقاله في السورة الواحدة من غرض إلى آخر، مع ارتباط وثيق بالمحور العام الذي يجمع تلك الأغراض علي اختلافها .. ولهذا كانت الوسائل والأهداف في القصة القرآنية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً، فبحيوية العرض في القصة، وقوة التخيل والتصوير فيها، وتهيئة اللحظة الحاسمة التي تبلغ فيها حرارة الانفعال النفسي درجة الانصهار، يحصل من التأثير بالتوجيه التربوي ما لا يحصل عند إقحام ذلك التوجيه علي النفس وهي في راحتها واسترخائها، أو في انطلاقها وتحررها. ففي قصص القرآن إذا تربية دينية لها أثر عميق في النفوس مصدرها: عقيدة تضم الخالق والإنسان والكون، وتقوم علي أساس أن كل خلق كريم هو في ذلك الشعور الباطن، وهو الإيثار بالله الذي جعل الكون معرضاً رائعاً تتجلي فيها حقيقة الألوهية بآثارها، وتملاً جوانب الإنسانية بآياتها: " فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمَنَتْ فَفَعَلَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُؤْمِنُونَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ " (سورة يونس: ٩٨).

والحقيقة التي يؤكدتها القصص القرآني أن موازين القيم والأخلاق مرتبطة بميزان الله. فالكفر ظلمة وضلال، والإيمان نور وهداية، فلا إصلاح بغير عقيدة، ولا تربية بغير إيمان " ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور " (سورة النور: ٤٠). ولذلك كان للقصة القرآنية دوراً عظيماً في تربية العقيدة وتعهدتها وتنميتها، إذ ليست الغاية من التربية سوي تكوين العواطف الصالحة، ولكن هذه العواطف لا تصبح أساساً للخلق الكريم إلا إذا تحولت إلى اتجاهات يكون ينبوعها الدائم هو العقيدة، مصدر الإيمان والخير والأمن^(١١٠).

ولقد واجه " إبراهيم " قومه الجاحدين المشركين بحجة أهمه الله إياها، وهي أن من يخلص لله لا يخاف من دونه، فهو أحق بالاطمئنان والأمن من الملحد والمشرک، " وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ " (الأنعام: ٨١-٨٢).

الثالث عشر:

وللقصص القرآني أهداف وأغراض أخرى كريمة لا تغاير ما أشرنا إليه وما أسلفنا الكلام فيه، وكلها تتصل بالأغراض الرئيسة والأهداف الحقيقية، ومنبثقة عنها في معني هداية القرآن الكريم، فهي فروع لتلك الأغراض والأصول، وهي تتجه في جملتها إلى ناحيتين:

أ- ناحية تتصل بهدف التوحيد والإيمان السليم . وذلك هو التوكل على الله والاعتزاز به . وهو في عرضه القرآني مما يحقق الأسوة الصالحة، والقُدوة الطيبة، ويملاً النفس المطمئنة بالعزة بالله واللجوء إلى حماه، ففي حوار الأنبياء مع الكفار نجد أيضاً من التوكل، وغمراً من الإيمان والتبتل، فنقرأ في قصة نوح ما ذكر الله سبحانه في سورة يونس إذ يقول: " وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ عَمَةً ثُمَّ افْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ" (سورة يونس ٧١-٧٢).

وفي قصة إبراهيم، ما هو أعجب، وهي متفرقة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، كما تفرقت من قبلها قصة نوح. ففي سورة الشعراء دار هذا الحوار بينه وبين قومه: " قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ" (سورة الشعراء: ٧٥-٨٢).

ولننظر في مرأى آخر من جوانب ذلك الحوار .. وكيف انتهى أمره مع قومه إلى أن يلقوه في النار، ولمن كانت العاقبة؟ وما مدي استهتارهم به وبدعوته: " قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ

اللَّهُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ" (سورة الأنبياء: ٦٦-٧٠).

أما توكل "موسى" علي ربه فقد أضفى توكلاً عجيباً لمن آمن معه فقالوا لفرعون - كما يقصّ سبحانه في سورة طه: " قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ " (سورة طه: ٧٢-٧٣).

ب- وأما الناحية الأخرى من تلك الأهداف الفرعية المنبثقة من الأغراض الرئيسة لقصص القرآن، فهي تعليم الأدب في الحوار، والمناقشة مهما غلظ المجرمون الكفار، وتصوير الذوق والرقعة، والتلطف والعطف.. ولقد تجلي هذا المعني سافراً في قصة موسى إذ أرسله الله سبحانه إلى فرعون بسُلطان مبین ومعه أخوه هارون.. وزودهما بقوله العظيم وتوجيهه الرشيد الحكيم: " اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ " (سورة طه: ٤٣-٤٤).

ولقد صور الله سبحانه خلق المرسلين في هذا المعني الكريم في عدة مناسبات في جوامع الكلمات، إذ يقول سبحانه في بعض ذلك: " أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَثُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ " (سورة إبراهيم: ٩-١٠).

يتضح من هذه المحاورات أن المرسلين يقابلون كل غلظة وجفوة، وكل شدة في الخطاب وقسوة، بكل أدب رفيع وسلوك كريم، وتوجيه صادق كريم، ومعرفة أمينة دقيقة وتسامح ورحمة جديرة أن تحول كل عناد إلى انقياد، وأن ترد كل غواية

إلى أدب وهداية .. وذلك من الدروس المستفادة والعبر الصادقة الحقة التي يجب أن نرتفع بمستوانا إليها، ونخلق بسلوكنا معها في المعاملة وفي التفاهم والمخالفة وفي كل شؤون الحياة .. وهكذا يكون القرآن وقصصه هداية ورعاية، وموعظة وعبرة، وأسوة وقدوة^(١٠٠).

الدعوة والقصص القرآني:

من خلال قصة إبراهيم وحواره مع أبيه تستمد الدعوة الإسلامية أول أسلحتها وهو سلاح الحكمة: " وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُعْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ أَهْلِي يَا إِبْرَاهِيمُ لئن لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا فَلَمَّا اعْتَرَاهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُم لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا" (مريم ٤١-٥٠).

تبدو في هذه الحلقة من القصة شخصية إبراهيم الرضيّ الحليم .. تبدو وداعته وحلمه في ألفاظه وتعبيراته وفي تصرفاته ومواجهته للجهالة من أبيه، كما تتجلى رحمة الله به وتعويضه عن أبيه وأهله المشركين ذرية صالحة تنسل أمة كبيرة، فيها الأنبياء وفيها الصالحون. وقد خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ينحرفون عن الصراط الذي سنّه لهم أبوهم إبراهيم ، هم هؤلاء المشركون^(١٠١) ..

" واذكر في الكتب إبراهيم " التذكير هنا إغراء وسلوى للرسول صلي الله عليه وسلم، ثم إنه التذكير بإبراهيم عليه السلام بالذات:

(أ) لأنه أبوهم . (ب) والمشركون مقرون بنبوته وحقية رسالته .. فهي نقطة

اتفاق يضعها الداعي بين أيدي المدعويين ليلتقوا معه عليها، فيكون ذلك أدعي للإصغاء إليه والإقبال عليه.. ثم تلخص الآية الكريمة عناصر القوة في شخصيته: " إنه كان صديقاً نبياً" .. إذاً فهو يتقدم إلى ساحة الدعوة ومعه أسلحته.. إيماناً وخلقاً وحكمة، فمن مظاهر حكمته عليه الصلاة والسلام مناداته لأبيه: يا أبت. فحق الأبوة يفرض عليه ألا يناديه باسمه المجرد، وحق الدعوة يتقاضاه أن يكون في خطابه رفيعاً رقيقاً، ولذلك لم يقل يا أبي، وإنما: يا أبت، بما تحمله زيادة التاء من زيادة بر ومودة، ثم أنه يكررها أكثر من مرة، وذلك ليخفف بالترار من حدة والده، ويفرض عليه بها إحراجاً يمنعه من مبادرته بالثورة، أو تأخيرها علي الأقل..

ثم يتجه إبراهيم إلى مخاطبة عقل أبيه: " يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً" .. وبعد ذلك يتجه عليه السلام إلى وجدان أبيه ليهزه بعمق: " يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً" .

ويلاحظ هنا أن إبراهيم عليه السلام لا يريد الضغط علي قلب أبيه بالتخفيف ليفجره تفجيراً، لكنه فقط ينبّه، يضيئ شمعته، فلعلها تنير الطريق. والآيات التالية توضح لنا ذلك:

أ- لم يؤكّد إبراهيم عليه السلام وقوع العذاب .. وإنما هو فقط يخاف وقوعه..

ب- ثم إنه يخاف من العذاب أن " يمسه " لا أن يسحقه.

ج- ويخاف أن يمسه من قبل " الرحمن " ولا يقول من " الجبار " مثلاً.

أي أنه لا يضغط بعنف، لكنه يعبر الطريق إلى قلبه برفق ولين، لعله يلين..

يقول ابن القيم تعليقاً علي موقف إبراهيم: وتأمل قول إبراهيم الخليل لأبيه: " يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً" .. فابتدأ خطابه بذكر أبوته الدالة علي توقيره، ولم يسمّه باسمه. ثم أخرج الكلام معه مخرج السؤال: فقال لم

تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً، ولم يقل: لا تعبد. ثم قال: "يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك" .. فلم يقل له: إنك جاهل لا علم عندك، بل عدل عن هذه العبارة إلى اللفظ المعني فقال: "جاءني من العلم ما لم يأتك" ثم قال: "فاتبعني أهدك صراطاً سوياً" .. ثم قال: "يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً" فنسب الخوف إلى نفسه دون أبيه، كما يفعل الشفيق الخائف علي من يشفق عليه، قال: "يمسك" فذكر لفظ المس الذي هو أطف من غيره، ثم نكر العذاب، ثم ذكر الرحمن ..

وهذه الحكمة في معالجة الموقف شاهد صدق علي ما يجب أن يتحلّى به الداعية من خصائص لولاها لما أتت الدعوة أكلها - بل إن الداعية حيث يتجرد منها يكون عبثاً علي الدعوة لا سند لها ..

تواضع الداعية:

وفي التعبير بقوله تعالى: "عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً" تواضع يتوّج هامة الداعية الذي يرجع كل شيء إلى الله تعالى، ولا يقطع بما سيكون عليه، بل يتركه لتقدير الله تعالى وذلك قوله: "عسى ألا أكون" وإذا كان قوله: "شقياً" تعريضاً بأبيه وقومه، فإنه الأسلوب الممسك بالخيط فلا يقطعه فلعل فرصة قريبة تُتاح للعودة إليه .. ولا نغفل قوله "وأعتزلكم" ولم يقل "واعترلك" رعاية لمشاعر الأبوة .. وتقديراً من الابن لوالده مهما كانت درجته من الجحود والجمود ..

ونري من هذا كلّ كيف يتخذ الاستدراج طريقاً لإثبات الدعوى، وذلك بأن يبدأ الخطيب في إلقاء الريب في نفوس من يخاطبهم، ثم يلقي إليهم ببعض ما تنتجه الأدلة مغضياً النظر عن النتائج الحقيقية السليمة التي تنتجها البراهين، حتى إذا اطمأن إلى أنه قد أخذ بزمام الجماعة يقودها حيث شاء، ألقى إليهم بالنتائج كلها لبراهينه، والاستدراج كما رأينا يكون في المقامات الخطابية التي يكون الخطيب فيها متصدياً للدعوة لأمر لم تألفه الجماعة، أو لفكرة تناقض أمراً انفقت عليه ..

إن إبراهيم عليه السلام كمسلم ينزّه لسانه عن الفحش، ثم هو كداعية مأمور أن

يتلطف بالمدعو لا سيما إذا كان أباه، وأن يرتب الكلام في أحسن اتساق وأن يسوقه أرشق مساق^(٢٠٣).

وأخيراً: إذا وضعنا في حسابنا هذا كله كان لنا في النهاية أن نجمع خيوطاً عديدة يمثل كل منها غرضاً مهماً من أغراض القصص القرآني، ولكن هذه الخيوط كلها تلتقي عند نقطة واحدة، وتتجاذب لدي عقدة موحدة، تلكم هي الناحية الدينية، والدعوة إليها بتلك الطريقة المهذبة الوعظية، ولا غرو فقد خاطب القرآن الكريم بهذا القصص حاسة الوجدان الدينية، بلغة الجمال الفنية، فإذا أدركنا أن الفن والدين صنوان في أعماق النفس، وقرارة الحس أدركنا أيضاً مدي ما وصلت إليه هذه الأغراض من نجاح، وأي نجاح " وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " (سورة يوسف: ٢١).

لقد وعى القرآن قصص الأولين مع أنبيائهم، وجدّد علي الناس ذكرها، وذلك لكي يداوي عللاً متشابهة، ويطب أمراضاً متماثلة، ومن أجل هذا كثرت القصص لتُحصي جملة كبيرة من الأمراض الاجتماعية، وتستأصل جرثومتها بصنوف العبر وشتى السندر، إن القرآن وهو يقصّ أبناء الأولين يحوّلها إلى دواء سائل عام، يسكب من قطراته علي نفوس المعاندين يبغى شفاءها دون نظر إلى تراخي القرون واختلاف المخاطبين^(٢٠٤).

" إن القصص القرآني دروس في العقيدة، دروس في حقيقة لا إله إلا الله .. وإن كان ثوبه ثوب القصة، وإن كان فيه من الجمال التعبيري والتصوير الفني ما يأخذ بالألباب"^(٢٠٥)..

هوامش ومراجع المقدمة و الفصل الأول

- (١) د. محمد حسين هيكل: ثورة الأدب، ص ٦٩، دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٧٨.
- (٢) د. الطاهر أحمد مكي: القصة القصيرة ص ٧٢، دار المعارف، القاهرة، ط ٤، ١٩٨٥.
- (٣) د. محمد حسين هيكل: ثورة الأدب . ص ٧٠ .
- (٤) وقد تمثلت هذه العناصر عند "هوميروس" في ربط "داعية الألم Pathos" (وهي الفعل الذي يهلك أو يؤلم، وما إلى ذلك مما تسوقه المصائر ويكون مثار الرحمة) بالمخاطر التي قامت بها الشخصيات في "الأوديسيا" وقد مهد كذلك للقصص الخيالية الثرية - ما قام به شعراء المآسى اليونانية منذ "يوربيدس" من ربطهم العنصر العاطفي بالأحداث التي يسوقونها، غيبية كانت أم إنسانية . . ومن جهة أخرى عمد المؤرخ اليوناني "كسينوفون Xonophon" إلى خلط الخيال بالتاريخ فيما يُشبه القصة، في تأريخه لملك الفرس "كورش" في كتابة "كوربيديا" ...
- انظر: د. محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، ص ٤٦٤ - ٤٧٠ بتصرف، دار نهضة مصر، القاهرة، بدون تاريخ .
- (٥) من المعروف في الملاحم القديمة مسخ الإنسان إلى حيوان أو شجرة أو حجر . وقصة "أبوليوس" عنوانها "الحمار الذهبي" وفيها تم مسخ "لوسيوس" إلى حمار ثم عودته إلى حالة الإنسان على يد كاهن للإلهة "إيزيس" .
- انظر: د. محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث . ص ٤٦٧ . هامش ٢ .
- (٦) د. محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث . ص ٤٧٧-٤٧٨ .
- (٧) على شلش: في عالم القصة، ص ١٩٥ - ١٩٦ .
- (٨) د. محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث . ص ٤٩٢ .
- (٩) على النجدي ناصف: القصة في الشعر العربي إلى أوائل القرن الثاني الهجري ص ٤ - ٥، دار نهضة مصر، بدون تاريخ، وانظر القصة العربية القديمة، للأستاذ محمد مفيد الشوباشي - ص ٥٨ .
- (١٠) محمود تيمور: دراسات في القصة والمسرح، ص ٦٥، المطبعة النموذجية، القاهرة بدون تاريخ .
- (١١) على الجندی ناصف: القصة في الشعر العربي، ص ٤ .
- (١٢) د. محمد أبو الأنوار: من قضايا الأدب الجاهلي، ص ٣، ٨ مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٧٦ .

- (١٣) المرجع السابق، عن البيان سنة ١٩١١ مقال "الانتقاد" لطف حسين .
- (١٤) د. على النجدى: في تاريخ الأدب الجاهلي ص ٢٥٨، دار المعارف، القاهرة سنة ١٩٨٤ .
- (١٥) صادق إبراهيم عرجون: الحياة الأدبية عند العرب قبل الإسلام، بينى وبين الأستاذ محمد فريد وجدى، ص ١٨-١٩، مطبعة الإرشاد، القاهرة، سنة ١٩٣٦ .
- (١٦) د. محمد أحمد العزب: عن اللغة والأدب والنقد. رؤية تاريخية .. وروئية فنية، ص ٣٨٩ ، ط ١ . دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠ .
- (١٧) سيد قطب: النقد الأدبي . أصوله ومناهجه ص ٧٦، دار الفكر العربى، القاهرة، بدون تاريخ .
- (١٨) د. الطاهر أحمد مكي: القصة القصيرة ص ٧٧-٧٨، دراسة ومختارات، دار المعارف، ط ٤ . القاهرة، ١٩٨٥ .
- (١٩) المرجع السابق. ص ٩٦ .
- (٢٠) المرجع السابق. ص ٩٦ .
- (٢١) د. مصطفى علي عمر: القصة وتطورها في الأدب المصري الحديث ص ٢١، دار المعارف. القاهرة ١٩٨٢ .
- (٢٢) د. الطاهر أحمد مكي: القصة القصيرة .. ص ٧٨
- (٢٣) د. رشاد رشدي: فن القصة القصيرة، ص ٥٤، ط ١ . مكتبة الانجلو . القاهرة، سنة ١٩٥٩
- (٢٤) د. محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، ص ٥٢٦ .
- (٢٥) على شلش: في عالم القصة، ص ١٩١، ط ١ . مطبوعات دار الشعب - القاهرة، سنة ١٩٧٨ .
- (٢٦) د. محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، ص ٥٢٧ .
- (٢٧) صبرى حافظ: الخصائص البنائية للأقصوصة ، ص ٢٨ . مجلة فصول . المجلد الثانى . العدد السابع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢ .
- (٢٨) المرجع السابق. ص ٢٩ .
- (٢٩) المرجع السابق. ص ١٨٧ .
- (٣٠) د. الطاهر أحمد مكي: القصة القصيرة ... ص ٧٥ .
- (٣١) سيد قطب: النقد الأدبي . أصوله ومناهجه، ص ٨٠ . دار الفكر العربى، القاهرة، بدون تاريخ .
- (٣٢) د. محمد مندور: الأدب وفنونه . ص ٩٨ . دار نهضة مصر، ج ٢، القاهرة بدون تاريخ .
- (٣٣) جورج برناردشو: دراسة السوبرمان البرجوازي ص ١٥٦-١٥٧، مقال لكريستوفر كودويل . تقديم وترجمة: إبراهيم حماده . مجلة فصول . المجلد الخامس العدد الثالث، سنة ١٩٨٥ .

(٣٤) د. محمد حسين هيكل: ثورة الأدب، ص ٧٧ .

(٣٥) المرجع السابق، ص ٧٤ .

(٣٦) د. مصرى عبد الحميد حنورة: الأسس النفسية للإبداع الفنى في الرواية، ص ٢٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة، سنة ١٩٧٩ .

(٣٧) د . محمد غنيمى هلال: النقد الأدبي الحديث، ص ٤٨١ بتصرف .

(٣٨) المرجع السابق، ص ٤٨٢ بتصرف

(٣٩) المرجع السابق، ص ٤٨٣ بتصرف.

(٤٠) د. فاطمة الزهراء: العناصر الرمزية في القصة القصيرة ص ٢٠، دار نهضة مصر للطبع والنشر. القاهرة، سنة ١٩٨٤ .

(٤١) محمود تيمور: دراسات في القصة والمسرح ص ١٦٢-١٦٧ بتصرف، المطبعة النموذجية . القاهرة، بدون تاريخ.

(٤٢) المرجع السابق، ٨٩ .

(٤٣) ابن منظور: لسان العرب . مادة قصص .

(٤٤) أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية ص ٢٩-٣٠، دار الكتب العلمية-بيروت لبنان، بدون تاريخ، ضبطه وحققه حسام الدين القدسي .

(٤٥) هو عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن القشيري الشافعي، أحد أئمة الدنيا في الفقه والأصول والتفسير، توفي سنة ٥١٤ بنيسابور

(٤٦) الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى: البرهان في علوم القرآن، ص ١٧٧، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . المجلد الثانى، مكتبة دار التراث، الطبعة الثالثة

(٤٧) عبد الكريم الخطيب: القصص القرآنى في منظوقه ومفهومه ص ٤٥ ، دار الفكر العربى . القاهرة، سنة ١٩٦٥ .

(٤٨) محمد قطب: منهج الفن الإسلامى . ص ١٥٨ . دار الشروق . القاهرة ط ٤ . ١٩٨٠ .

(٤٩) سورة الحجرات . الآية ٦ . وانظر محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص ١٥٩-١٦٠ ترجمة عباس محمود- مصر ١٩٥٥ .

(٥٠) د . التهامى نفرة - سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٢٢١ - الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٧٤ .

(٥١) المرجع السابق، ص ٢٢٢ .

(٥٢) محمد متولى الشعراوي: معجزة القرآن، ص ٢٠٠، ج ٣، كتاب اليوم، العدد ١٨٧-١٥ يونيو ١٩٨١ .

(٥٣) سيد قطب: في ظلال القرآن . الملجد الرابع ص ٢٢٨٩، ط ١٢، دار الشروق، القاهرة، سنة ١٩٨٦ .

- (٥٤) محمد متولى الشعراوى: معجزة القرآن، ص ٢٠١ .
- (٥٥) سيد قطب: في ظلال القرآن . المجلد الرابع ص ٢٢٩٠ .
- (٥٦) محمد متولى الشعراوى: معجزة القرآن، ص ٢٠٣ .
- (٥٧) سيد قطب: في ظلال القرآن . المجلد الرابع ص ٢٢٩٢ .
- (٥٨) المرجع السابق .
- (٥٩) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٢٤٣، ٢٤٤ .
- (٦٠) محمد قطب: منهج الفن الإسلامي، ص ١٥٧ .
- (٦١) سيد قطب: ظلال القرآن . المجلد الثاني، ص ٨٧٤ .
- (٦٢) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٣٣١ / المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط ٣، بيروت، ١٩٨٥ .
- (٦٣) التكوين (٤ : ١ - ١٧)
- (٦٤) سيد قطب: في ظلال القرآن . المجلد الثاني ص ٨٧٧-٨٧٨ .
- (٦٥) علي شلش: في عالم القصة، ص ٢٩، ط ١ . مطبوعات الشعب، القاهرة، ١٩٧٨ .
- (٦٦) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن ص ٣٣٤-٣٣٥ .
- (٦٧) د. عبد المجيد عابدين: الأمثال في النثر العربي القديم، ص ١٥٨، ١٠١، دار مصر للطباعة . القاهرة، ١٩٥٦ .
- وانظر كذلك د. بكري شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن ص ٢٣١، دار الشروق ط ٢، القاهرة ١٩٧٦ .
- (٦٨) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٢٤٥-٢٤٨ .
- (٦٩) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الرابع، ص ٢٢٧٠ .
- (٧٠) سيد قطب: في ظلال القرآن . المجلد الرابع، ص ٢٢٧٠ .
- (٧١) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٣٥٠-٣٥١ .
- (٧٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الرابع، ص ٢٢٧١ .
- (٧٣) ابن قيم الجوزية: روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ص ١٦٩ .
- وانظر: د. محمد حسن عبد الله: الحب في التراث العربي ص ١٢٠ عالم المعرفة (٣٦) . الكويت سنة ١٩٨٠ .
- (٧٤) المرجع السابق، ص ١٣ .
- (٧٥) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٣١٣ .
- (٧٦) عبد الكريم الخطيب: قصص آدم ويوسف عليهما السلام، ص ٧٥، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٧٤ .
- (٧٧) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الرابع، ص ١٩٨٠ .

- (٧٨) عبد الكريم الخطيب: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص ٧٥.
- (٧٩) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الرابع، ص ١٩٨١.
- (٨٠) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٣١٤.
- (٨١) عبد الكريم الخطيب: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص ٨٣.
- (٨٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الرابع، ص ١٩٨٣.
- (٨٣) عبد الكريم الخطيب: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص ٨٧.
- (٨٤) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٣١٥.
- (٨٥) عبد الكريم الخطيب: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص ١٣٩.
- (٨٦) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٣٢٥-٣٢٦.
- (٨٧) محمد قطب: منهج الفن الاسلامي، ص ١٥٧.
- (٨٨) د. محمد فتوح أحمد: الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، ص ٣٦، دار المعارف مصر، ١٩٧٠.

(٨٩) Encyclopedia Britannica . Vol. 21 P. 701 1956. Year

(٩٠) Charles Chadwick: Symbolism . P. 6 first publication Britain 1977.

- (٩١) سيد قطب: في ظلال القرآن . ج ٣، ص ١٢٤٧.
- (٩٢) د. فتحي أحمد عامر: المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، ص ٢٦٦-٢٦٧، منشأة المعارف الاسكندرية، ١٩٧٦.
- (٩٣) عبد الكريم الخطيب: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص ٣٨.
- (٩٤) محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص ٩٩ و ١٠٩.
- (٩٥) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٣، ص ١٢٤٧.
- (٩٦) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٤١، دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٧٥.
- (٩٧) د. السيد تقى الدين: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم، ص ١٨٩ دار احياء الكتب العربية . القاهرة، ١٩٨٤.
- (٩٨) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٣٥٠.
- (٩٩) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الرابع، ص ١٩١٣.
- (١٠٠) د. بكرى شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن، ص ٢٢٣-٢٢٤.
- (١٠١) د. السيد تقى الدين: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم، ص ١٩٠.
- (١٠٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الخامس، ص ٢٦٧٩، وراجع قصة مولد موسى في سورة القصص، آيات ٣-١٢.
- (١٠٣) راجع القصة في سورة الكهف: الآيات ٥٩-٨١.

- (١٠٤) سيد قطب التصوير الفني في القرآن: ص ١٥٠-١٥٣ .
- (١٠٥) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد السادس، ص ٣٦٦٦-٣٦٦٧ .
- (١٠٦) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الخامس، ص ٢٦٤٢ وانظر أيضا: التصوير الفني في القرآن ص ١٥٤ .
- (١٠٧) انظر سورة الأحقاف: آية ١٥ .
- (١٠٨) انظر سورة الإسراء: آية ٧٨ .
- (١٠٩) انظر سورة البقرة: آية ١٨٥، وآية ١٩٧ .
- (١١٠) انظر سورة القصص: آية ٧٨ .
- (١١١) د. عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ، مجلة عالم الفكر، ص ١٢-١٤ .
- (١١٢) راجع سورة يونس آية ٦، وسورة الفرقان آية ٦٢، وسورة لقمان آية ٢٩، وسورة المءنون آية ٨٠ .
- (١١٣) محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص ٥٦-٧٥ .
- (١١٤) د. عبد الصبور شاهين: الدلالة العميقة في الكلمة القرآنية، ص ١٥، مجلة منبر الإسلام، المجلس الأعلى للشئءون الإسلامية، العدد ١٠ - السنة ٤٥، ١٩٨٧ م .
- (١١٥) محمد إقبال: تجديد الفكر الديني في الاسلام، ص ٦٥ .
- (١١٦) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد السادس، ص ٣٤٤١ .
- (١١٧) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٥٩ .
- (١١٨) د. عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ . عالم الفكر، ص ١٥-١٦ .
- (١١٩) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٦٠ .
- (١٢٠) د. عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ . مجلة عالم الفكر، ص ١٦-١٧ .
- (١٢١) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٦١ .
- (١٢٢) سيد قطب: ظلال القرآن، المجلد الأول، ص ٨٠ .
- (١٢٣) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الأول، ص ٨٠ .
- (١٢٤) محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص ١٧، ١٨ .
- (١٢٥) د. فؤاد علي رضا: علوم القرآن، ص ١٩٠ . لبنان ط ٢، ١٩٨٣ .
- (١٢٦) سورة الإسراء: آية ١ .
- (١٢٧) راجع القصة في سورة هود .
- (١٢٨) راجع القصة في سورة المؤمنون .
- (١٢٩) سورة مريم: آية ٥٦، وسورة الأنبياء؛ آية ٨٥ .
- (١٣٠) سورة الأنبياء: آية ٨٥ .
- (١٣١) سورة الدخان: آية ٣٧، وسورة ق؛ آية ١٤ .

- (١٣٢) سورة الفرقان: آية ٣٨؛ وسورة ق آية ١٢ .
- (١٣٣) راجع القصة في سورة يس: آيات ٢٠ إلى ٢٩ .
- (١٣٤) راجع سورة التوبة: آية ١٢٠، والأحزاب: آية ١٣ .
- (١٣٥) راجع سورة آل عمران: آية ١٢٣؛ والانفال: آية ٣٤ .
- (١٣٦) راجع سورة التوبة: آية ٢٥ .
- (١٣٧) د. عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ، ص ١٩ .
- (١٣٨) د. عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ، مجلة عالم الفكر، ص ١٩-٢٠ .
- (١٣٩) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٢٧٧ .
- (١٤٠) أبو عبد الله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي: تفسير القرطبي . الجامع لأحكام القرآن، ج ٦، ص ٤٠٧٢ . كتاب الشعب . القاهرة .
- (١٤١) د. عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ، مجلة عالم الفكر، ص ٢١ .
- (١٤٢) سيد قطب: في ظلال القرآن: المجلد الأول، ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .
- (١٤٣) د. السيد تقي الدين: من الواجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم، ص ١٨٩ - ١٩٠ .
- (١٤٤) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٦٤ .
- (١٤٥) د. بكري شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن، ص ٢٢١ .
- (١٤٦) د. فؤاد علي رضا: من علوم القرآن، ص ١٩١ .
- (١٤٧) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٣٦٠ .
- (١٤٨) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٦٦ .
- (١٤٩) د. عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ: مجلة عالم الفكر، ص ٣٠ .
- (١٥٠) د. عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ . مجلة عالم الفكر، ص ٣٠-٣١ .
- (١٥١) د. محمد غنيمي هلال: النقد الادبي الحديث: ص ٥٣٠، ٥٣٣ .
- (١٥٢) د. بكري شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن، ص ٢٢٢ .
- (١٥٣) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٣٦٤-٣٦٦ .
- (١٥٤) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن: ص ١٦٤-١٦٥ .
- (١٥٥) المرجع السابق. ص ١٦٥-١٦٦ .
- (١٥٦) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٣٦١، ٣٦٩ .
- (١٥٧) د. بكري شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن، ص ٢٢٢-٢٢٣ .
- (١٥٨) د. عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ: مجلة عالم الفكر، ص ٣٦-٣٧ .
- (١٥٩) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٦٦-٦٧ .
- (١٦٠) د. عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ، مجلة عالم الفكر، ص ٣٧ .
- (١٦١) عباس محمود العقاد: المرأة في القرآن، ص ٥٥، دار نهضة مصر، القاهرة .

(١٦٢) د. علي عبد الواحد وافي: المرأة في الإسلام، ص ٣٩، دار نهضة مصر ط ٢، القاهرة، ١٩٧٩.

(١٦٣) د. محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم، ص ٢٤٧، مكتبة الانجلو، ط ٤، القاهرة، ١٩٧٢. حيق يقول: "إن المعاني الأدبية والفنية هي مقصود القرآن من القصص، وهي الأمور التي يبحث عنها، وهي الأمور التي تجعل الحادثة الواحدة تصور بصور مختلفة، ويعبر عنها بعبارات متفاوتة حسب الظروف والمناسبات .

(١٦٤) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٤٠٠-٤٠١.

(١٦٥) د. فؤاد علي رضا: علوم القرآن، ص ١٩١.

(١٦٦) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٧٠.

(١٦٧) سيد قطب: في ظلال القرآن: المجلد الخامس، ص ٢٦٧٩.

(١٦٨) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٤٠١.

(١٦٩) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد السادس، ص ٣٦٢١.

(١٧٠) ورد اسم "مريم" في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٦٦٥. وضعه محمد فؤاد عبد الباقي. دار الفكر. ط ٢، القاهرة ١٩٨١.

(١٧١) محمد متولي الشعراوي: معجزة القرآن، ص ٣٧٨.

(١٧٢) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٤٠٢.

(١٧٣) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٧١.

(١٧٤) عبد الكريم الخطيب: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص ٣ و ٤.

(١٧٥) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٢١٥-٢١٦.

(١٧٦) والخوض في الطريقة التي جرى بها الحوار بين هذه العناصر المتباينة لا يجدي. وقد

استشكل بعض المفسرين ولا سيما علماء الكلام منهم خطاب الرب سبحانه وتعالى للشيطان

في هذا الحوار الطويل، واختلفوا فيه: هل هو خطاب بواسطة الملائكة كالوحي لرسول

البشر؟ أم بغير واسطة وكيف؟ وهل يقتضي التكريم؟ وهل ما قصه القرآن على لسان الهدهد

تخييل أو تمثيل أو تعبير بلسان الحال؟ .. إن محاولة الإجابة على مثل هذه التساؤلات تفضي إلى

التحكم، والإيمان يدعوننا إلى التسليم بأن ما جاء في هذا الحوار حق، دون البحث في كيفيته.

انظر: د. التهامي نفرة. سيكولوجية القصة في القرآن. ص ٤١٤.

(١٧٧) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٧٣ و ٧٥.

(١٧٨) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٢٦٣.

(١٧٩) فتحي رضوان: القصة القرآنية، ص ١١٩، ١١٨، كتاب الهلال، عدد ٣٣٢، دار الهلال،

القاهرة، ١٩٧٨.

(١٨٠) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الخامس، ص ٢٦٧٦.

- (١٨١) فتحي رضوان: القصة القرآنية، ص ١٣٥ .
- (١٨٢) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .
- (١٨٣) سيد قطب: في ظلال القرآن . المجلد الخامس، ص ٢٥٩١ .
- (١٨٤) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٧٨-٧٩ .
- (١٨٥) د. حفني محمد شرف: إعجاز القرآن البياني، بين النظرية والتطبيق، ص ٢٩٣، المجلس الأعلى للشيءون الإسلامية، الكتاب الرابع، القاهرة ١٩٧٠ .
- (١٨٦) د. محمود محمد عمارة: الدعوة من خلال القصة القرآنية، مجلة منبر الإسلام ص ١٢، العدد ١١ . المجلس الأعلى للشيءون الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٨ .
- (١٨٧) د. حفني محمد شرف: إعجاز القرآن البياني: ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .
- (١٨٨) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٢٠ .
- (١٨٩) فتحي رضوان: القصة القرآنية، ص ٨ .
- (١٩٠) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٩٦ .
- (١٩١) انظر سورة هود من ٢٥: ٨٤، وسورة الشعراء من ١٠٥: ١٨٠ .
- (١٩٢) محمد قطب: دراسات قرآنية ص ١٠٢ - ١٠٤، دار الشروق، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٨٣ .
- (١٩٣) محمد قطب: دراسات قرآنية، ص ١٠٩ .
- (١٩٤) انظر: السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن. ص ١٠٦ .
- (١٩٥) انظر: د. عبد الحليم محمود . في رحاب الأنبياء والرسل. كتاب اليوم. ص ١٠٩ . العدد ٢٩٤ . القاهرة ١٩٨٩ .
- (١٩٦) د. محمد محمد عمارة: أصول الدعوة من خلال القصة القرآنية، منبر الإسلام (١١). ص ١٣ .
- (١٩٧) محمد قطب: دراسات قرآنية، ص ١١٠ - ١١١ .
- (١٩٨) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٢٧ .
- (١٩٩) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٥٤٣ - ٥٤٧ .
- (٢٠٠) سورة يونس: ٧١ - ٧٢ .
- (٢٠١) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ١١٠ و ١١٨ .
- (٢٠٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الرابع، ص ٢٣١١ .
- (٢٠٣) د. محمود محمد عمارة: أصول الدعوة من خلال القصة القرآنية . منبر الاسم ص ٧٢ - ٧٤ . العدد (١١١) .
- (٢٠٤) د. حفني محمد شرف: إعجاز القرآن البياني، ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .
- (٢٠٥) محمد قطب: دراسات قرآنية، ص ١١١ .

الخصائص
اللغوية والأسلوبية

مقدمة:

يقول تعالى: " أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا " (سورة النساء: ٨٢). إن التناسق المطلق الشامل الكامل هو الظاهرة التي لا يخطئها من يتدبر هذا القرآن أبداً. ومستوياتها ومجالاتها مما تختلف العقول والأجيال في إدراك مداها، ولكن كل عقل وكل جيل يجد منها - بحسب قدرته وثقافته وتجربته وتقواه - ما يملك إدراكه، في محيط يتكيف بمدى القدرة والثقافة والتجربة والتقوى .. ومن ثم فإن كل فرد، وكل جيل، مخاطب بهذه الآية، ومستطيع - عند التدبر وفق منهج مستقيم - أن يدرك من هذه الظاهرة - ظاهرة عدم الاختلاف، أو ظاهرة التناسق ما تهيئه له قدرته وثقافته وتجربته وتقواه ..

تتجلى هذه الظاهرة - ظاهرة عدم الاختلاف " ابتداءً في التعبير القرآني من ناحية الأداء وطرائقه الفنية .. ففي كلام البشر تبدو القمم والسفوح، التوفيق والتعثر، القوة والضعف، التحليق والهبوط .. إلى آخر الظواهر التي تتجلى معها سمات البشر، وأخصها سمة " التغير " أي الاختلاف المستمر الدائم من حال إلى حال، يبدو ذلك في كلام البشر، وازحاً عندما نستعرض أعمال الأديب الواحد، أو المفكر الواحد، أو الفنان الواحد، أو أي كان في صناعته، التي يبدو فيها الوسم البشري وازحاً .. وهو التغير والاختلاف " (١) .. والحقيقة أن النقد الحديث يقول إن " العمل الفني يطمح إلى الكمال، أي أنه في صورته المثالية كامل - ولكنه لا يرقى إلى هذه الصورة المثالية أبداً، فهو مرتبط بنقصان البشر، وما هو في الحقيقة إلا سجل مجد لمشاعر وأفكار أبعد ما تكون عن الكمال شكلاً ومضموناً، ويقول العماد الأصفهاني: " لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قُدّم هذا لكان أفضل، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل . وهذا من

أعظم العِبَر، وهو دليلٌ على استيلاء النقص على جملة البشر " وحتى عندما يصل العمل إلى " الصورة النهائية" فإن ذلك لا يكون إيداناً بالكمال أبداً، فالصورة المكتملة ليست كاملة لأنها تستند إلى معايير لا تفتأ تختلف من مكان إلى مكان ومن عصر إلى عصر .. ومن جمهور إلى جمهور في نفس الزمان والمكان" (٣).

هذه الظاهرة واضحة كل الوضوح أن عكسها وهو الثبات، والتناسق، هو الظاهرة الملحوظة في القرآن - ونحن نتحدث فقط عن ناحية التعبير اللفظي والأداء الأسلوبي - " فهناك مستوى واحد في هذا الكتاب المعجز - تختلف ألوانه باختلاف الموضوعات التي يتناولها - ولكن مستواه وأفقه، والكمال في الأداء بلا تغير ولا اختلاف من مستوى إلى مستوى - كما هو الحال في كل ما يصنع الإنسان - إنه يحمل طابع الصفة الإلهية ويدل على الصانع، يدل على الموجود الذي لا يتغير من حال إلى حال، ولا تتوالى عليه الأحوال" (٣).

وإذا تأملنا القصة القرآنية والأسلوب الذي قُدمت به، وماله من تأثير نفسي وفني، اتضح وجه تسميتها " بالقصة " لا استناداً إلى مدلولها اللغوي فقط، باعتبار أن أصل الاشتقاق للفظ " قصة " يلتقي في المعنى مع المدلول الذي انبنى عليه أصل التسمية القرآنية، وهو: الإعلام بالنبأ " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ " (سورة الكهف: ١٣)، أو تتبّع الأثر ونقصه: " وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ " (سورة القصص: ١١)، بل واعتماداً على ما في عرضها من طرق فنية، " رغم أن شروط القصة بمعناها الاصطلاحي لا تنطبق عليها غالباً، لأنها إلى الأقصوصة أقرب، وذلك لقصرها، واقتصار القرآن في أكثر الأحيان على ذكر حلقة منها أو أكثر وعدم استيفائها كل عناصر القصة مجتمعة، من حوار وأشخاص وزمان ومكان وعقدة، كما شاع ذلك في معظم القصص الفني" (٤). فالقصة القرآنية لا يقصد بها العمل الفني المجرد، بل هي مزيج من العمل الفني والعلمي والديني، كما هو شأن البيان القرآني جميعه، ومعني ذلك أن من يطلب فيها أحد تلك المقاصد لاشك أنه واجده فيها على أرقى ما يمكن أن يصل إليه الكمال في العمل الأدبي، كما أشار البيان القرآني نفسه إلى ذلك في قوله تعالى: " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ " (سورة

يوسف: ٣) " فالقرآن لم يحدّد وجه الأحسنيّة .. أهو أحسن القصص بياناً وأسلوباً، أم أحسنه صدقاً فنياً، أم أحسنه صدقاً واقعياً، أم أحسنه عرضاً لوقائع التاريخ القديم، أم أحسنه وصولاً إلى متلقيه، أم أحسنه قياماً علي الحقائق ونأيّاً عن الخيال؟ هو أحسن القصص في كل ذلك وغير ذلك كما قال عنه منزله وموحيه جلّ وعلا "ه... وسنحاول فيما يلي أن نكشف عما نوقّق إليه من جوانب تلك الأحسنيّة في الخصائص اللغوية والأسلوبية.

أولاً: الخصائص اللغوية:

" القرآن هو ضمير الحياة العربية، وهو من اللغة كالروح الإلهية التي تستقر في مواهب الإنسان فتضمن لآثاره الخلود، ثم لا يدل عليها حين التعرّف إلا بصفات كل نفس لمواقع تلك الآثار منها، كأنّ هذه الروح تحاول أن تفصح عن معاني النبوغ الفني في آثارها الخالدة، فلا تجد أقرب إلى غرضها من أن تهيج الإحساس بها في كل نفس، فيجزئ ذلك في البيان عنها، لأن الإحساس إنّما هو اللغة النفسية الكاملة" (١).

والقصص القرآني باب من أبواب البيان القرآني العظيم .. ففيه من إعجاز القرآن ما في سائر أبوابه.. ونحن إنّما نبحت الإعجاز اللغوي في القصص القرآني، نبحت ما أنفرد به في نفسه علي وجه الإعجاز، لا من جهة ما يشركه فيه غيره علي أي وجه من الوجوه، وبذلك يتركز بحثنا عند الخصائص اللغوية في القصص القرآني، من ناحية اللفظ والمعني.

" ومن أظهر الفروق بين أنواع الخصائص اللغوية في القصص القرآني، وبين هذه الأنواع في كلام الأدباء، أن نظم القصص القرآني يقتضي كل ما فيه منها اقتضاءً طبيعياً بحيث يُبنى هو عليها لأنها في أصل تركيبه، ولا تُبنى هي عليه، فليس فيه من المذاهب الكلامية التي بُنيت عليها علوم البلاغة..

فالمصور البلاغية في الإبداع القصصي القرآني، إنّما هي وجه من نظم حروفه، بخلاف ما نجده في كلام الأدباء، فهذه المصور تصنع لموضعها وتبني عليه فربما

وقّت وربما أخلفت، ولو هي رفعت من نظم قصصه ثم نزل غيرها في مكانها لرأينا النظم نفسه غير مختلف، وندرك بذلك مزية عظيمة في توازن حروفه، وائتلاف مخارجها وتناسب أصواتها، ونحو هذا مما هو أصل الفصاحة، ومما لا تُغني فيه استعارة ولا مجاز ولا كناية ولا غيرها، لأنه وجه من تأليف الحروف ونسق اللفظ فيها؛ وأنواع البلاغة فيه إنما هي من وجوه التأليف بين معاني الكلمات.. فالحرف الواحد في القصة القرآنية معجز في موضعه، لأنه يمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية وآيات الكثيرة، وهذا هو السرّ في إعجاز جملته القصصية إعجازاً أبدياً، فهو أمر فوق الطبيعة الإنسانية^(٣٧).

وبذلك يتضح لنا أن أهم الخصائص اللغوية في القصص تدور حول جهات ثلاث: في الحروف، والكلمات والجمل:

الحروف وأصواتها:

لما قرئ القرآن علي العرب، رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جملة، ألقاناً لغوية رائعة، كأنها لا تتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها^(٣٨)، فلم يفهم هذا المعني، وإنه أمر لا قبّل لهم به، وكان ذلك أبين في عجزهم، حتى أن من عارضه منهم "كُسيّلة"، جَنَحَ في خرافاته إلى ما حسبه نظماً موسيقياً أو باباً منه، وطوي عما وراء ذلك من التصرف في اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البياني، كأنه فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية، وإنما هي في أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها، وليس يتفق ذلك في شيء من كلام العرب إلا أن يكون وزناً من الشعر أو السجع..

وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنوع الصوت، بما يخرج فيه مداً أو غنة أو لينا، أو شدة، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه علي مقادير تناسب ما في النفس من أصولها، ثم هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع؛ أو الإطناب والبسط، بمقدار ما يكسبه من الحدة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى؛ وحسبنا بهذا

اعتباراً في إعجاز النظم الموسيقا في القرآن وقصصه، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجر، والشدة والرخاوة، والتفخيم والترقيق، والتنفي والتكرير، ونحو ذلك مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى...

وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بها ليس وراءه في العجب مذهب، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها، أو بالمد، وهو كذلك طبيعي في القرآن^(١٠)، فإن لم تنته بواحدة من هذه، كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى، كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه، وعلي أن ذلك لا يكون أكثر ما نجد إلا في الجمل القصار، ولا يكون إلا بحرف قوي يستتبع القلقل أو الصغير أو نحوهما مما هو ضروب أخرى من النظم الموسيقا^(١١).

وبتطبيق هذا النظم الموسيقا العجيب علي سورة " مريم "، الذي يستغرق القصص نحو ثلثيها، نحس أن للصورة إيقاعاً موسيقياً خاصاً. فحتى جرس ألفاظها وفواصلها فيه رخاء وفيه عمق: " رضىاً . سرىاً . حفىاً . نجىاً، فأما المواضع التي تقتضي الشد والعنف، فتجى فيها الفاصلة مشددة دالاً في الغالب: مدأ . ضدأ . إذا . هدأ، أو زايا: عزأ، أزأ . وتنوع الإيقاع الموسيقا والفاصلة بتنوع الجو والموضوع يبدو جلياً في هذه السورة . فهي تبدأ بقصة زكريا ويحيى، فتسير الفاصلة هكذا:

" ذكر رحمت ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداء خفياً... الخ"^(١٢) وتليها قصة مريم وعيسى فتسير الفاصلة علي النظام نفسه:

" واذكر في الكتب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً... إلخ"^(١٣) إلى أن ينتهي القصص، ويحيى التعقيب، لتقرير حقيقة " عيسى بن مريم " وللفصل في قضية

نبوته، فيختلف نظام الفواصل .. فتطول الفاصلة، وتنتهي بحرف الميم أو النون المستقر الساكن عند الوقف لا بالياء الممدودة الرخية علي النحو التالي:

" ذلك عيسي ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضي أمراً فإنما يقول له كن فيكون .. إلخ " (١٣).

وهكذا يتغير نظام الفاصلة فتطول، وتصبح بحرف النون أو بحرف الميم وقبلهما مدّ طويل . وكأنها هو في هذه الآيات الأخيرة يصدر حكماً بعد نهاية القصة، مستمداً منها. ولهجة الحكم تقتضي أسلوباً موسيقياً غير أسلوب الاستعراض وتقتضي إيقاعاً قوياً رصيناً، بدل إيقاع القصة الرخيّ المسترسل، وكأنها لهذا السبب كان التغيير..

وبمجرد الانتهاء من إصدار هذا الحكم وإلقاء ذلك التقرير وعاد السياق إلى القصص عادت الفاصلة الرخية المديدة:

" واذكر في الكتب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً. إذ قال لأبيه يابت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً.. إلخ " (١٤).

حتى إذا جاء ذكر المكذبين وما ينتظرهم من عذاب وانتقام، تغير الإيقاع الموسيقا، وجرس الفاصلة: " قل: من كان في الضللة فليمدد له الرحمن مداً . حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب، وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً .. إلخ " (١٥) وفي موضع الاستنكار يشتد الجرس والنغم بتشديد الدال:

" وقالوا: اتخذ الرحمن ولدأ . لقد جئتم شيئاً إداً، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدأ... إلخ " (١٦).

" وهكذا يسير الإيقاع الموسيقا في السورة وفق المعني والجو، ويشارك في إبقاء الظل الذي يتناسق مع المعني في ثنايا السورة، وفق انتقالات السياق من جو إلى جو، ومن معني إلى معني " (١٧).

" إن الفاصلة القرآنية ترد وهي تحمل شحنتين في آن واحد: شحنة من الوقع الموسيقا، وشحنة من المعني المتمم للآية . فالمعني هو الذي يتحكم في نوع الفاصلة،

ثم يأتي النغم الموسيقا متمماً للروعة التي يتميز بها أسلوب القرآن^(١١٥).

" وهذه هي طريقة الاستهداء الصوتي في اللغة، وأثرها طبيعي في كل نفس، فهي تشبه في القرآن أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب به كل نفس تفهمه وكل نفس لا تفهمه، ثم لا يجد من النفوس علي أي حال إلا الإقرار والاستجابة ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضرباً من الكلام البليغ الذي يطمع فيه أو في أكثره، ولما وجد فيه أثر يتعدى أهل هذه اللغة العربية إلى اللغات الأخرى، ولكنه انفراد بهذا الوجه للعجز، فتألفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره أو أقحم معه حرف آخر، لكان ذلك خللاً بيناً أو ضعفاً ظاهراً في نسق الوزن وجرس النغمة، وفي حسّ السمع وذوق اللسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج وتساند الحروف وإفشاء بعضها إلى بعض^(١١٦)"

ومثال ذلك ما نجده في قصة إبراهيم عليه السلام: " قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ " (سورة الشعراء: ٧٥-٨٢).

فقد خطفت ياء المتكلم في " يهدين ويسقين ويشفين ويحيين " محافظة علي حرف الفاصلة مع " تعبدون، والأقدمون، والدين ... " .

ومثله في قصة موسى والعبد الصالح: قال ذلك ما كنا نبغ . فارتدا علي آثارهما قصصاً" (سورة الكهف: ٦٤)، فلو مددنا ياء نبغي كما هو القياس لا ختل الوزن نوعاً من الاختلال .. وأحياناً لا يكون هناك عدول عن صيغة قياسية، ومع ذلك نلاحظ الموسيقا الكامنة في التركيب، والتي تختل لو غيرنا نظامه مثل ما جاء في قصة زكريا: " ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا " (سورة مريم: ٢-٤) فلو حاولنا مثلاً أن نغيّر فقط وضع كلمة " مني " فنجعلها سابقة لكلمة " العظم ":

لأحسنا بما يشبه الكسر في الوزن الموسيقا، ذلك أنها تتوازن مع "إني" في صدر الآية هكذا: قال رب إني وهن العظم مني" ...

" وهكذا نلاحظ نوعاً من الموسيقا الداخلية، يكمن في نسيج اللفظة المفردة، وتركيب الجملة الواحدة، وهو يُدرك بحاسة خفية، وهبة لدينة" (٢٠).

ثانياً: الكلمات وحروفها:

الكلمة في الحقيقة الوضعية إنما هي صوت النفس، وصوت العقل، وصوت الحس، إما صوت النفس: فهو الصوت الموسيقا الذي يكون من تأليف النغم بالحروف ومخارجها وحركاتها ومواقع ذلك من تركيب الكلام ونظمه علي طريقة متساوقة وعلي نضد متساو، بحيث تكون الكلمة كأنها خطوة للمعني في سبيله إلى النفس، إن وقف عندها هذا المعني قُطِعَ به ...

إما صوت العقل: فهو الصوت المعنوي الذي يكون من لطائف التركيب في جملة الكلام، ومن الوجوه البيانية التي يداور بها المعني، لا يخطئ طريق النفس من أي الجهات انتحي بها.

أما صوت الحس: فهو أبلغهن شأنًا، لا يكون إلا من دقة التصور المعنوي، والإبداع في تلوين الخطاب، ومجازبة النفس مرة وموادعتها مرة، بما يسوقه إليها من طرائف المعاني ..

وإذا ذهبنا نبحت في أصول البلاغة الإنسانية عن حقيقة نفسية ثابتة قد اطردت في اللغات جميعاً، وهي في كل لغة تُعدّ أصلاً في بلاغتها، لما أصبنا غير هذه الحقيقة التي تظهر في شيء من الكلام ظهورها في القرآن وهي:

- الاقتصاد في التأثير علي الحسّ النفسي:

ونلاحظ ذلك في كلمات القصص القرآني، فهي لا تُسرف على النفس، ولا تستفرغ مجهودها، بل هي مقتصدة في كل أنواع التأثير عليها، فلا تضيق به ولا تنفر منه" (٢١)، ولذلك نجد الكلمات في القصص القرآني، تتميز بمميزات منها:

ويرجع ذلك إلى دقة القرآن في استخدامه للألفاظ وحسن اختيارها في مواقعها. فقد جاء علي لسان السحرة الذين آمنوا بموسى على الرغم مما أوعدهم به فرعون من عقابٍ شديد: " رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا " (سورة الأعراف: ١٢٦).

فإن ما يثيره لفظ " أفرغ " وما يوحي به من لين ورفق وطمأنينة يحسها من هدأ جسمه بما يلقي عليه . وهذه الراحة تشبهها تلك الراحة النفسية التي ينالها من منح الصبر الجميل، فإذا جاء إلى العذاب استخدم لفظ " صبّ " فقال: " فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ " (سورة الفجر: ١٣). وهي مؤذنة بالشدة والقوة معاً...

" وهكذا فإن للألفاظ أطيافاً وظلالاً وأصداء في النفس، كما أن لجرسها إيقاعاً في الأذن.. والكلمات في التعبير، كالألوان في الرسوم، والأنغام في الموسيقى، ويكفي أن نقرأ ما ورد في قصة " زكريا " من دعاء، وتمييزه بإيقاعه الغنائي ؛ ودعاء " إبراهيم " وأصوات ألفاظه المتقطعة المتهدجة، ودعاء " نوح " المجلجل المديد، فهي كلها في سموها وحرارتها كأنها أناشيد السماء " (٣٣) .

٢- اتساقها الكامل مع المعنى " (٢٤):

أ- العلاقة بين الآية وفكرتها:

حيث نلاحظ الانسجام بين الفكرة التي تحملها الآية، والخاتمة التي تنتهي بالفاصلة، ولنقرأ قوله تعالى مثلاً علي لسان عيسى عليه السلام عندما يسأله ربه يوم القيامة: " أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهِينَ مِنْ دُونِ الله "، فيجيب فيما يجيب: " إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " (سورة المائدة: ١١٦-١١٨).

فقد نتساءل عندما نقرأ هذه الآية: لماذا لم تنته بقوله مثلاً: " وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ "، مع أن السياق يُوحى بالغفران؟ ولكننا إذا أمعنا النظر وجدنا أن الذي استحق العذاب لا يستطيع أن يغفر له إلا من كانت سلطته أعلي

السلطات، وقوته أعظم القوي، وعزته فوق كل عزة، ومن كان كذلك وجب أن يكون متصفاً بالحكمة التي يساندها العقل والمنطق السليم، وينأى عنها الحمق والتسرع والظلم والتهور، وإذا جاءت الفاصلة بالعزة مقترنة بالحكمة، فلأن القادر علي العقاب عزيز دائماً... ولكن ليس كل عزيز عادلاً. فكم من ملوك وحكام ومن بينهم سلطان علي الناس في هذه الدنيا ملكوا العزة، إلا أنهم فقدوا الحكمة التي يسندها العدل والعقل والسلوك المستقيم، ولذلك نجد أن ربط الحكمة بالعزة تعبير رائع، وتصوير جامع، وبيان قاطع لخالق عزيز حكيم^(١٠٠).

والحق أنه ما انتهت آية إلا بفاصلة ملائمة كل الملائمة لمعناها، مستقرة في مكانها، غير نافرة ولا قلقة .

ب- " ألفاظ يظن بها الترادف وليست منه " (١٠١):

" أسلوب القرآن يتألق في اختيار ألفاظه ووضعها في الأماكن اللاتقة بها، بحيث تكون مستقرة في مكانها مطمئنة في قرارها، ولما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها يستخدم كل حيث يؤدي معناه في دقة فائقة، فكأنها تؤمن بأن هذا المكان كأنها خلقت له تلك الكلمة بعينها، وأن كلمة أخرى لا تستطيع توفيق المعني الذي وفق به أختها، فكل لفظة من أفراد القرآن وضعت لتؤدي نصيبها من المعني أقوى أداء . ولذلك لا نجد فيه ترادفاً، بل كل كلمة تحمل معنى جديداً، ولها في النفس إحياءات خاصة، ولذا دعا القرآن إلى عدم استخدام لفظ مكان آخر " (١٠٢): " قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا " (سورة الحجرات: ١٤). ولذلك لا يجوز القول بوقوع الترادف في لغة القرآن لأنه كلام فصلت عباراته وأحكمت ألفاظه ووضع كل حرف فيه بإتقان بديع، ولذا وجب علينا في دراستنا للغة القصص القرآني أن نتبع ألفاظه لنبرز ما بينها من فروق دقيقة ودلالات مميزة:

- كل ... وأجمع: في قصة الاحتفاء بميلاد آدم ودعوة الملائكة إلى السجود له:

" فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ " (سورة الحجر: ٣٠، سورة ص: ٧٣).

وقال الخليل وسيبويه: إن مجيئها في الآية علي هذا النحو لإفادة التأكيد بعد التأكيد . وهذا الكلام صحيح من وجهة النظر النحوية، ولكن هذا لا يعني أنهما مترادفان في التأكيد فيقال فيهما " توكيد بعد توكيد " وإنما لكل منهما تأكيداً الخاص وجهته المنفردة .. فلفظ " كل " في صورته المختلفة يدل علي الإحاطة والشمول، أما لفظ " أجمع " فيدل علي الضم والاجتماع . فيكون الأول تأكيداً لمعني الوحدة في الفاعل . والثاني تأكيداً لمعني الوحدة في الفعل .. ويكون ذكرهما معاً في الآية الكريمة لإحكام البيان في صفة السجود وهيئته ليدل بالأول (كلهم) علي عموم الامتثال، وبالثاني (أجمعون) علي سرعة الاستجابة ... وبهذا يكون التأكيد بـ (كل) لإفادة أن العدد العديد صار فرداً واحداً في امتثال الفعل ويكون التأكيد بـ (أجمع) لإفادة أن العدد العديد صار فرداً واحداً في حركة الفعل ..

وقد سئل " المبرد " عن اجتماع اللفظين في الآية فقال: لو قال: " فسجد الملائكة " احتمل أن يكون سجد بعضهم . فلما قال (كلهم) زال هذا الاحتمال فظهر أنهم بأسرهم سجدوا . ثم بعد ذلك بقي احتمال آخر وهو أنهم سجدوا دفعة واحدة أو سجد كلهم وأحد منهم في وقت آخر . فلما قال (أجمعون) ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة^(٣٨).

وتتجلي هذه الدقة أيضاً في قوله تعالى في قصة لوط عليه السلام:

" إِيَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ " (سورة الحجر: ٥٩).

فقد ذكر لفظ أجمعين دون أن يأتي معه بلفظ كل . لأن المقام مقام إحاطة وشمول في هيئة الفعل وحركة الزمن لأن النجاة تحققت للناجين من آل في لحظة واحدة، هي نفس اللحظة التي تحققت فيها الهلاك بالصيحة علي المجرمين من قومه . ولم يقل (كلهم) لأن النجاة لم تتحقق لكل فرد من آل بدليل قوله (إِيَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ) لأن النجاة لم تتحقق لكل فرد من آل بدليل قوله (إِيَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ) (سورة الحجر: ٦٠). ولو قال (إينا لمنجوههم كلهم) لكان ذلك منافياً للاستثناء^(٣٩).

- الزوج ... والبعل

فالزوج يدل علي رباط الثنائية بين قرينين فإذا انفك هذا الرباط انتفت صفة الزوجية فيها .. وأما لفظ " البعل " فيفيد معني الفحولة في المعاشرة الزوجية ..

وفي إطار هذه الفروق الدقيقة جاء اللفظان في مواضعهما من القرآن الكريم، ويخصنا هنا ما جاء في قصة إبراهيم عليه السلام: " قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ " (سورة هود: ٧٢).

الموقف موقف دهشة واستغراب، فقد بشر الملائكة إبراهيم بالولد وهو شيخ كبير وامراته عجوز عقيم، فلما سمعت استغربت الخبر وعبرت عن موضع الغرابة فيه بقولها (أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا). وهي محقة حين تبني قولها علي معهود الحياة في استعدادات الطبيعة البشرية التي يقتضي التناسل فيها خصوبة الشباب في الأم وبعولة الشباب في الزوج ..

وهذا من ألطف الإشارات في إفهام القصد، ولو قالت (وزوجي شيخاً) لم يتحقق لها ذلك، فإن الشيخوخة لا تتنافي مع الزوجية ولا تكون مبعث إنكار واستغراب .. ويؤكد هذا المعني قولها " شيخاً " بالنصب فهي لم ترد الإخبار وإلا ل قالت " بعلي شيخ " ولكنها أرادت اظهار الحال التي عليها بعلمها من الشيخوخة التي تحول دون تحقق البعولة فيه .. وقد اعتبر " الواحدي " ذلك من لطائف النحو وقال إنه قائم مقام قولها: أشير إلى بعلي حال كونه شيخاً ... والمقصود تعريف هذه الحال المخصوصة وهي الشيخوخة ..^(٣).

- السنة ... والعام:

فقد اختلف التعبير بهما في قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: " قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًا قَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ هُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ " (سورة يوسف: ٤٧-٤٩).

وهذه المخالفة في التعبير تلفت النظر وتشد الانتباه، فظاهر السياق يقتضي أن يتوافق التعبير ويطرد اللفظ ليوائم نسق العبارات، والخروج علي هذا النسق يدل علي أن وراءه حكمة بيان وإحكام معني:

أولاً: السنة:

ويوحى جرسها في اللغة بمعناها، وهو معني يدور حول الحدة والقطع، والضمور والجفاف.. وجاء بهذا المعني في قوله تعالى: "وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ" (سورة الأعراف: ١٣٠). أي الشدة والقمحط .

ثانياً: العام:

وهو من العوم بمعني السباحة والانتشار، ودلالته دلالة خير ورخاء إذا فالعام زمن مخصوص بالخير موصوف بالرخاء.

وفي ضوء هذا تتكشف بعض جوانب السرّ في اختلافها في لغة القرآن فقد جاء لفظ السنين في قوله: "تزرعون سبع سنين دأباً" وقوله: "ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد". أي سبع سنين، لأن المقام مقام شدة ومعاناة وتقتير في الأوقات وتضييق في الأرزاق يدلّ عليه السياق ويصرّح به المقال، ويحمل عليه حسن التدبّر لنسق العبارات: "تزرعون.. دأباً فما حصدتم فذروه.. إلا قليلاً مما تأكلون.. شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون". وهي عبارات تصور واقع المعاناة، وتكشف عن الجذب العام والقمحط الطويل.

أما لفظ العام فقد جاء في قوله: "ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون". لأنه مقام الفرج بعد الضيق، والرخاء بعد الشدة، والخصب العميم بعد الجذب والجفاف..

"وبهذا يتبين لنا أن المخالفة بين لفظيها مخالفة بيان واختلاف مقام لا مخالفة ترادف واختلاف تنويع في العبارات" (٣)

ومثل هذا، اختلاف التعبير بهما في قصة نوح، في الآية الكريمة:

"وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا" (سورة العنكبوت: ١٤). وكان مقتضى التناسب البلاغي في السياق يتطلب المطابقة بينها في أسلوب الاستثناء، فيقال (ألف سنة إلا خمسين سنة) .. وإنما خالف بينهما على هذا النحو، للدلالة على أنها زمانان متغايران وأن أيام لبثه عليه السلام في دعوة قومه كانت أيام معاناة ومشقة وجهاد، لاقى فيها أشد ألوان العنت والمخاصمة مما جعله يشكو إلى الله إصرارهم على الكفر، وعنادهم لدعوة الحق ويستصرخه: " قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَا قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْيِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا " (نوح: ٥-٧).

" قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي دَعَا قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْيِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا " (سورة نوح: ٢١-٢٢).

ولما اشتد عندهم وزاد ضلالهم قال: " وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا " (سورة نوح: ٢٦). مما يدل على أن أيامه معهم كانت سنين مشقة لا أعوام راحة ورخاء، ثم جاء الطوفان فاقتلع جذور الكفر وطهر وجه الأرض وعم السلام والأمان والرخاء فعاش عليه السلام أيامًا هي أعوام رخاء ووثام^(٣٣).

- أكل ... واقترس

يقول " الخطابي " في تفسيره لقوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: " وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّبُّ " سورة يوسف من آية ١٣.

وأن الافتراس معناه في فعل السبع القتل فحسب، أصل الفرس دق العنق، والقوم إنما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلاً، وأنه أتى على جميع أجزائه وأعضائه، فلم يترك مفصلاً ولا عظيماً، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم بإيهم بأثر باق يشهد على صحة ما ذكروه، فادعوا فيه الأكل، ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة، والفرس لا يعطي تمام هذا المعنى، فلم يصلح على هذا أن يعبر عنه إلا بالأكل^(٣٣).

- البث ... والحزن

فقد جاء في قصة يوسف لفظ البث معطوفاً على الحزن، في قوله تعالى: " قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ " (سورة يوسف: ٨٦). ولدقة الفرق بينهما عدّهما كثير من العلماء من المترادف الذي يختلف لفظه ويتحد معناه .

وأصل البثّ في اللغة: التفريق والانتشار^(٣٤)، ومنه في القرآن الكريم:

وَبَسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا " (سورة الواقعة: ٥-٦).

" يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ " (سورة القارعة: ٤)

فالبثّ: الهمّ الشديد سمّي بذلك لعدم قدرة صاحبه على تحمّله حين يجتمع ويتكاثف فيضيق الصدر به ويضعف العزم عن كتانه فيبثّه الناس، ويتخفّف إليهم منه .

أما " الحزن ": فأصله في اللغة الغلظ والخشونة، ومنه قيل للأرض الغليظة الصلبة حزن^(٣٥)، فالحزن: الهم الذي يسيطر على صاحبه ويستولى عليه الأيام والليالي حتى يعجز عن معالجته ونسيانه، وسمّي بذلك لغلظه وتأبيه على السلوان .. وهو معنى في الهمّ غير معنى البث، وعطفه في الآية عطف تغاير لا عطف ترادف .. والقصد من ذكرهما معا الجمع بين نوعي الهم للدالة على أن " يعقوب " عليه السلام إنما يفرّج إلى الله وحده في كل أحواله ويشكو له وحده أنواع همومه: الحزن القديم الذي تسلط واشتد وازداد مع الأيام صلابة وغلظاً، لا يلين مع الزمن ولا ينقاد للنسيان، والبث الجديد الذي نما وتزايد حتى ملأ الصدر على رحابته وضاق به الصبر على سعته، فلم يجد له حيلة ولم يستطع له علاجاً إلا أن يبثّه إلى الله ويستعين به عليه^(٣٦)

- الخشية ... والخوف

يقول " الزركشي ": لا يكاد اللغوي يفرّق بينهما، ولا شك أن الخشية أعلى من الخوف، وهى أشد الخوف، فإنها مأخوذة من قولهم: شجرة خشية إذا كانت يابسة

وذلك فوات بالكلية، والخوف من قولهم: ناقة خوفاً، إذا كان بها نقص وليس بفوات .. وفُرق بينهما أيضاً بأن الخشية تكون من عظم المخشي وإن كان الخاشي قوياً، والخوف يكون من ضعف الخائف، وإن كان المخوف أمراً يسيراً، ويدل على ذلك أن الخاء والشين والياء في تقاليبها تدل على العظمة، قالوا: شيخ للسيد الكبير، والخيش لما عظم من الكتان، والحاء والواو والفاء في تقاليبها تدل على الضعف^(٣٧)

و" لأبى هلال " رأى في الفرق بين الكلمتين يذهب فيه إلى أن الخوف: يتعلق بالمكروه وبترك المكروه، والخشية تتعلق بمنزل المكروه ولا يسمّى الخوف من نفس المكروه خشية ولهذا قال تعالى: " وَيَحْشُونَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ " (الرعد: ٢١) .. وقال تعالى على لسان " هارون " عليه السلام: " إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ " (طه: ٩٤)، وذلك لأنه خشى القول المؤدى إلى الفرقة، والمؤدى إلى الشيء بمنزلة من يفعله^(٣٨).

إذا فالخوف في رأى " أبى هلال "، إنما يكون مع التوقع والترقب في موقف مجهول النتائج ظني الاحتمالات، وعليه تكون الخشية خاصة بالحالة التي تصاحب الضرر المتيقن والخطر المشهود، أي أن الخوف: شعور يتعلق بالضرر المنتظر، والخشية: حالة تنشأ عند وقوع الضرر المنظور .

وهذا الذي أشار إليه " أبو هلال " في معنى الخوف أشار إليه الراغب في تفسير قوله تعالى: " إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ " (سورة فاطر: ٢٨) . فقال: عبر بالخشية في جانب العلماء لتيقنهم بعظمة الله وعلمهم بجلاله، ومثله: " مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ " (سورة ق: ٣٣) أي خاف خوف المتيقن العالم^(٣٩) .

وهذه الملاحظات الدقيقة في الفرق بين دلالتيهما معتبرة في الآيات التي تعرضت لذكرهما في القصص الآتية:

أ- قصة " موسى وعبوره البحر " : في قوله تعالى: " وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تُخْشَى " (طه: ٧٧).

ففي جانب توقع الخطر من لحاق فرعون بهم وإيقاعه بهم قال له: (لاتخاف) بشارة له بالأمان والنجاة وأنه لا يقع له مجرد الشعور بالخوف من أن يدركه فرعون ويؤذيه، وليشعره بأن أمر فرعون هين وخطره ضعيف ..

وفي جانب خطر الغرق قال (ولاتخشى) لأن الشعور بالخطر عند قوم يسيرون وسط الماء أمر عظيم وخطر ومتيقن منظور، فكان التعبير بقوله (ولاتخشى) تعبيراً مناسباً ليقطع كل مظاهر الخوف من نفوسهم، ولذا حذف المخشى لتذهب النفس فيه كل مذهب، فلا يترك له مصدراً يخشاه ..

ب- وقوله تعالى في قصة "يوسف": "وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ" (سورة يوسف: ١٣)، حيث عبر بالخوف دون الخشية ليفيد أن ذلك إنما كان منه على سبيل التوقع والشك لا على سبيل التيقن والجزم .

ج- وقوله تعالى في قصة "موسى والعبد الصالح": "وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا" (الكهف: ٨٠).

عبر بالخشية دون الخوف ليفيد أن ذلك إنما كان من العبد الصالح على أساس من علمٍ ويقينٍ لأن قتل النفس لا يقع لمجرد خوف من خطر ضعيف مظنون (").

- الحية .. والجان ... والشعبان

فقد وصف القرآن بها عصا موسى عليه السلام في مقامات مختلفة .. وملحظ التدبير أن المشبه فيها شيء واحد والمشبه به شيء واحد كذلك، اختلفت أسماؤه اختلاف ترادف لا اختلاف تباين .. وبدهي أن هذا الاختلاف يتوافق مع الاختلاف في جهة الإلحاق المرادة في ملمح التشبيه ..

فالحية: اسم لما عظم من الأفاعي، واشتقاقه من الحياة أو من التحوي بمعنى التجمع والتلوي، ومنه سميت المعى حوايا لتجمعها والتوائها .. وقد شبهت عصا موسى بالحية لاكتساب هذه المعاني في قوله تعالى: "وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى" (طه: ١٧-٢٠).

فهذه هي الحالة الأولى التي يتعرف موسى عليه السلام على مظهر المعجزة في عصاه، وقد أراد الله أن يطلعه على هذا السرّ ليكون على خبر منه، فهي ليست عصا يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه، وإنما هي معجزة رسالة وبرهان رسول، فقد كانت في يمينه عصا جافة ميتة فإذا هي تتحول بقدرة الإعجاز إلى حياة تتحرك ومخلوق يسعى ..

" وإذا تدبّرنا لفظ " حية " أوحى لنا بالمقابلة المستورة بينها وبين كلمة " عصا " وهي مقابلة تقوم برهاناً على الإعجاز حين تصور لنا مظاهر الموت في العصا مشاهد حياة تتحرك وتسعى .. وبهذا يكون لفظ " حية " أصدق الأسماء الثلاثة تعبيراً عن معناه في مقام السياق " (١٠) .

أما لفظ " جان "، فقد جاء يلائم مقامه في قوله تعالى: " وَأَلْقَى عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا " (النمل: ١٠ ؛ القصص: ٣١) .

إن الجان اسم لما دقّ من الأفاعي وخف، وهو في تصاريفه يدور حول معاني الخفة والرشاقة المصحوبة بالعجب والخيلاء (١١)، ولهذا جاء مناسباً لكلمة " تهتز " في التشبيه ليعطى التصور الدقيق لحركة العصا حين تحولت إلى أفعى دقيق الجسم خفيف الحركة يتراقص في استعراض للرشاقة يأخذ بالألباب (١٢) .

ثم يأتي لفظ " ثعبان " في موضعه من قوله تعالى: " فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ " (سورة الأعراف: ١٠٧ ؛ الشعراء: ٣٢) . وهو لفظ يدل على تفجّر الحركة وسرعة انسيابها وأصله من ثعب الماء إذا تفجّر وانساب، وهو أيضاً يدل على معنى الضخامة والفخامة، ومنه قيل: الأثعبان للوجه الضخم، وبه سُمّي الثعبان لضخامته .

فلفظ " ثعبان " بدلالته على هذه المعاني أنسب الأسماء الثلاثة بالبيان في المقام الذي جاء فيه، وهو مقام تحدّ ونزال جمع فيه فرعون الأجناد، وحشد له السحرة والحواة فسحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم، وقال لموسى متحدياً: إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين، فألقى موسى عصاه

فتحولت إلى ثعبان ضخّم مهول ينساب في حركة سريعة وانقضاض خاطف فليلقف ما يَأفكون، وبهذا تصدق الآية وتحقق المعجزة ويقول السحرة آمناً بربّ العالمين .

فالموقف على هذا النحو من التأزم والشدة لا يناسبه إلا أن تكون العصا على هيئة الثعبان ضخامة منظر، وسرعة انقضاض وقوة افتراس ليتحقّق جوّ الرعب والرهبّة فتكون الغلبة ويتأكد المعجز^(١١٠).

وهكذا يكون كل واحد من الأسماء الثلاثة قد جاء تعبيراً دقيقاً يصور حالة خاصة في مقام خاص ولو أن واحداً من هذه الأسماء الثلاثة جاء في موضع صاحبه لاختل هذا التناسب المحكم البديع .

وهكذا يتأكد لنا من هذا البيان الواضح من لغة القصص القرآني بما لا يدع مجالاً للشك أن لغة القرآن لا تقرّ الترادف بمعناه العام، وإنما تحتفظ لكل لفظة منه بمقامها الخاص ومعناها المميز، الأمر الذي يجعل من ألفاظه مهما ترادفت وتقاربت ذوات مستقلة لاتتمثل ولا تتكرّر ولا تتبادل مواضعها في الدلالة أو السياق .

جـ - مشاكلة اللفظ للمعنى:

من الأسرار التي استدعت انتباه الباحثين ما اصططح على تسميته بمشاكلة اللفظ للمعنى، فالمعنى إذا كان جزلاً كان اللفظ كذلك وإن كان " الزركشى " في البرهان يعكس القضية حين يقول: " ومتى كان اللفظ جزلاً كان المعنى كذلك " (١١١) ... والأمثلة التي توضح لنا هذه المشاكلة كثيرة، وسنعرض منها ما هو خاص بالقصة القرآنية:

١ - يقول الله تعالى في قصة عيسى عليه السلام: " إِنَّ مَثَلْ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ " (آل عمران: ٥٩). ولم يقل من " طين " كما أخبر به سبحانه في غير موضع: " إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ " (سورة ص: ٧١) . إنما عدل عن الطين الذي هو مجموع الماء والتراب إلى ذكر مجرد التراب لمعنى

لطيف، وذلك أنه أدنى العنصرين وأكثرهما، لما كان المقصود مقابلة من ادعى في المسيح الإلهية أتى بما يصغر أمر خلقه عند من ادعى ذلك، فلهذا كان الإتيان بلفظ التراب أمس في المعنى من غيره من العناصر، ولما أراد سبحانه الامتنان على بنى إسرائيل أخبرهم أن يخلق لهم من الطين كهيئة الطير، تعظيماً لأمر ما يخلقه بإذنه، إذ كان المطلوب الاعتداد عليهم بخلقه ليعظموا قدر النعمة به .

ومنه قوله تعالى: " وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ " (سورة النور: ٤٥). فإنه سبحانه إنما اقتصر على ذكر الماء دون بقية العناصر، لأنه أتى بصيغة الاستغراق، وليس في العناصر الأربع، ما يعم جميع المخلوقات إلا الماء، ليدخل الحيوان البحري فيها ..

٢ - قوله تعالى في قصة يوسف: " قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ " (يوسف: ٨٥) .. لقد نقلت الآية مواقف غريبة، وقفها أبناء يعقوب من أبيهم وأخويهم، فقد ألقوا " يوسف " في الجب وجاءوا على قميصه بدم كذب، وجاءوا أباهم عشاء يبكون، وكذبوا على أبيهم، ونالوا منه، واتهموا أخاهم بالسرقة، وجاءوا أباهم يزفون إليه خبر اتهامه مستشهرين بأهل القرية، فسكت الأب على ألم ومضض، وتولى عنهم وتذكر يوسف وتأسف عليه، وبكى حتى فقد بصره .. وقد حملت الآية هذه الغرابة من جهات كثيرة:

أ- ف "تاء" القسم أغرب أدوات القسم وهي لا تجيء إلا في المواقع الغربية على عكس الواو والباء .

ب- و "كان" أكثر استعمالاً من "فتى"، وفتى لا تستعمل بدون "ما" وحيثما بدونها غريب أيضاً

ج- - وقد أتت الآية بأغرب ألفاظ الهلاك، وهو "الحرض" .. فمواقف بنى إسرائيل الغربية حملتها الألفاظ التي جاءت غريبة من حيث مجيء القسم بالتاء دون الواو والباء، ومجيء "فتى" دون "كان" واستعمالها بدون "ما"، وكذلك التعبير "بالحرض" دون الهلاك^(٤٦)

والعرب يعرفون هذا الضرب من الكلام، وله نظائر في لغتهم، وكم من لفظه غريبة عندهم لا تحسن إلا في موضعها، ولا يكون حسنهما على غرابتها إلا أنها تؤكد المعنى الذي سبقت له بلفظها وهيئة منطقتها، فكأن في تأليف حروفها معنى حسياً، وفي تألف أصواتها معنى مثله في النفس..

٣- ومن الألفاظ التي لم يستخدمها القرآن لفظة (الآجر) وليس فيها من خفة التركيب إلا الهمزة، وسائرهما نافر متقلقل لا يصلح مع هذا المدّ في صوت ولا تركيب على قاعدة نَظْم القرآن، فلما احتاج إليها لفظها ولفظ مرادفها وهو (القرمد) وكلامها استعمله فصحاء العرب ولم يعرفوا غيرهما، ثم أخرج معناها بالطف عبارة وأرقها وأعدّها. وساقها في بيان مكشوف يفضح الصبح، وذلك في قوله تعالى: " وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أُطْعَمُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ " (سورة القصص: ٣٨).. فلننظر هل نجد في سرّ الفصاحة وفي روعة الإعجاز أبرد أو أبداع من هذا؟ لننظر ونتأمل كيف عبر عن الآجر بقوله: " فأوقد لي ياهامان على الطين " ولننظر موقع هذه القليلة التي هي في الدال من قوله (فأوقد) وما يتلوها من رقة اللام، فإنها في أثناء التلاوة مما لا يطاق أن يعبر عن حسنه، وكأنها تنتزع النفس انتزاعاً..

وليس الإعجاز في اختراع تلك العبارة فحسب، ولكن ما ترمي إليه إعجازاً آخر، فإنها تحقر شأن فرعون، وتصف ضلاله، وتسفه رأيه، إذ طمع أن يبلغ الأسباب، أسباب السماوات فيطلع إلى إله موسى، وهو لا يجد وسيلة إلى ذلك المستحيل ولو نصب الأرض سلماً، إلا شيئاً يصنعه هامان من الطين^(١٧).

٤- وما يشذ في القرآن الكريم حرف واحد عن قاعدة نظمه المعجز، حتى أننا لو تدبرنا الآيات التي لا نقرأ فيها إلا ما يسرده من الأسماء الجامدة، وهي بالطبع فطنة أن لا يكون فيها شيء من دلائل الإعجاز، فإننا نرى إعجازها أبلغ ما يكون في نظمها وجهات سردها، ومن تقديم اسم على غيره أو تأخيره عنه، لنظم حروفه

ومكانه من النطق في الجملة، أو لنكتة أخرى من نكت المعانى التي وردت فيها الآية بحيث يوجد شيئاً فيما ليس فيه شيء، ولنتأمل قوله تعالى في قصة " ضربات مصر ": " فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدمَّ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ " (سورة الأعراف: ١٣٣).

فإنها خمسة أسماء، أخفها في اللفظ (الطوفان والجراد والدم) وأثقلها (القمل والضفادع) فقدّم (الطوفان) لمكان المدّين فيها، حتى يأنس اللسان بخفتها، ثمّ (الجراد) وفيها كذلك مدّ، ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدئاً بأخفها في اللسان وأبعدها في الصوت لمكان تلك الغنة فيه، ثم جئ بلفظة (الدم) آخرأ، وهى أخفّ الخمسة وأقلها حروفاً، ليسرع اللسان فيها ويستقيم لها ذوق النظم ويتم بها هذا الإعجاز في التركيب " (٤٨) .

٥ - ولما كان الأصل في نظم القرآن أن تعتبر الحروف بأصواتها وحركاتها وموقعها من الدلالة المعنوية، استحال أن يقع في تركيبه ما يسوغ الحكم في كلمة زائدة أو حرف مضطرب أو مايجرى مجرى الحشو والاعتراض، ومن الكلمات التي يقول النحاة أنها زائدة قوله تعالى في قصة يوسف: " فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا " (سورة يوسف: ٩٦) ، فإن النحاة يقولون إنها " أن " زائدة، أى في الأعراب، فيظن أنها كذلك في النظم ويقاس عليها، مع أن في هذه الزيادة لونا من التصوير، لو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته، فإن المراد هو تصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف ومجيئه، كبعد ما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام، وأن ذلك كأنه كان منتظراً بقلق واضطراب تؤكدهما، وتصف الطرب لمقدمه واستقراره، غنة هذه النون في الكلمة الفاصلة، وهى " أن " في قوله: " أن جاء " (٤٩) .

ومنه: " مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ " (سورة الأعراف: ١٢)، بدليل الآية الأخرى: " مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ " (سورة ص: ٧٥)، ليس المعنى: ما منعك من ترك السجود؟ فإنه ترك، فلا يستقيم التويع عليه .. وقيل: ليست بزائدة من وجهين:

. أحدهما: أن التقدير ما دعاك إلى ألا تسجد؟ لأن الصارف عن الشيء داعٍ إلى تركه، فيشتركان في كونها من أسباب عدم الفعل.

الثاني: أن التقدير ما منعك من ألا تسجد .

وهذا أقرب مما قبله، لأن إبقاء المنع على أصله، وعدم زيادتها أولى لأن حذف حرف الجر مع " أن " كثير كثرة لاتصل إلى المجاز، والزيادة في درجتها .. بالإضافة إلى أن في زيادتها تأكيد الإثبات، فإن وضع " لا " نفي ما دخلت عليه، فهي معارضة للإثبات، ولا يخفى أن حصول الحكم مع المعارض أثبت مما إذا لم يعترضه المعارض ؛ أو أسقط معنى ما كان من شأنه أن يسقط (٥٠)

بهذا الذي قدمنا ونحوه مما أمسكنا عنه ولم نستقص في أمثلته لأنه أمر مطرد - بالإضافة إلى ما لم نُحط به خُبراً - نعرف أن القرآن على العموم - والقصص فيه على الخصوص - أعجز في اللغة بطريقة النظم وهيئة الوضع .. فكل كلمة منه ما دامت في موضعها فهي من بعض إعجازه، ومن هنا ينساق بنا الكلام إلى القول في النوع الثالث:

ثالثاً: الجمل وتركيبها:

الجملة هي مظهر الكلام، وهي الصورة النفسية للتأليف الطبيعي، إذ يُجمل بها الإنسان هذه المادة المخلوقة في الطبيعة، إلى معان تصوّرها في نفسه أو يصفها؛ تري النفس هذه المادة وتحسّها . علي حين قد لا يراها المتكلم الذي أهدفها لكلامه غرضاً، ولكنه بالكلام كأنه يراها.. هذا من ناحية التأليف عند البشر، أما في القرآن عندما ننظر إلى جملته القصصية من جهة تركيبها، نجد أنه انتظم أسباب الإعجاز من الصوت في الحرف، إلى الحرف في الكلمة، إلى الكلمة في الجملة، حتى يكون الأمر مقدراً علي تركيب الحواس النفسية في الإنسان تقديراً يطابق وضعها وقواها وتصرفها، وذلك إيجاد خلقي لا قبيل للناس به ولم يتهيأ، إلا في هذه العربية عن طريقة المعجزة التي لا تكون معجزة حتى تحرق العادة، وتفوت المؤلف وتعجز الطوق، وإنما امتنع أن يكون في مقدور الخلق، لأنه تفصيل للحروف على النحو

الذي يأخذه فيه تركيب الحياة من تناسب الأجزاء في الدقيق والجليل، وقيام بعضها ببعض لا يغني منها شيء عن شيء في أصل التركيب وحكمته .. وروح التركيب هذه، لم تعرف قط في كلام عربي غير القرآن، وبها انفرد نَظْمُه وخرج مما يطيقه الناس ولولاها لم يكن بحيث هو كأنها وضع جملة واحدة ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين، إذ نراه ينظر في التركيب إلى نَظْمِ الكلمة وتأليفها، ثم إلى تأليف هذا النَظْمِ: فمن ههنا تعلق بعضه على بعض، وخرج في معنى تلك الروح صفة واحدة، هي صفة إعجازه في جملة التركيب، وإن كان فيها وراء ذلك متعدد الوجوه التي يتصرف فيها من أغراض الكلام ومناحي العبارات على جملة ما حصل به من جهات الخطاب^(١٠٠). كالمواعظ والحكم والتعليم، وضرب الأمثال، هذا غير القصص القرآني الذي لا تخلو قصة من قصصه إلا وضمير الجلالة للمتكلم يجرسها ويحميها من فطنة أن تكون من كلام أحد غير الله سبحانه .

" وإذا كان علماء المعانى يجعلون البلاغة درجات فإنهم مقرّون دون جدال أن صياغة العبارة القرآنية في الطرف الأعلى من البلاغة الذي هو الإعجاز عينه"^(١٠١)... حقيقة أن القرآن كان علم البلاغة عند العرب، ثم صار بعدهم بلاغة هذا العلم.. إذاً لا يحق القول إن القرآن جاء بالاستعارة أو بالمجاز لأنه مجاز، أو بالكنية لأنها كناية، أو ما يطرد مع هذه الأسماء والمصطلحات إنما أريد به وضع معجز في نسق ألفاظه، وارتباط معانيه على وجوه السياستين من البيان والمنطق، فجري على أصولهما في أرقى ما تبلغه الفطرة اللغوية على إطلاقها في هذه العربية، فهو يستعير حيث يستعير، ويتجوّز حيث يتجوّز، ويطنب ويوجز ويؤكد ويعترض ويكرّر إلى آخر ما أحصي في البلاغة ومذاهبها، لأنه لو خرج عن ذلك لخرج من أن يكون معجزاً في جهة من جهاته ولاستبان فيه ثمة نقص يمكن أن يكون في موضعه ما هو أكمل منه وأبلغ في القصد والاستيفاء، فما البلاغة كلها إلا بعض الوسائل في التنبية إليه، فهي تعطى القدرة على النظر والفهم ولكنها لا تعطى بمقدار ذلك في العمل والصنعة، ولذلك سوف نُجمل تفصيلاً أو نشير إلى بعض الوجوه المعجزة في لغة القصة القرآنية من الناحية البلاغية، فالقرآن الكريم ليس كتاباً يتخير منه فيستجداد

بعضه، ويفصح عن بعضه، إنما هو وحى بمعانيه وألفاظه، فهو بائن بنفسه من الكلام الإنساني، ولا بد أن يكون فائدة للناس كافة ليعملوا، وصادقا على الناس كافة ليستفيدوا، ومعجزاً للناس كافة ليصدقوا^(٥٣).

الإعجاز في بلاغة الجملة في القصة القرآنية:

١- الإجمال:

وله وجهاته الكثيرة في تركيب الجملة منها:

أ- أن يعرض من ألفاظ مختلفة مشتركة وقعت في التركيب، كقوله تعالى في قصة موسى: "وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً" (سورة القصص: ٢٣). بمعنى الجماعة، وفي قوله عن إبراهيم عليه السلام: "إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً" (سورة النحل: ١٢٠) بمعنى الرجل الجامع للخير المقتدى به. وبمعنى الدين في قوله تعالى: "إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ" (الزخرف: ٢٢). وبمعنى الزمان في قوله تعالى: "وَأَذَكَّرَ بَعْدَ أُمَّةٍ" (يوسف: ٤٥).

ب- حذف في الكلام: كقوله تعالى في قصة قوم صالح: "وَأْتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً" (سورة الإسراء: ٥٩)، أي آية مبصرة، فظلموا أنفسهم بقتلها، وليس المراد أن الناقة كانت مبصرة لا عمياء ..

ج- من جهة عدم استعماله الآن: كقوله تعالى في قصة صاحب الجنتين: "فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ" (سورة الكهف: ٤٢) أي نادماً.

د- من جهة التقديم والتأخير: كقوله تعالى في قصة إبراهيم: "حَتَّىٰ تُوْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ" (سورة الممتحنة: ٤)، معناه "قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم .. وهناك ما قدم والنية به التأخير مثل قوله تعالى في قصة: إبراهيم والملائكة: "فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتِ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا

بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ " (سورة هود: ٧٠-٧٢). وكان لهذا التقديم وجهان:

أحدهما: يعتمد علي التفسير اللغوي وهو: ضحكت المرأة. حاضت وقد اعتمد البعض عليه في تفسير الآية. وقيل أصله: فبشرناها بإسحاق فضحكت: أي حاضت بعد الكبر عند البشري، فعادت إلى عادات النساء من الحيض والحمل والولادة^(٥٦).

والثاني: يعتمد علي التفسير النفسي: فقد روى " الأزهري " عن " الفراء " في تفسير هذه الآية: لما قال رسل الله عز وجل لعبدته وخليله إبراهيم: لا تخف، ضحكت عند ذلك امرأته، وكانت قائمة عليهم، وهو قاعد، ضحكت فبشرت بعد الضحك بإسحاق، وإنما ضحكت سروراً بالأمن، لأنها خافت كما خاف إبراهيم^(٥٧) ويقول الأستاذ العقاد: هنا خوف فاطمئنان فبشرى مفاجئة على غير انتظار، فتعجب . لا تملك سارة أن تجهر به. فتقول: إن هذا لشيء عجيب ...

ويقول إن كل عوامل الضحك النفسية التي ظهرت للباحثين النفسانيين في تفسيراتهم - تعرضها هذه الآية الكريمة على نسقها المتتابع فتأتي بالضحك حيث يأتي الضحك مطرداً في مواضعه المختلفة من تحوّل الشعور: طمأنينة بعد خوف، ومعرفة بعد نكران، وبشارة بما ليس في الحسبان من الولادة وبعد سنّ اليأس وخيبة الأمل في الذرية زمناً طويلاً تعتلج فيه النفس بأشتات من دواعي الحزن والغراء والغيرة والتسليم .. ولا تغني هنا كلمة " سرّت "، أو " كلمة " استبشرت " أو " فرحت "، في مكان كلمة " ضحكت " . فإن الضحك هو الأثر الملائم لهذه الحالة التي تشابكت فأصبحت في قرارة النفس حالات متناقضات^(٥٨)

٢ - تنوع أسلوب الخطاب: ويأتي على أوجه كثيرة منها:

أ - خطاب النوع: نحو " يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ " (سورة البقرة: ٤٠)، والمراد " أبناء يعقوب " من الكتابيين ولم يذكروا في القرآن إلا بهذا، دون " يابني يعقوب " . وسره أن القوم لما حُوطبوا بعبادة الله، وذكروا بدين أسلافهم، موعظة لهم وتنبهاً من

غفلتهم، سُمّوا بالاسم الذي فيه تذكرة بالله، فإن "إسرائيل" اسم مضاف إلى الله سبحانه في التأويل، ولهذا دعا النبي صلى الله عليه وسلم قوماً إلى الإسلام يقال لهم: "بنو عبدالله"، قال: "يا بنى عبدالله"، إن الله قد حسن اسم أبيكم "يخبرهم بذلك على ما يقتضيه اسمه من العبودية . ولما ذكر موهبته وتبشيره به قال: "يعقوب"، وكان أولى من إسرائيل، لأنها موهبة تعقب أخرى، وبشرى عقب بها بشرى فقال: "فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ" (سورة هود: ٧١)

وإن كان اسم يعقوب عبرانياً، لكن لفظة موافق للعربي، من العقب والتعقيب . والمعجزة هنا في مشاكلة الاسمين للمقامين .

وكذلك قد يكون للشخص اسمان، فيقتصر على أحدهما دون الآخر لمقصد . ومنه قوله تعالى على لسان عيسى: "وَمُبَشَّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ" (الصف: ٦) ولم يقل "محمد"، لأنه لم يكن محمداً حتى كان أحمد، حمد ربه، فنبأه وشرّفه، فلذلك تقدّم على محمد فذكره عيسى به . ومنها أن "مدين" هم أصحاب الأيكة، إلا أنه سبحانه حين أخبره عن مدين قال: "أَخَاهُمْ شُعَيْبًا" (هود: ٨٤)، . وحيث أخبر عن الأيكة لم يقل "أخوهم": "كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ" (الشعراء: ١٧٦)، "وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ" (الحجر: ٧٨). "وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ" (سورة ص: ١٣)، "وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ" (سورة ق: ١٤)، والحكمة فيه أنه لما عرفهم بالنسب، وهو أخوهم في ذلك النسب ذكره، ولما عرفهم بالأيكة التي أصابتهم فيها العذاب لم يقل أخوهم، وأخرجه عنهم .

ومنه "وذا النون" (الأنبياء: ٨٧)، فأضافه إلى الحوت والمراد "يونس" وقال في سورة القلم: "وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ" (القلم: ٤٨)، والإضافة "بذي" أشرف من الإضافة "بصاحب"، ولفظ "النون" أشرف من "الحوت" ولذلك وجد في حروف التهجي، كقوله: "ن وَالْقَلَمِ" (القلم: ١) . وقد قيل قسم وليس في الآخر ما يشرّفه بذلك ^(٥٧) .

ب - خطاب الاثنين بلفظ الواحد :

كقوله تعالى في قصة موسى: " قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى " (سورة طه: ٤٩)،
أي " وهارون " وفيه وجهان:

أحدهما: أنه أفرد موسى عليه السلام بالنداء بمعنى التخصيص والتوقف إذ كان
هو صاحب عظيم الرسالة وكريم الآيات .

والثاني: لما كان هارون أفصح لساناً منه، على ما نطق به القرآن ثبت عن جواب
الخصم الألد . ومثله في قصة آدم: " فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى " (سورة طه:
١١٧) . وفيه أيضاً وجهان:

أحدهما: إنها أفردته بالشقاء من حيث كان المخاطب أولاً والمقصود في الكلام .

والثاني: لأن الله جعل الشقاء في معيشة الدنيا في حيز الرجال، ويحتمل الاغضاء
عن ذكر المرأة ولهذا قيل: من الكرم ستر الحرم ..

وقوله: " فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ " (الشعراء: ١٦)، فهما اثنان
ولكنهما يذهبان في مهمة واحدة برسالة واحدة . فهما رسول رب العلمين^(٥٨) .

وقوله تعالى في قصة آدم: " فَتَابَ عَلَيْهِ " (البقرة: ٣٧) . ولم يقل " عليهما " اكتفاء
بالخبر عن أحدهما بالدلالة عليه^(٥٩) .

ج - خطاب الجمع بعد الواحد :

كقوله تعالى في قصة موسى: " وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ
بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ " (يونس: ٨٧) . فثنى في
الأول، ثم جمع ثم أفرد، لأنه خوطب أولاً موسى وهارون، لأنها المتبوعان، ثم
سبق الخطاب عاماً لهما ولقولهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها، لأنه واجب عليهم، ثم
خصّ موسى بالبشارة تعظيماً له ...

كقوله تعالى في قصة صالح لما هلك قومه: " فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَأَنْجِبُونَ النَّاصِحِينَ " (الأعراف: ٧٩).
خاطبهم بعد هلاكهم، إما لأنهم يسمعون ذلك كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بأهل بدر وقال: " والله ما أنتم بأسمع منهم "، وإما للاعتبار كقوله: " قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا " (سورة العنكبوت: ٢٠) .

٣ - الكناية:

أ - إن للقرآن الكريم في قصصه المثل الأعلى والمنزلة التي تعجز عنها أساليب الأدباء، ومعلوم أن لكتاب الله تعالى غاية أخلاقية لها مكانها البارز بين الغايات السامية التي يحققها ذلك الكتاب المعجز، وإذا كان هذا شأنه فلا بد من أن تتفق ألفاظه وأساليبه وصوره البيانية مع هذه الغاية، وهذا يفسر لنا خلوه تماماً من كل ما يجرح الذوق أو يחדش الحياء، أو يتعارض مع التربية الخلقية التي يغرسها ذلك الكتاب الكريم في النفوس المؤمنة ... فلننظر إلى الأدب العالي والذوق الرفيع، وصور الكناية التي تؤدي الغرض أداءً أبلغ من التصريح، في قصة يوسف وامرأة العزيز حيث توالى الكنايات وأخذ بعضها بعناق بعض، لأن الحقائق المعبر عنها بها مما يجب ستره وتغطيته، فأدت الكناية دورها أبلغ أداء: " وَرَأَوْنَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ " (يوسف: ٢٣) . فقد كنى بالمرادة عن الفحشاء التي طلبتها هذه المرأة منه، وقد عبر عن هذا المعنى بعبارة مهذبة أغنت عن القبيح^(١) .

ومن لطيف الكنايات وأحسنها قوله تعالى في القصة عن مريم " وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا " (سورة الأنبياء: ٩١) . وهي كناية عن فرج القميص، أي لم يعلق ثوبها ريبة، فهي طاهرة الأثواب، وفروج القميص أربعة: الكتمان، والأعلى، والأسفل، وليس المراد غير هذا، فقد أخطأ من توهم هنا الفرج الحقيقي، فإن القرآن أنزه معنى، وألطف إشارة، وأملح عبارة من أن يريد ما ذهب إليه وهم الجاهل، لاسيما والنفخ من روح القدس بأمر القدوس، فأضيف القدس إلى القدوس، ونزّهت

القائنة المطهرة عن الظن الكاذب والحدس^(١١) .. إذا فإحصان الفرغ هنا رمز للطهارة، وإيحاء لعفة، وإشارة إلى تكامل الأنموذج الإنساني، في أم عيسى عليهما السلام .

ب - ومن صور الكناية في القصة القرآنية " التعريض والتلويح "، وأما التعريض: فإنه الدلالة على المعنى عن طريق المفهوم، وسُمي تعريضاً لأن المعنى باعتباره يُفهم من عرض اللفظ، أي من جانبه، ويسمى التلويح، لأن المتكلم يلوح منه للسامع ما يريده، كقوله تعالى في قصة " إبراهيم " قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ " (الأنبياء: ٦٣)، لأن غرضه بقوله: " فَاسْأَلُوهُمْ " على سبيل الاستهزاء، وإقامة الحجة عليهم بما عرض لهم به، من عجز كبير الأصنام عن الفعل، مستدلاً على ذلك بعدم إجابتهم إذا سُئلوا، ولم يرد بقوله: " بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا "، نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم، فدلالة هذا الكلام عجز كبير الأصنام عن الفعل بطريق الحقيقة .

ج - ومن صور الكناية في القصة القرآنية أيضاً: التوجيه، وهو ما احتمل معنيين ويؤتى به عند فطنة المخاطب، كقوله تعالى في قصة ميلاد موسى " فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ " (القصص: ١٢)، فإن الضمير في (له) يحتمل أن يكون لموسى، وأن يكون لفرعون . وبهذا تخلصت أخت موسى من قولهم: (أنك عرفته)، فقالت: أردت: " ناصحون للملك " والرد على من اعترض عليه بأن هذا في لغة العرب لا في كلامها، أن الحكاية مطابقة لما قالته؛ وإن كانت بلغةٍ أخرى^(١٢)

٤ - الإيضاح بعد الإبهام: ليرى المعنى في صورتين، أو ليكون بيانه بعد التشوّف إليه: لأنه يكون ألدّ وأشرف عندها، وأقوى لحفظها وذكرها، كقوله تعالى في قصة موسى: " وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْنَهَا بَعْشَرَ فَمَتَّ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً " سورة الأعراف من آية ١٤٢، وأعاد قوله: " أربعين " وإن كان معلوماً من " الثلاثين " و " العشر " أنها أربعون . لنفي اللبس، لأن العشر لما أتت بعد الثلاثين، التي هي نص

في المواعدة دخلها الاحتمال أن تكون من غير المواعدة فأعاد ذكر "الأربعين" نفيًا لهذا الاحتمال، وليعلم أن جميع العدد للمواعدة.

وإن قال قائل: إذا كان زمن المواعدة أربعين فلم كانت "ثلاثين" ثم عشرًا؟
أجاب ابن عساكر^(٣٣): بأن العشر إنما فصل من أولئك؟ ليتحدّد قرب انقضاء المواعدة، ويكون فيه متأهبًا مجتمتع الرأي، حاضر الذهن؛ لأنه لو ذكر "الأربعين" أولاً لكانت متساوية، فإذا جعل العشر فيها إتماماً لها استشعرت النفس قرب التمام، وتجدد بذلك عزم لم يتقدم..

ولكن المواعدة في سورة البقرة وردت أربعين ليلة ولم يفصل العشر منها: "وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً" (سورة البقرة: ٥١) .. وذلك لأنه قصد في "الأعراف" ذكر صفة المواعدة والإخبار عن كيفية وقوعها فذكر على صفتها، وفي "البقرة" إنما ذكر الامتنان على بنى إسرائيل بما أنعم به عليهم فذكر نعمه عليهم مجملة، فقال: "وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ" (البقرة: ٥٠)، "وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ" (البقرة: ٤٩).

٥ - الخروج على خلاف الأصل: فالأصل في الأسماء أن تكون ظاهرة، وأصل المحدث عنه كذلك . والأصل أنه إذا ذكر ثانياً أن يذكر مضمراً للاستغناء عنه بالظاهر السابق، والخروج على الأصل في تركيب الجملة القصة القرآنية له مقاصد عظيمة منها:

أ - قصد التعظيم: كقوله تعالى في قصة صاحب الجنتين: "لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا" (الكهف: ٣٨)، فأعاد ذكر "الرب" لما فيه من التعظيم والهضم للخصم . ومثله في قصة مريم: "وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ" (آل عمران: ٣٧) .

ب - إزالة الإهانة والتحقير: كقوله تعالى في قصة موسى وفرعون: "وَكَذَلِكَ زَيْنَ فِرْعَوْنَ سَوْءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ" (غافر: ٣٧)

ج- إزالة اللبس حيث يكون الضمير يوهم أنه غير المراد: كقوله تعالى في قصة يوسف: " ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ " (يوسف: ٧٦)، إنما حسن إظهار الوعاء مع أن الأصل " فاستخرجها منه " لتقدم ذكره، لأنه لو قيل ذلك لأوهم عود الضمير على الأخ، فيصير كأنه الأخ مباشر لطلب خروج الوعاء، وليس كذلك لما في المباشرة من الأذى الذي تأباه النفوس، الآية، فأعيد لفظ الظاهر لنفي هذا ..

وإنما لم يضمم الأخ فيقال: " ثم استخرجها من وعائه " لأمرين:

أحدهما: أن ضمير الفاعل في " استخرجها " ليوسف عليه السلام، فلو قال " من وعائه " لتوهم أنه يوسف، لأنه أقرب مذكور فأظهر لذلك .

والثاني: أن الأخ مذكور مضاف إليه، ولم يذكر فيما تقدم مقصوداً، بالنسبة الإخبارية، فلما أحتج إلى إعادة ما، وأضيف إليه أظهره أيضاً

د - قصد العموم: كقوله تعالى في قصة " موسى والعبد الصالح: " حَتَّى إِذَا أَتَى أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلَهَا " (الكهف: ٧٧)، ولم يقل " استطعمهم " للإشعار بتأكيد العموم، وأنها لم يتركها أحداً من أهلها إلا استطعمها وأبى، ومع ذلك قابلهم بأحسن الجزاء، وفيه التنبيه على محاسن الأخلاق، ودفع السيئة بالحسنة .

وقوله تعالى في قصة يوسف: " وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ " (سورة يوسف: ٥٣)^(١١)، فإنه لو قيل: إنها لأمارة " لاقتضى تخصيص ذلك، فأتى بالظاهر ليدل على أن المراد التعميم، مع إنه برئ من ذلك بقوله بعده: " إلا مارحم ربي "، وقوله: " إن ربي غفور رحيم "، ولم يقل " إنه " إما للتعظيم وإما للاستلذاذ.

٥ - الاستثناء والاستدراك: ويبدو واضحاً في تركيب الجملة كقوله تعالى في قصة آدم: " فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ " (الحجر: ٣٠-٣١)، فإن فيه معنى زائداً على الاستثناء، هو تعظيم أمر الكبيرة التي أتى بها إبليس من كونه خرق إجماع الملائكة، وفارق جميع الملائكة الأعلى بخروجه مما دخلوا فيه من السجود لآدم ..

ومنه قوله تعالى في قصة نوح: " فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا " (العنكبوت: ١٤) فإن في الإخبار عن المدة بهذه الصيغة تهويلاً على السامع، ليشهد عذر نوح عليه السلام في الدعاء على قومه . وحكمة الإخبار عن المدة بهذه الصيغة تعظيم للمدة، ليكون أول ما يباشر السمع ذكر " الألف " واختصار اللفظ، فإن لفظ القرآن أحصر من تسعمائة وخمسين عاماً ولأن لفظ القرآن يفيد حصر العدد المذكور ولا يحتمل الزيادة عليه ولا النقص ..

٦ - الاحتراس: وهو أن يكون الكلام محتملاً لشيء بعيد فيؤتى بما يدفع ذلك الاحتمال مثل قوله تعالى على لسان النملة في قصة سليمان: " لَا يَخْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ " (النمل: ١٨) . فقوله: " وهم لا يشعرون " احتراس بَيِّن أن من عدل سليمان وفضل جنوده أنهم لا يحطمون نملة فما فوقها إلا بأن يشعرون بها . وقد قيل: إنما كان تبسم سليمان سروراً بهذه الكلمة منها، ولذلك أكد التبسم بالضحك، لأنهم يقولون: تبسم كتبسم الغضبان، لينبه على أن تبسمه تبسم سرور ..

وكذا قوله تعالى في قصة الطوفان: " وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " (سورة هود: ٤٤) فإن سبحانه ما أخبر بهلاك من هلك بالطوفان، عقبهم بالدعاء عليهم، ووصفهم بالظلم، ليعلم أن جميعهم كان مستحقاً للعذاب، احتراس من ضعف يوهم أن الهلاك بعمومه ربما شمل من لا يستحق العذاب، فلما دعا علي الهالكين، ووصفهم بالظلم علي استحقاقهم لما نزل بهم وحل بساحتهم، مع قوله أولاً: " وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ " (سورة هود: ٣٧) .

وأعجب احتراس وقع في القصص القرآني قوله تعالى مخاطباً لنبيه عليه الصلاة والسلام: " وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْتَ إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ " (القصص: ٤٤)

وقال عن موسى: " وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ " (سورة مريم: ٥٢)، فلما نفي سبحانه عن رسوله أن يكون بالمكان الذي قضى لموسى فيه الأمر عرف المكان

بالغربي، ولم يقل في هذا الموضع " الأيمن " كما قال " وندينه من جانب الطور الأيمن: أدباً مع النبي صلي الله عليه وسلم أن ينفي عنه كونه بالجاني الأيمن، أو يسلب عنه لفظاً مشتقاً من اليمن، أو مشاركاً لمادته، ولما أخبر عن موسى عليه السلام ذكر الجانب الأيمن تشريفاً لموسي، فراعى في المقامين حسن الأدب معها تعليماً للأمة، وهو أصل عظيم في الأدب في الخطاب^(١٥).

وعلى هذا نستطيع - بعد الذي قدمنا - أن نكتفي بهذه الإشارة من تلك الجزئيات المعدودة، من نواحي الإعجاز في باب القصص القرآني من ناحية البلاغة .. ذلك الإعجاز الذي منح اللفظ العربي امتداداً في المدلول، فأحدث ثورة لغوية لم تعرفها لغات البشر، ويمكن أن نلخص نواحي الإعجاز في نقاط ثلاث:

أولها: أنه قد حدث بتأثير كتاب علي لغة، وهو أمر لم يحدث في تاريخ الإنسان منذ عرف اللغة.

وثانيها: أن أساس التحدي في الإعجاز هو الكلمة بكل بنياتها، فقد نجد في القرآن كلمة علي حرف واحد، أفادت من الاستعمال القرآني تعدداً في المعني، وسعة في الاستعمال، وقد تكون علي حرفين وثلاثة، وأربعة، وخمسة، وهذا هو المقياس الكمي الذي وقفت عنده بنية الكلمة العربية المجردة.

وثالثها: قابلية اللفظ القرآني لتحمل المزيد من الدلالة، وهو بذلك يمنح العربية مرونة في الأداء ومواكبة لتطور العلم، وقدرة علي استيعاب حقائقه في كل جيل، ولا شك أن ذلك كله يضيف علي بيان القصص تأثير تركيبى عميق ... ندرك منه فصاحة الأسلوب وبلاغة العبارة وسمو المعني والمفهوم، وثراء الفكر والمضمون.

" ولا ننسى أن نذكر فوق ذلك ما قالته الأعرابية - حين أعجب بعض الناس ببعض شعرها - : (ما ترك لنا القرآن من بيان وهو يقول: " وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَحْزَنِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ " (سورة القصص: ٧) فقد جمع في آية واحدة بين أمرين ..

ونبيين وبشارتين)، هذا إلى أنها لم تعن بأن تشير في الآية إلى مصطلح القوم في لطف التصوير، وما تقتضيه الدقة في التعبير بالشرط وفي إثارة بعض أدواته علي بعض . وما تقتضيه الدقة في اختيار الفاصلة التي تساير أجراس السورة، أو أنغامها الموسيقية المتوترة " (١٧٠) .

ثانياً: الخصائص الأسلوبية:

ونقصد بالأسلوب تلك الطريقة التي يتم بها التركيب الأدبي للعناصر القصصية، ومما لا شك فيه أن القصة القرآنية تُعدّ أول قصة ملتزمة عرفها الأدب العربي، فإذا تأملنا في الأسلوب الذي قدمت به، وماله من تأثير نفسي وفني، أتضح وجه تسميتها " بالقصة " لا استناداً إلى مدلولها اللغوي فقط، باعتبار أن أصل الاشتقاق للفظ (قصة) يلتقي في المعنى مع المدلول الذي انبنى عليه أصل التسمية القرآنية، وهو الإعلام بالنبا " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ " (الكهف: ١٣) ، أو تتبع الأثر وتقصّيه: " وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيه " (سورة القصص: ١١) ، بل واعتمادها علي ما في عرضها من طرق فنية .

ولا ننسى أن أسلوب القصص القرآني هو أسلوب التخاطب ومن هنا وضحت في قصصه أساليب الحدث والمشاهدة خاصة في مبدأ القصة (١٧١) .

وهناك خصائص أسلوبية عامة تحقق الغرض الديني للقصة القرآنية، عن طريق جمالها الفني، إذ أن هذا الجمال الفني يجعل ورودها إلى النفس أيسر، ووقعها في الوجدان أعمق، وهذه الخصائص تمثلها بعض الظواهر الفنية التي لها حساب معلوم في الدراسة الفنية للقصة الحرة في عالم الفنون (١٧٢) ، منها:

(أ) تنوع طريقة العرض: " إن البيان القرآني يحدّد الغرض من القصة ويسلك له الطريق الذي يوصل إليه، متوسلاً في طريقه إلى غرضه بالوسائل البيانية المناسبة أتم المناسبة. ومن ثم تنوعت الطرائق تبعاً لتنوع الأغراض، واختلفت الوسائل البيانية تبعاً لتنوع الطرائق " (١٧٣) .

١. التقديم والتمهيد لعرض القصة:

وخير مثال لذلك هي " قصة الخلق "، أو " النشأة الأولى "، فقد ورد في سورة الأعراف تقديم قوي لقصة خلق آدم، تبدأ به السورة: يقول تعالى: " المص كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذَكَّرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ " (سورة الأعراف: ١-٢).

إن خطاب الرسول - صلي الله عليه وسلم - هو خطاب لقومه الذين يجاهدون بهذا القرآن .. كل ما يجيء في السورة بعد ذلك من قصص، ومن وصف لرحلة البشرية الطويلة، وعودتها من الرحلة المرسومة، وكل ما يعرض من مشاهد في صفحة الكون وفي يوم القيامة، إنما هو خطاب غير مباشر - وأحياناً مباشر - للنبي صلي الله عليه وسلم وقومه للإنذار والتذكير، كما يشير هذا المطلع القصير ... ولأن الأمر كذلك من الثقل ومن الغرابة، ومن النفرة ومن المقاومة لهذا التغيير الكامل الشامل الذي تستهدفه هذه العقيدة في حياة الناس وتصوراتهم، فإن السياق يباكر القوم بالتهديد القاصم، ويذكرهم بمصائر المكذابين، ويعرض عليهم مصارع الغابرين ... جملة قبل أن يأخذ في القصص المفصل عنهم في مواضعه من السياق: " وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنًا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَنَسَأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسَأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ فَلَنَقْصِنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ " (الأعراف: ٤: ٩) .

وبعد هذه المقدمة تبدأ القصة، تبدأ بالحديث عن التمكين للجنس البشري في الأرض، وذلك بما أودع الله هذا الكون من خصائص وموافقات تسمح بحياة هذا الجنس وتمكينه في الأرض، وبما أودع الله هذا الجنس من خصائص وموافقات متوافقة مع الكون، ومن قدرة علي التصرف إلى نواميسه واستخدامها والانتفاع

بطاقاته ومقدراته وأقواته، " وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا
مَا تَشْكُرُونَ " (الأعراف: ١٠).

وليس هذا إلا التمهيد لعرض قصة النشأة الأولى، وتصوير نقطة الانطلاق
لل بشرية في رحلتها المرسومة، والسياق يركز في هذه السورة علي هذه النقطة،
ويعرض قصة النشأة، ويتخذها كذلك نقطة تعقيب للإنذار والتذكير، المستمدين مما
في مشاهدتها وأحداثها من عظات موحية، ومؤثرات عميقة: " وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ
صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّن السَّاجِدِينَ
" (الأعراف: ١١).

وبهذا المشهد في نقطة الانطلاق يتحدّد مصير الرحلة كلها، ومصائر المرتحلين
جميعاً.. وتلوح طلائع المعركة الكبرى التي لا تهدأ لحظة طوال الرحلة، بين هذا
العدد الجاهر بالعداوة، وبني آدم جميعاً. كما تلوح نقط الضعف في الكائن الإنساني
جملة، و منافذ الشيطان إليه منها ..

ومن ثم يتخذ السياق من المشهد مناسبة للتعقيب الطويل، بالإنذار والتحذير: "
يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ
ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم
مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ
إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ " (سورة الأعراف ٢٦-٢٧).

٢- وقد يمهد للقصة بمقدمة توحى بخاتمتها علي نحو ما نري في قصة " يوسف
" فأحداثها تبدأ عقب تقديم رؤيا يوسف التي قصّها علي أبيه وتنبؤ أبيه بما ينتظره في
المستقبل من شأن عظيم " إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا
وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَي إِخْوَتِكَ
فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ
تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" (يوسف: ٤-٦).

ثم تبدأ مشاهد القصة وأحداثها، حتى إذا كانت خاتمتها عرفنا أنها كانت تصويراً دقيقاً لانتقال الرؤيا إلى واقع متدرج مع الأيام^(٧٠): "وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ" (يوسف: ١٠٠).

٣- وقد يمهد للقصة بذكر ملخص لها يشوق إليها، وينبه إلى ما تنطوي عليه من مقاصد القصة القرآنية، ويعالج ما قد يثار حول أحداثها، من تشكيك أو ما قد يثار حول أفكارها من آراء، ثم يعرض التفصيلات بعد ذلك، كما نرى في قصة أصحاب الكهف، فقد مهّد لأحداث القصة بقوله تعالى: "أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا فَضَرْبَنَا عَلَى أَدَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا" (الكهف: ٩-١٢).

ذلك ملخص للقصة، ثم تتبعه مشاورهم قبل دخولهم الكهف. وحالتهم بعد دخوله، ونومهم، ويقظتهم، وإرسالهم واحداً منهم ليشتري لهم طعاماً، وكشفه في المدينة، وعودته، وموتهم، وبناء المعبد عليهم واختلاف القوم في أمرهم .. إلخ . فكان هذا التلخيص كان مقدمة مشوّقة للتفصيلات^(٧١).

٤- ومرة تذكر عاقبة القصة ومغزاها، ثم تبدأ القصة بعد ذلك من أولها وتسير بتفصيل خطواتها. وذلك كقصة موسى في سورة القصص . وهي تبدأ هكذا: " تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ

وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ" (القصص: ٢-٦).

ثم يمضي في تفصيلات قصة موسى: مولده ونشأته ورضاعه وكبره وقتله المصري وخروجه .. فكأن هذه المقدمة، التي تكشف الغاية من القصة كانت تمهيداً مشوقاً لمعرفة الطريقة التي تتحقق بها الغاية المرسومة المعلومة^(٧٢).

٥- وقد يذكر القصة بدون مقدمات ولا تمهيد، مكتفياً بإيحاء إلى محور القصة، علي نحو ما جاء في قصة سليمان مع ملكة سبأ، فالقصة تدور في محور العلم والإيمان، ومن ثم بدأت بعد قوله تعالى: " وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ" (سورة النمل: ١٥). وكما نري في الحلقة التي تعرضها سورة الأنبياء من قصة إبراهيم، فالقصة تدور في محور الجدل العقلي القائم علي التعقل والإتزان، ومن ثم بدأت بعد قوله: " وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ" (سورة الانبياء: ٥١). ثم تلا ذلك قوله تعالى: " إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ" (سورة الأنبياء: ٥٢).

٦- وقد يقدم أحداث القصة وفق ترتيبها الواقعي، فيصبح متلقي القصة مشاركاً لأصحابها، في الانتقال مع أحداثها ومواقفها، علي نحو ما نري في قصة مريم التي تقدمها سورة مريم، وما نري في قصة إبراهيم التي تعرضها سورة الأنبياء، فنحن مع قصة مريم ننتقل معها من حدث إلى حدث ونمر معها بالضيق جاهلين نهايته حتى نصل معها في النهاية إلى سماع صوت طفلها عيسي يبرئ ساحته ويعرّف بنفسه، ونحن مع قصة إبراهيم ننتقل معه في تحدّيه لقومه وسخريته من معبوداتهم، وتدرج معه دون أن ينكشف لنا شيء ينمُّ عما تنتهي به القصة، حتى نراه في النهاية كما رأي نفسه محفوظاً من النار التي ألقى فيها لتحريقه^(٧٣).

٧- وقد يقدّم أحداث القصة وفق ترتيب آخر ليجعل لنا بالكشف عن مفاجآت القصة، إيحاء إلى أن من وقائع الحياة ما يمكن للعاقل المؤمن البصير إدراكه قبل أن يقع ليعمل علي تدارك نفسه . كما نري في قصة أصحاب الجنة التي قدمتها سورة

القلم فبعد بدء أحداثها مباشرة قدّم حدثاً يعرفنا بها آل إليه أمر اللجنة دون أن يؤثر ذلك علي مسار القصة، أو يصيبها بأدني قلق أو اضطراب: " إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَشْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ أَنْ اغْدُوا عَلَي حَرْثِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَارِمِينَ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مُسْكِينٌ وَغَدُوا عَلَي حَرْدٍ قَادِرِينَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَالُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَي بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ " (سورة القلم: ١٧-٣٢).

٨- البيان القرآني في بعض مشاهد قصصه يعتمد علي إحضار الأحداث دون تدخل بالرواية وما تستلزمه من حكاية علي ألسنة الأشخاص . وكل ما يصنعه أنه ينبه إلى عنوان المشهد أو موضوعه بما يتناسب مع السياق البياني العام، ثم يختفي لتصدر الأحداث والأقوال من أصحابها مباشرة علي غرار ما نعرفه حديثاً باسم (التمثيلية)، فيصبح متلقي المشهد كأنه حاضر وقائعه بنفسه دون واسطة. علي نحو ما جاء في قصة إبراهيم عليه السلام إذ يقدم القرآن مشهد بناء الكعبة فنري إبراهيم وإسماعيل أماناً بأشخاصهما يبيان ونسمعهما بألستهما يدعوان، حتى كأنهما معنا في عصرنا هذا أو كأننا انتقلنا إليهما في الماضي نعايشهما: " وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن دُرَيْتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَكَ وَآرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " (البقرة: ١٢٧-١٢٩).

فالبيان هنا لم يتدخل إلا برفع الستار عن المشهد، وذلك قوله تعالى: " إذ يرفع " كلمة (إذ) هنا تمثل المفتاح الذي ينقلنا إلى الحدث الواقع أو ينقل الحدث ذاته إلينا فنشارك أشخاصه الزمان والمكان والحياة^(٧٧).

٩- والقرآن في أكثر قصصه يعتمد على أسلوب الأصوصة في العرض، فيسيطر بذلك على الموقف، لينتقي من الأحداث التي وقعت ما يحقق الهدف، وينسقها في إطار فني لا يخرج عن الحقيقة، ولا ينبو على الواقع، فالبيان القرآني - هنا - يحرك الأشخاص الحركة نفسها التي تحركوها في الواقع الماضي، غير أنه ينتقل بهم في قفزات، متجاوزاً من ذلك ما يراه لا يفيد في الغرض، فيجمع بذلك بين الصدق الواقعي والصدق الفني، إذ لا يتوسل إلى إبراز موضوعه بوسائل مخترعة ينسب فيها إلى أشخاصه ما هم منه براء، ولا يترك ركام الأحداث الجانبية يطغي على الموضوع فيضلل المتلقي، وينأى به بعيداً عن الموقف الحقيقي، ولذا يغلب على قصصه نسبة الأقوال إلى أصحابها بواسطة (قال)، وقصّ ما حدث بما يناسب من وسائل الرواية والسرد القصصي، علي نحو ما جاء في قصة أصحاب الكهف، وقصة سليمان، وقصة يوسف ..

بيد أن تنمية الأحداث في بعض قصصه تعتمد بالدرجة الأولى على الوصف والتصوير كما توضحه قصة أصحاب الكهف، وفي بعضها تعتمد بالدرجة الأولى على الحوار كما في قصة "موسى والعبد الصالح" التي قدمتها سورة الكهف .. وقد يجمع بين الوسيلتين بدرجة متقاربة في تنمية الأحداث كما في قصة سليمان ومملكة سبأ . ونبحث عن السرّ في ذلك فنجدّه يرجع إلى موضوع القصة، وإلى الغاية منها، فالقصة التي يقصد بها الوعظ وإرساء قيم خلقية يهتم فيها بالقص الواصف المستوعب، والقصة التي يقصد بها إقرار عقيدة أو توضيح فكرة يهتم فيها بالقص الحوارى، فتبث في ثنايا الحوار الخفيف ما يصعب على العقل البشري استساغته من أفكار وعقائد . فإذا اجتمع في القصة المقصدان نجدها تقوم على السرد الوصفي والحواري بدرجة تتقارب تقارب المقصدين فيها، وتتفاوت تفاوتها^(٧٠).

ب- وثانية هذه الخصائص الفنية في عرض القصة، تلك الفجوات بين المشهد والمشهد، التي يتركها تقسيم المشاهد " وقصّ " المناظر، بحيث تترك بين كل مشهدين أو حلقتين فجوة يملؤها الخيال، ويستمتع بإقامة القنطرة بين المشهد والمشهد اللاحق ..

وهذه طريقة متبعة في جميع القصص القرآني علي وجه التقريب، ولنضرب عليها

مثلاً من قصة يوسف، فالقصة قد قسّمت ثمانية وعشرين مشهداً، فلنعرض بعض مشاهدتها:

لقد قدم إخوة يوسف وهو " علي خزائن الأرض "، في سنوات الجذب، يطلبون القمح، فطلب إليهم أن يحضروا أخاهم الآخر .. شقيقه .. فأحضره - علي كره من أبيه - ثم وضع صواع الملك في رحله وأخذ به رهينة، باسم أنه سارق، لبيقيه يوسف عنده .. ثم هاهم أولاء إخوته ينتحون جانباً ليتشاوروا في أمرهم، وقد أبي عليهم يوسف أن يأخذ أحدهم مكانه: " فَلَمَّا اسْتِيسَأُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ " (يوسف: ٨٠-٨٢) ..

وهنا يسدل الستار، لنلتقي بهم في مشهد آخر لا في مصر ولا في الطريق، ولكن أمام أبيهم، وقد قالوا له ما وصّاهم به أخوهم دون أن نسمعهم يقولونه. إنها يرفع الستار مرة أخرى لنجد أباهم يخاطبهم: " قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ " (سورة يوسف: ٨٣) ويُسدل الستار ..

وهنا نرى مشهداً آخر بين يعقوب وبنيه، ونراه قد ابيضت عيناه من الحزن، وهو دائم الحسرة علي يوسف، وأبناؤه يستنكرون عليه هذا كله: " وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَّأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ " (يوسف: ٨٤-٨٧) .

وهنا يسدل الستار، ويطوون الطريق لا نعلم عنهم فيه شيئاً، إنما يرفع الستار فنجدهم في مصر أمام يوسف: " فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ " (يوسف: ٨٨).

جـ وثالثة الخصائص الفنية في عرض القصة – التصوير الفني:

إن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن . فهو يعبر بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحوادث المحسوس، والمشهد المنظور . وعن الأنموذج الإنساني والطبيعة البشرية . ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة . فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا الأنموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية . فأما الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر، فيردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخيل . فما يكاد يبدأ العرض حتى يجيل المستمعين نظارة، وحتى ينقلهم نقلاً إلى مسرح الحوادث الأول، الذي وقعت فيه أو ستقع، حيث تتوالى المناظر، وتتجدد الحركات، وينسى المستمع أن هذا كلام يُتلى، ومثل يُضرب، ويتخيل أنه منظر يُعرض، وحادثة يقع . فهذه شخوص تروح علي المسرح وتغدو، وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات، المنبعثة من الموقف، المتساوقة مع الحوادث، وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة، فتتم عن الأحاسيس المضمرة . إنها الحياة وليست حكاية الحياة..

فإذا ما ذكرنا أن الأداة التي تصوّر المعنى الذهني والحالة النفسية وتشخص الأنموذج الإنساني أو الحوادث المروي، إنما هي ألفاظ جامدة، لا ألوان تصور، ولا شخوص تعبر، أدركنا بعض أسرار الإعجاز في تعبير القرآن^(٧٦).

وبعد لقد استطرنا في تتبع معظم خصائص القصة القرآنية. ولكن مما لا شك فيه أن قوة العرض والإحياء هي السمة البارزة في مشاهد القصة جميعاً . وأن هذا اللون هو الذي يطبعها، ويغلب فيها علي الألوان الأخرى.

- (١) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الثاني، ص ٧٢١.
- (٢) د. محمد عناني: خرافة الكمال: جريدة الأهرام ١٩٨٨/٥/٢٧.
- (٣) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الثاني، ص ٧٢١.
- (٤) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن: ص ٨٦.
- (٥) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم - ص ١٤. مطبعة السعادة، القاهرة، ط١، سنة ١٩٧٧.
- (٦) مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ٢٠٩، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ.
- (٧) المرجع السابق، ص ٢١٠-٢١١.
- (٨) كل الذين يدركون أسرار الموسيقى وفلسفتها، لا يرون في الفن العربي بجملته شيئاً يعدل هذا التناسب الذي هو طبيعي في كلمات القرآن وأصوات حروفها، وما منهم من يستطيع أن يغمز في ذلك حرفاً واحداً؛ ويعلو القرآن علي الموسيقى أنه مع هذه الخاصة العجيبة ليس من الموسيقى
- انظر: المرجع السابق، ص ٢١٤.
- (٩) وقال بعض العلماء: كثر في القرآن ختم الفواصل بحروف المدّ واللين وإلحاق النون، وحكمة وجودها التمكّن من التطريب بذلك، كما قال سيبويه إنهم (أي العرب) إذا ترنّموا يلحقون الألف والياء والنون، لأنهم أرادوا مدّ الصوت، ويتركون ذلك إذا لم يترنّموا وجاء في القرآن علي أسهل موقف وأعذب مقطع، وهذا قولٌ ناقص.
- انظر: مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن: ص ٢١٧.
- (١٠) المرجع السابق: ص ٢١٦-٢١٧ بتصرف.
- (١١) راجع سورة مريم: الآيات من ١ إلى ١٥.
- (١٢) راجع سورة مريم: الآيات من ١٦ إلى ٣٧.
- (١٣) راجع سورة مريم: الآيات من ٣٤ إلى ٤٠.
- (١٤) راجع سورة مريم: الآيات من ٤١ إلى ٧٤.

- (١٥) راجع سورة مريم: الآيات من ٧٥ إلى ٨٧.
- (١٦) راجع سورة مريم الآيات من ٨٨ إلى ٩٨.
- (١٧) سيد قطب: في ظلال القرآن . المجلد الرابع، ص ٢٣٠٠ - ٢٣٠١.
- (١٨) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٤٩٢.
- (١٩) مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن: ص ٢١٧.
- (٢٠) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن: ص ٨٩ - ٩٠.
- (٢١) مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن: ص ٢٢٠ - ٢٢٤ بتصرف.
- (٢٢) د. السيد تقي الدين: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن ص ١٥٠.
- (٢٣) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٤٩٤ - ١٩٥.
- (٢٤) د. السيد تقي الدين: من الوجهة الادبية في دراسة القرآن، ص ١٥٠.
- (٢٥) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٤٩٣.
- (٢٦) الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن ص ٧٨، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٤، دار التراث، القاهرة بدون تاريخ.
- (٢٧) د. حفني محمد شرف: إعجاز القرآن البياني، ص ٢٢٢.
- (٢٨) د. علي اليمني دردير: أسرار الترادف في القرآن الكريم، ص ٣٢-٣٣، دار ابن حنظل . القاهرة، ١٩٨٥
- (٢٩) المرجع السابق، ص ٣٤.
- (٣٠) المرجع السابق، ص ١٣١-١٣٢.
- (٣١) المرجع السابق، ص ١١٧-١١٩.
- (٣٢) المرجع السابق، ص ١١٩-١٢٠.
- (٣٣) أبو سليمان محمد بن الخطابي: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص ٣٦، تحقيق الأستاذ محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام، القاهرة، بدون تاريخ .
- (٣٤) ابن منظور: لسان العرب، ج١، ص ٢٠٨.
- (٣٥) المرجع السابق، ج٢، ص ٨٦٢.
- (٣٦) د. علي اليمني دردير: أسرار الترادف، ص ٦٧-٦٨.
- (٣٧) الامام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج٤، ص ٧٨.
- (٣٨) أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، ص ٢٠٠.
- (٣٩) سورة ق من آية ٣٣.
- (٤٠) المرجع السابق، أسرار الترادف، ص ٥٨-٥٩.
- (٤١) د علي اليمني دردير: أسرار الترادف، ص ٩٨-٩٩.
- (٤٢) ابن منظور: لسان العرب، ص ٧٠٤، حيث يشير إلى معني أن العصا صارت تتحرك كما

يتحرك الجان حركة خفيفة، ويقول أبو العباس: شبهها بالثعبان وفي خفتها بالجان.

(٤٣) د. علي اليمني دردير: أسرار الترادف، ص ١٠٠

(٤٤) المرجع السابق، ص ١٠١.

(٤٥) الامام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان، ج ٣، ص ٣٧٨.

(٤٦) المرجع السابق، ج ٣، ص ٣٧٨.

(٤٧) في التعبير كلمة أخري جلييلة: وتلك أن فرعون يريد أن يبني صرحاً يبلغ به السماء فعبّر

بالإيقاد علي الطين تهماً علي فرعون، لأن البناء في مثل هذا لا يزال يرتفع بلا نهاية وإعداد

الآجر يجب أن يكون كذلك مستمراً باستمرار الإيقاد علي الطين، ثم تشعر العبارة أن النتيجة

لا شيء، فكأنه لم يخرج لابناء ولا مبنياً به، وما هو إلا البدء والاستمرار في البدء. انظر:

مصطفي صادق الرافي: إعجاز القرآن، ص ٢٣٤.

(٤٨) مصطفي صادق الرافي: إعجاز القرآن، ص ٢٣٥.

(٤٩) المرجع السابق، ص ٢٣١.

(٥٠) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ٣، ص ٧٩-٨٠.

(٥١) د. محمد أحمد الغمراوي: الإسلام في عصر العلم، ص ٢٣٤.

(٥٢) د. السيد تقي الدين: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن، ص ١٥١.

(٥٣) مصطفي صادق الرافي: إعجاز القرآن، ص ٢٥٨، ٢٧٢ بتصرف.

(٥٤) الإمام الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ٣، ص ٢٨٠.

(٥٥) ابن منظور: لسان العرب، ج ٤ - ص ٢٥٥٨.

(٥٦) عباس محمود العقاد: جحا اضحك المضحك، ص ٧١، دار نهضة مصر، القاهرة، بدون

تاريخ.

(٥٧) الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ١ ص ١٦٠ -

١٦٢.

(٥٨) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الخامس، ص ٢٥٩٠.

(٥٩) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٢٠٩ - ٢١١ - ٢٤٠ - ٢٤١.

(٦٠) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٣٠٤.

(٦١) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٣٠٥.

(٦٢) ونظيره جواب ابن الجوزي لمن قال له: من كان أفضل عند النبي صلى الله عليه وسلم؟

أبو بكر أم علي؟ فقال: من كانت ابنته تحبه.. والإشكال في ضمير: "ابنته" وضمير "تحبه"

فإن فاطمة الزهراء ابنة الرسول كانت زوج علي، وعائشة بنت الصديق كانت زوج الرسول

البرهان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٣١٤ - ٣١٥.

(٦٣) هو محمد بن علي بن الخضر الغساني المعروف بابن عساكر، تلميذ أبي القاسم السهيلي

- صاحب كتاب التعريف والاعلام فيما أبهم من الأسماء والأعلام وكتاب ابن عساكر ذيل عليه، جمع بينهما شيخ الإسلام بدر الدين بن جماعة في كتاب واحد سماه " التبيان".
- انظر: المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٧٨-٤٧٩.
- (٦٤) وفي حاشية إحدى النسخ: " هذا مقول امرأة العزيز، ويوسف عند هذه المقالة في السجن، بدليل قوله: " اتتوني به " وأيضاً قول للرسول: " ارجع إلى ربك " ولم يخرج معه، وبدليل قوله صلى الله عليه وسلم: لو كنت من يوسف لأجبت الداعي " .
- (٦٥) الإمام الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ٥-٦٦.
- (٦٦) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ١٥٨.
- (٦٧) د. السيد تقي الدين: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم، ص ١٩٢.
- (٦٨) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٤٨.
- (٦٩) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١١٦.
- (٧٠) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١٢٠.
- (٧١) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٤٩.
- (٧٢) المرجع السابق. ص ١٤٩
- (٧٣) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١٢٠.
- (٧٤) المرجع السابق، ص ١١٦.
- (٧٥) المرجع السابق، ص ١١٧-١١٨.
- (٧٦) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ٣٤.

القصة بين
الإيمان والتوزيع
في القرآن الكريم

أ- توزيع القصة في القرآن الكريم: منهجه وأسلوبه:

يرد القصص القرآني في مواضع ومناسبات، وهذه المناسبات التي يساق القصص من أجلها هي التي تحدد مسار القصة، والحلقة التي تعرض منها، والصورة التي تأتي عليها، والطريقة التي تؤدي بها، تنسيقاً للجو الروحي والفكري والفني الذي تعرض فيه، وبذلك تؤدي دورها الموضوعي، وتحقق غايتها النفسية، وتلقي إيقاعها المطلوب^(١).

ولذلك يلاحظ الدارسون للقصة القرآنية أنه لا يلتزم فيها بالسرد القصصي، ولكن يلتزم فيها بالوصول إلى الغاية من القصة، ووفقاً لذلك الالتزام نرى من القصص القرآنية ما تقدم كاملة الأحداث والمواقف في معرض واحد - كما في قصة يوسف - ومنها ما تقدم في حلقات، يخصص بكل حلقة منها معرض يتطلب هذه الحلقة من القصة فحسب. ولا مانع في أثناء ذلك من تكرار موقف مشترك بين حلقتين..

ولا شك في أن هذا المنهج من أبرز الخصائص الفنية في القصة القرآنية التي يعجز المخلوق عن مجارات البيان القرآني فيها، لما يجوج إلى استجماع القوي الفنية جميعاً في وقت واحد، حتى لا يسقط موقف في معرض أو يزداد موقف، وحتى يتمكن من إدراك أبعاد المعرض وحصر متطلباته من الأحداث، والقدرة على حشد تلك الأحداث واستهلاكها من القصة بحيث لا يهتز المسار الفني فيها، وبحيث لا يتناقص حدث في حلقة سابقة مع حدث في حلقة لاحقة^(٢).

ومن هنا ظنَّ بعض الدارسين أن هنالك تكرار في القصص القرآني، لأن القصة

الواحدة قد يتكرر عرضها في سور شتي ؛ ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة، أو حلقة من قصة قد تكررت في صورة واحدة، من ناحية القدر الذي يساق، وطريقة الأداء في السياق، وإنه حينما تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤديه ينفي حقيقة التكرار^(٣).

وعلى الرغم من أن هذه الخصيصة إحدى أسرار الإعجاز القرآني، إلا أن هناك من يزعم أن في القصة القرآنية خلقاً للحوادث أو تصرفاً فيها، يقصد به إلى مجرد الفن - بمعنى التزييق الذي يتقيد بواقع، وأن الشخصية في القصة القرآنية ليست حقيقية وإنما هي شخصية فنية اخترعها البيان القصصي، ومن ثم فهي في تلك الحلقة غيرها في الحلقة الأخرى وإن اتفقت معها في التسمية، ومن ثم فالأحداث التي تدور في تلك الحلقة لا تمت بصلة تاريخية ولا واقعية للأحداث المماثلة لها التي تدور في الحلقة الأخرى..

والحقيقة أن عرض الشخصية الواحدة في أكثر من معرض ليس تكراراً ولا تناقضاً، وإنما هو - الاستجابة للأحداث والمواقف والغاية من القصة، لأن الشخصية - كما قرّرنا من قبل في معرض الحديث عن الشخصية في القصة القرآنية - ليست مقصودة لذاتها، ولأن عرض الحديث كذلك - ليس مقصوداً لذاته، وإلا لجمعت كل أحداثها، ورتبت ترتيباً زمنياً أو فنياً، ثم ذكرت مع شخصيتها في قصة واحدة.. وإلا أصبح لكل قصة معرض واحد تقدم فيه كاملة الأحداث والمشاهد، تطلبها المعرض كاملة أو لم تطلبها.. ولم يسرّ القرآن هذا المسار في قصصه، ولكنه يعرض كاملة أو لم تطلبها.. ولم يسرّ القرآن هذا المسار في قصصه، ولكنه يعرض للشخصية مع حدث معين من أحداثها فيمزج بينهما، ثم يقدم الشخص متفاعلاً بذلك الحدث لا غير، لتري العظة والعبرة من خلال هذا النموذج مع ذلك الحدث، ثم تنتهي المشاهد المصورة، وتطوي القصة عند ذلك، وتنتقل إلى موقف آخر، فإذا عرض بعد ذلك ما يستدعي هذه الشخصية ذاتها مع حدث آخر رأيت حلقة أخرى - أو قصة أخرى - ذات مضمون جديد. وإن تراءت تكراراً لما سبق في سورة أخرى..

فشبهة التكرار - كما نرى - ما جاءت إلا من تكرار الشخصية، وعدم الوعي بقيمتها في القصة القرآنية^(١).

ولقد حظي هذا الموضوع بجهود البلاغيين والنقاد قديماً وحديثاً، واستغرق قدراً كبيراً من جهدهم، وما من مؤلف في البلاغة والنقد قديماً وحديثاً إلا تناول هذه الظاهرة في القصة القرآنية، ولقد انقسم الباحثون إلى فريقين الأول يري أن التكرار منهج ثابت من مناهج القرآن، ولا يوجد فقط في القصة القرآنية وأبناء الرسل، وأحاديث الأقوام الغابرين؛ بل يوجد في كل ما تناوله كتاب الله العظيم قياماً بالرسالة التي أسندها الله إليه وأنزل آياته من أجلها، أما الفريق الآخر فينفي التكرار تماماً، وفيما يلي نوضح أهم آراء هذين الفريقين:

يقول صاحب البرهان: " لقد غلط من أنكر كونه (أي التكرار) من أساليب الفصاحة، ظناً أنه لا فائدة له، وليس كذلك بل هو من محاسنها، لا سيما إذا تعلق بعبءه ببعض، وذلك أن عادة العرب في خطاباتها، إذا أهتمت بشيء إرادة لتحقيقه وقرب وقوعه، أو قصدت الدعاء عليه، كرّرت توكيداً، وكأنها تقيم تكراره مقام المقسم عليه أو الاجتهاد في الدعاء عليه، حيث تقصد الدعاء؛ وإنما نزل القرآن بلسانهم، وكانت مخاطباته جارية فيما بين بعضهم وبعض، وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم في عجزهم عن المعارضة. وعلي ذلك يحتمل ما ورد من تكرار المواعظ والوعود والوعيد، لأن الإنسان مجبول من الطبائع المختلفة، وكلها داعية إلى الشهوات، ولا يجمع ذلك إلا تكرار المواعظ والقوارع، وقال تعالى: " وَلَقَدْ يَسْرَنَّا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ " ^(٢) وبذلك تكون الفائدة العظمى من التكرار هي التقرير، وقد قيل: الكلام إذا تكرر تقرر، وقد أخبر الله سبحانه بالسبب الذي لأجله كرر الأفاصيص والأخبار في القرآن فقال: " وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ " (القصص: ٥١)، وقال: " وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا " (طه: ١١٣)، وحقيقته إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معني، خشية تناسي الأول، لطول العهد به ثم ينتقل " صاحب البرهان " إلى تكرار القصص في القرآن

الكريم، كقصة إبليس في السجود لآدم، وقصة موسى وغيره من الأنبياء، ويقول إنما هي تكررت لفائدة خلت عنه في الموضع الآخر وهي أمور:

أحدهما: أنه إذا كرر القصة زاد فيها شيئاً، ألا ترى أنه ذكر الحية^(٣) في عصا موسى عليه السلام، وذكرها في موضع آخر ثعباناً^(٤)، ففائدته أن ليس كل حية ثعباناً، وهذه عادة البلغاء، أن يكرر أحدهم، في آخر خطبته أو قصيدته كلمة، لصفة زائدة..

الثانية: أن الرجل كان يسمع القصة من القرآن ثم يعود إلى أهله ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه ما نزل بعد صدور الأولين، وكان أكثر من آمن به من المهاجرين، فلولا تكرار القصة لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى آخرين، وكذلك سائر القصص، فأراد الله سبحانه وتعالى اشتراك الجمع فيها فيكون فيه إفادة القوم، وزيادة تأكيد وتبصرة، لآخرين وهم الحاضرون.

الثالثة: تسليته لقلب النبي - صلي الله عليه وسلم - مما اتفق للأنبياء مثله مع أمهم . قال تعالى: " وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ " (سورة هود: ١٢٠).

الرابعة: أن إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأساليب مختلفة لا يخفى ما فيه من الفصاحة.

الخامسة: أن الدواعي لا تتوفر على نقلها كتوفرها على نقل الأحكام فلهذا كررت القصص دون الأحكام.

السادسة: أن الله تعالى أنزل هذا القرآن، وعجز القوم عن الإتيان بمثل آية لصحة نبوة محمد صلي الله عليه وسلم، ثم بين وأوضح الأمر في عجزهم، بأن كرر ذكر القصة في مواضع، إعلماً بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأي نظم جاءوا، بأي عبارة عبروا..

السابعة: أنه لما سخر العرب بالقرآن قال: " فأتوا بسورة من مثله " (البقرة: ٢٣) توقال في موضع آخر: " فأتوا بعشر سور " (هود: ١٣)، فلو ذكر قصة آدم مثلاً في

موضع واحد واكتفي بها لقال العربي بما قال الله تعالى: " فأتوا بسورة من مثله " إيتونا أتم بسورة من مثله "، فأنزلها سبحانه في تعداد السور، دفعاً لحجتهم من كل وجه..

الثامنة: أن القصة الواحدة من هذه القصص، كقصة موسي مع فرعون - وإن ظن أنها لا تغاير الأخرى - فقد يوجد في ألفاظها زيادة ونقصان وتقديم وتأخير، وتلك حال المعاني الواقعة بحسب تلك الألفاظ؛ فإن كل واحدة لا بد وأن تخالف نظيرتها من نوع معني زائد فيه، لا يوقف عليه إلا منها دون غيرها؛ فكأن الله تعالى فرّق ذكر ما دار بينهما وجعله أجزاء، ثم قسّم تلك الأجزاء علي تارات التكرار لتوجد متفرقة فيها؛ ولو جمعت تلك القصص في موضع واحد لأشبهت ما وجد الأمر عليه من الكتب المتقدمة؛ من انفراد كل قصة منها بموضع كما وقع في القرآن بالنسبة ليوسف عليه السلام خاصة، فاجتمعت في هذه الخاصة؛ من نظم القرآن عدة معانٍ عجيبة:

منها: أن التكرار فيها مع سائر الألفاظ لم يُوقع في اللفظ هجئة ولا أحدث مللاً، فباين بذلك كلام المخلوقين ...

ومنها: أنه ألبسها زيادة ونقصاناً وتقديماً وتأخيراً، ليخرج بذلك الكلام أن تكون ألفاظه واحدة بأعيانها، فيكون شيئاً معاداً؛ فنزّهه عن ذلك بهذه التغييرات ..

ومنها: أن المعاني التي اشتملت عليها القصة الواحدة من هذه القصص صارت متفرقة في تارات التكرير فيجد البليغ - لما فيها من التغيير - ميلاً إلى سماعها، لما جُبلت عليه النفوس من حبّ التنقل في الأشياء المتجددة التي لكل منها حصّة من الالتذاذ به مستأنفة.

ومنها: ظهور الأمر العجيب في إخراج صور متباينة في النظم بمعني واحد؛ وقد كان المشركون في عصر النبي صلي الله عليه وسلم يعجبون من اتساع الأمر في تكرير هذه القصص والأنباء مع تغاير أنواع النظم، وبيان وجوه التأليف، فعرفهم الله سبحانه بأن الأمر بما يتعجبون منه مردود إلى قدرة من لا يلحقه نهاية، ولا يقع علي

كلامه عدد^(١١٤)؛ لقوله تعالى: " قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَّلْكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا " (سورة الكهف: ١٠٩)، وكقوله: " وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " (سورة لقمان ٢٧) ويرى " الخطابي " أن التكرار بلاغة . وترك التكرار في الموضع الذي يستدعيه إخلال بالبلاغة فيقول: " تكرر علي ضربين: أحدهما مذموم، وهو ما كان مستغني عنه غير مستفاد به زيادة معني لم يستفيدوه بالكلام الأول لأنه حينئذ يكون فضلاً من القول ولغواً وليس في القرآن شيء من هذا النوع ؛ والضرب الآخر: ما كان بخلاف هذه الصفة، فإن ترك التكرار في الموضع الذي يقتضيه وتدعو الحاجة إليه فيه، بإزاء تكلف الزيادة في وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار، وإنما يحتاج إليه ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها، ويخاف بتركة وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها^(١١٥) .

وقد وقف " القاضي عبد الجبار " عند التكرار في القصص القرآني، وردّ طعن الطاعنين بسببه، وبيّن أنه من الوجوه التي تجلّت فيها براعة القرآن وظهر فيها إعجازه، كما بيّن أن هذا التكرار كان تسليّة للرسول - صلي الله عليه وسلم - وتثبيتاً لفؤاده علي مدي ثلاث وعشرين سنة هي مدة نزول القرآن، كما ذكر أن التكرار المعيب هو ما يكون في الموطن الواحد أما إذا تعددت مواطنه فإنه بلاغة وفصاحة . ولهذا قال تعالى: " وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ " (هود: ١٢٠) .

كما يرى " القاضي عبد الجبار " أنه قد يكون السرّ في هذا التكرار في قصص القرآن، أن يكون تسجيلاً لكلام السابقين والأحداث التي وقعت لهم، فيكون هذا التكرار مختصاً بكل حالة، فيقول في ذلك: " على أن كثيراً مما ذكره الله تعالى في قصص الأنبياء المتقدمين، لا يمتنع أن يكون تكرر منهم في أوقات فكان ذكره بحسب تكراره، وذلك مما يدل علي عظم شأن القرآن أيضاً^(١١٦) .

ويقول " مصطفى صادق الرافعي " في تعليقه علي هذه الظاهرة: " لقد خفي

هذا المعنى (التكرار) على بعض الملحدة وأشباههم ومن لا نفاذ لهم في أسرار العربية ومقاصد الخطاب والتأتي بالسياسة البيانية إلى هذه المقاصد، فزعموا به المزاعم السخيفة وأحالوه إلى النقص والوهن، وقالوا إن هذا التكرار ضعف وضيق من قوة وسعة، وهو - أخزاهم الله - كان أروع وأبلغ وأسري عن الفصحاء من أهل اللغة والمتصرفين فيها، ولو أعجزهم أن يجيئوا بمثله ما أعجزهم أن يعيروه لو كان عيباً" (١١١)

ويقول أيضًا: وفي بعض ذلك التكرار معني آخر فطن إليه بعض علمائنا ولم يكشف لهم عن سره، وأول من نبه عليه الجاحظ في كتاب (الحيوان) إذ قال " ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكي عنهم جعله مبسوطاً وزاد في الكلام" (١١٢).

وأما (أبو هلال العسكري) فقد ذكر التكرار عند حديثه عن الإطناب، ويبدو أنه قد نقل عبارة الجاحظ، حيث بين أن التكرار لا يصار إليه إلا إذا اقتضاه المقام، وأنه قد كثر في القرآن في خطاب بني إسرائيل لقلته فهمهم فيحتاجون إلى الشرح والإيضاح والتأكيد، بينما كان الخطاب للأعراب، بالإشارة والوحي لعدم حاجتهم إلى ذلك، ومثل له من القرآن وفصيح الشعر" (١١٣).

وإذا كان تفسير هؤلاء الباحثين المتقدمين لبلاغة التكرار في القرآن يتسم بالتعميم، وتكاد معظمها تتفق على أن التكرار لا يصار إليه إلا إذا اقتضاه المقام: كالتأكيد والوعد والوعيد، فإن " جار الله الزمخشري " قد نهج نهجاً يقوم على التحليل النفسي والتعمق والتغلغل في كشف الأسرار النفسية والبواعث البلاغية التي بسببها كان هذا التكرار، في كلام الله عز وجل وفي القصص التي ساقها، إذ يري الزمخشري " أن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس، وتثبيتاً لها في الصدور " .. ومن ذلك قوله تعالى: " إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين " (١١٤) فيقول الزمخشري: " كرّر في هذه السورة في أول كل قصة وآخرها هذه الآية لأن كل قصة

كتنزيل برأسه، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها، فكانت كل واحدة منها تدلي بحق في أن تفتح بما افتتحت به صاحبها، وأن تختتم بما اختتمت به، ولأن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس^(١٥).

وهكذا في كل ما تقدم رأينا البلاغيين يتفوقون علي بلاغة ما جاء في القرآن الكريم من آياته وقصصه مكرراً في أكثر من موطن ومردداً في أكثر من موضع، وأن تكرار القصة الواحدة في القرآن الكريم وثيق الصلة بمنهجه القصصي، إذ هو يخدم غرضين في آن واحد:

١- غرض فني:

ويتمثل في تجدد أسلوبها إيراداً وتصويراً، والتفنن في عرضها إيجازاً وإطناباً، والتنوع في أدائها لفظاً ومعنى ..

٢- غرض نفسي:

وذلك بما له من تأثير في النفوس، لأن المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان ودوافعها كما هو مقرر في علم النفس^(١٦).

ومن آراء الفريق الآخر الذي لا يقرّ بوجود التكرار مطلقاً في القرآن الكريم نستعرض رأي الدكتور " محمد أحمد خلف الله " الذي يذهب إلى عجز العقل الإسلامي عن أن يفهم الأسرار التي من أجلها كان التكرار . يرجع إلى أنه اعتمد المذهب التاريخي في فهم القصص القرآني، ومن هنا رأي الكثيرون اعتبار القصص القرآني من الآيات المتشابهات . يقول الطبري " المتشابه هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرار فقصة باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني وقصة باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني " .

ويقول: " ولو إن العقل الإسلامي أقام فهمه للقصص القرآني علي أساس فني وأدبي لما وقف هذه الوقفة ولعرف منذ اللحظة الأولى، الذي عدّه تكراراً ليس من

التكرار في شيء لأن هذه المواد التاريخية غير مقصودة من القصص، وأن مقاصد القرآن من مواعظ وعبر ومن إنذارات وبيانات تختلف في موطن عنها في آخر، ومن هنا كان الاختلاف. لأن اختلاف المقاصد يدفع من غير شك إلى اختلاف الصور الأدبية.. فقصد القرآن من قصة موسى في سورة " طه " غيره من قصة موسى في سورة " النمل "، وقصة موسى في سورة " طه " قصة مستقلة، وقصته في سورة " النمل " قصة مستقلة. ومن الوجهة الأدبية هذه قصة وتلك قصة أخرى. وعلي هذا فلا تكرار ولا اختلاف ولا تشابه" (١٧).

وأما عن رأيه في وحدة الشخصية فيقول: " ليس من شك في أنك لا تستطيع أن تغلب الاتفاق في الشخصية علي بقية العناصر القصصية، من خلاف في المقاصد والأغراض، واختلاف في الصور والألفاظ، واختلاف في النسق والترتيب، واختلاف في فن البناء والتركيب - ومن هنا نحس أن الاختلاف القائم علي أساس الأحداث أيضاً يزول، فكون البشارة بالغلام مرة لسارة وأخري لإبراهيم عليه السلام لا يعتبر من الاختلاف لأن هذه قصة وتلك قصة، وكذلك غير هذا المثال من آيات القصص الذي يتغاير فيه التعبير" (١٨).

ويقول: " إن هذا الوجه من الرأي يبطل ذلك القول الخاطيء الذي يقول به المستشرقون من تطور الشخصية القصصية في القرآن الكريم بتطور أغراض النبي عليه السلام ودوافعه والظروف المحيطة به والمناسبات التي تدعوه إلى بعض المواقف. ذلك التطور الذي يمثلون له ما حدث في شخصية إبراهيم عليه السلام، لأن أساس هذا القول إن الوحدة القصصية تقوم علي وحدة الشخصية وهو قول باطل، يريجنا منه تقرير أن هذه الوحدة، إنها هي وحدة الغرض والعبرة لا وحدة الشخص، ومن هنا تكون هذه قصة وتلك قصة، وتكون أقاصيص متعددة لشخص واحد عن موقف واحد، لتعدد الأغراض واختلاف صور العرض باختلاف المقصد والغرض" (١٩).

وغني عن البيان أن المقدمة التي بنى عليها " الدكتور خلف الله " حكمه في عدم

التزام القرآن الكريم للواقع في قصصه غير صحيحة. والمقدمة تتمثل في إقراره بوجود مفارقات بين ما يكرر من أحداث القصة الواحدة، وسوف ندفع هذه الشبهة عند عرضنا لقصة موسي موزعة في إحدى عشرة سورة من سور القرآن الكريم، لننفي وجود هذه المفارقات التي لا يبررها علي افتراض وجودها ما يقتضيه العمل الفني والأدبي من تصرّف في عناصر الأحداث أو الشخصية . لأن هذا - وإن جاز في القصص الأدبي التاريخي - لا يجوز بحال في القصص القرآني والله تعالى يقول: " لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " (سورة يوسف: ١١١).

إن الجمال الفني في قصص القرآن لا يعتمد على الخلق والابتكار والخيال ولكن علي صدق الرواية، وإبداع العرض، وجمال الأداء.

أما من ناحية الوحدة القصصية فيقول " الدكتور خلف الله " باستحالة الجمع بين ما جاء من قصة إبراهيم عليه السلام مفرقاً بين سور " البقرة " و " هود " و " الأنبياء " في وحدة قصصية وكذلك قصص غيره من الأنبياء.

ولقد انطوى هذا القول علي مغالطات جسيمة لأن الوحدة القصصية، حسب ما تعارف عليه - النقد - " هي وحدة بطل القصة أو وحدة موضوعها، ووحدة البطل هنا هي " إبراهيم " في سورة البقرة، في بداية نبوته عندما أراد أن يطمئن قلبه فسأل ربه برهاناً علي كيفية البعث، وهي " إبراهيم " أيضاً في سورة الأنبياء عندما أراد أن يضع بين أعين قومه برهاناً علي ضلالهم في عبادة الأصنام: " فَجَعَلَهُمْ جُدَادًا إِلَّا كَبِيرًا هُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ " (الأنبياء: ٥٨) وكاد ينجح في مهمته مع قومه لولا أنهم نكسوا علي رؤسهم .. وهي " إبراهيم " أيضاً، في سورة مريم حينما رأى نفسه عاجزاً عن هداية أبيه وهو أقرب الناس إليه وأكرمهم عليه إلى الإيمان بدعوته

أما وحدة الموضوع فهي بالجملة طلب " إبراهيم " وهو يباشر دعوته أن يقتنع

هو بها بينه وبين نفسه، ثم محاولته أن يقنع بها قومه ثم عجزه عن إقناع أبيه وما تخلل ذلك من إلقائه في النار، وإقدامه علي ذبح إسماعيل ونجاته من النار ونجاة ابنه من الذبح، وهجرته إلى مكة مع زوجته هاجر وبناء الكعبة وأخيراً مشيئة الله وقدرته في الهداية والإرشاد..

هذه هي الوحدة القصصية في قصة إبراهيم ومثلها في قصص الأنبياء^(١١) وأما من يقول بالتعارض في قصص القرآن من المحدثين، فإنها يعني تناقضاً، في حين أن التناقض معدوم، لانعدام شروطه المتفق عليها عند علماء المنطق: وهي الاختلاف بين قضيتين في الكم والكيف والجهة، والاتفاق بينهما في وحدات ثمانية: الموضوع والمحمول والزمان والمكان والإضافة والشرط والقوة والفعل والجزء والكل^(١٢).

وإذا أمعنا النظر فيما يبدو لنا من اختلاف بين سورتين أو أكثر في القصة القرآنية الواحدة علي ضوء هذه القاعدة المنطقية، فلا بد أن نهتدي إلى انعدام وحدة فأكثر من تلك الوحدات التي لا يكون التناقض إلا بتوفرها معاً. وإذا فلا تناقض.. وذلك ما أردنا توضيحه فيما يتعلق بقضية قد شغلت حيزاً في فكر المفكرين والباحثين نخلص إلى أن ما توهمه البعض من أنه تكرار لا ينقص من عظمة وإعجاز القصص القرآني كما نودّ أن نقول إن التكرار لم يقع مطلقاً في قصص القرآن الكريم، وإنما التكرار وقع على بعض الحلقات في القصة ليس فيها كلها فورود القصة الواحدة - في معظم الحالات - مكررة في مواضيع شتى لا يتناولها كلها - غالباً - إنما هو تكرار لبعض حلقاتها ومعظمه إشارات لموضع العبرة فيها أما جسم القصة كلها فلا يكرر إلا نادراً، ولمناسبات خاصة في السياق اقتضاها الموقف الذي نزلت فيه وهذا ما يؤكده علماء التفسير عند ذكرهم أسباب النزول لكل قصة علي حدة وإن كانت جميعها متداخلة أو تمثل مرحلة واحدة.. وأن الإنسان حين يقرأ هذه الحلقات المكررة من القصة الواحدة ملاحظاً السياق الذي وردت فيه يجدها مناسبة لهذا السياق تماماً في اختيار الحلقة التي تعرض هنا أو هناك، وفي طريقة عرضها كذلك، علي أن هناك ما يشبه أن يكون نظاماً بحسب ترتيب نزولها - فمعظم القصص يبدأ بإشارات

مقتضبة ثم تطول هذه الإشارات شيئاً فشيئاً، ثم تعرض حلقات كبيرة تكوّن في مجموعها جسم القصة - وقد تستمر الإشارات المقتضبة فيما بين عرض هذه الحلقات الكثيرة عند المناسبات - حتى إذا استوفت القصة حلقاتها عادت هذه الإشارات هي كل ما يُعرض منها^(٢٣)

وفيما عدا التحليل النادر الذي يكرر بلفظه لهدف مقصود، نجد أن الظاهرة الحقيقية ليست هي " التكرار " وإنما هي التوزيع، ولنتبع ذلك في بعض قصص القرآن:

١- لتأمل معاً قصة " موسى عليه السلام " في معارضها المختلفة استيضاحاً عند التزام البيان القرآني لمنهجه، وتقديرًا لتلك الخصيصة الفنية في القصص القرآني نلاحظ:

(أ) إن المواطن القرآنية التي ذكرت فيها قصة موسى - لا موسى فحسب - تبلغ إحدى عشرة سورة وهي: (البقرة - المائدة - الأعراف - يونس - الكهف - طه - الشعراء - النمل - القصص - غافر - النازعات) منها سورتان مدينتان هما (البقرة والمائدة) ..

ويلاحظ أن ما جاء في البقرة إنما هو في ثنايا قصة بني إسرائيل الممتدة عبر تاريخ طويل مع موسى وغير موسى، فذكر طرف من قصة موسى معهم في سورة البقرة جاء عرضاً في أثناء تذكير الله إياهم بما كان منه من إكرام لهم، وما كان منهم من عناد وصد عن دين الله، وكفران بأنعم الله سبحانه: " وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ " (البقرة: ٥٠)

وقد وردت تفصيلات هذه النجاة في السور المكيّة التي نزلت من قبل أما هنا فهي مجرد التذكير لقوم يعرفون القصة . سواء من القرآن المكي، أو من كتبهم وأقاصيصهم المحفوظة . إنما يذكرهم بها في صورة مشهد، ليستعيدوا تصورهما، ويتأثروا بهذا التصور، وكأنهم هم الذين كانوا ينظرون إلى فرق البحر، ونجاة بني

إسرائيل بقيادة موسى - عليه السلام - علي مشهد منهم ومرأى، وخاصة الاستحياء هذه من أبرز خصائص التعبير القرآني العجيب^(٢٤).

(ب) إن السور التي تعرضت لقصة موسى منها عشرين مشهداً هي:

١- ما أحاط بولادة موسى من أحداث ودفعت فرعون إلى تقتيل من يولد ذكراً لبني إسرائيل.

٢- خوف الأم علي وليدها وما أوحى به الله إليها

٣- وقوع موسى في يد فرعون وموقف امرأته منه.

٤- إشفاق أمه عليه وبحثها عنه.

٥- إعادته إليها لترضعه بعد أن يمتنع عن المرضعات .

٦- بلوغه مرحلة الشباب وما كان منه في تلك الفترة، من معاونة

الإسرائيلي علي قتل المصري، ثم فراره حين علم بائتمام القوم به .

٧- اتجاهه إلى مدين، والتقاؤه شيخ مدين، وتزوجه إحدى ابنتيه.

٨- عودته إلى مصر بأهله وما وقع في رحلة العودة.

٩- تكليفه بالرسالة، وتخوفه من لقاء فرعون، وطلبه من الله أن يعينه

بهارون أخيه.

١٠- مواجهة موسى لفرعون

١١- إيمان السحرة .

١٢- خروج موسى ببني إسرائيل من مصر، وتعقب فرعون لهم.

١٣- مطالبة بني إسرائيل موسى أن يجعل لهم صنماً .

١٤- دعوتهم إلى دخول الأرض المقدسة.

١٥- معاقبتهم بالتيه .

١٦- خروج موسى لميقات ربه مستخلفاً هارون في قومه .

١٧- لقاء موسى بربه وعودته.

١٨ - غضب موسى لاتخاذ بني إسرائيل العجل.

١٩ - طلبهم رؤية الله جهرة .

٢٠ - استسقاء موسى لقومه.

هذه هي قصة موسى مع بني إسرائيل من مبدئها إلى منتهاها، وهي لم تأت كاملة في موضع واحد من القرآن الكريم، بل اشتملتها إحدى عشرة سورة واختصت كل سورة بعدة مشاهد منها - علي حسب ما يقتضيه السياق - بحيث تبدو في تفردا قصة مستقلة متكاملة البنيان واضحة الحدود.

فإذا أخذنا كل حلقة من تلكم الحلقات، ونسقناها مع غيرها، رأينا القصة الشاملة لحياة موسى كلها مع بني إسرائيل، متكاملة البنيان، متلاحمة النسيج، تربطها الوحدة بمختلف مظاهرها - علي الرغم من توزعها هذا التوزع - سواء وحدة الموضوع، أو وحدة السياق التعبيري، أو وحدة الجو النفسي دون أن نري فيها تكراراً، أو تحتاج إلى توضيح أو تبيين، وهذا إحكام وقدرة لا طوق لمخلوق علي السير في طريقها^(١).

وسنكتفي فيما يلي بعرض المشاهد السبعة الأولى (من الولادة إلى البعث) وسنجد أنها قدمت في سورتين في معارض مختلفة، وبتفاوت فيما بين كل موضع هما سورة (طه) وسورة (القصص).

أما لقطات (القصص) فيبرزها قوله تعالى:

١ - " إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ "

٢ - " وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ "

٣- " فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ هُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ وَقَالَتْ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنِي لِئَلَّا تُقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ " .

٤- " وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ " .

٥- " وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ " .

٦- " وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَىٰ الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِينٌ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ آتَمَرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الظَّالِمِينَ " .

٧- " وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدَرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَىٰ هُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَىٰ

الظِّلُّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أُمَمْتُ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلِينَ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ" (سورة القصص: الآيات من ٤-٢٨).

ولقطات (طه) يبرزها قوله تعالى:

١، ٢: " وَلَقَدْ مَنَّآ عَلَىكَ مَرَّةً أُخْرَى إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ أَنْ اقْدِفِي فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِي فِي الْيَمِّ .

٣: " فَلْيَلْفِهَ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوُّ لَهٗ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي " .

٤: " إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ " .

٥: " فَارْجِعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ " .

٦: " وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا " .

٧: " فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ " (سورة طه: الآيات من ٣٧-٤٠).

واضح من هذه النظرة ما بين الحلقتين من اختلاف بين، يقرره السياق: فالمشاهد في سورة القصص، بناء قصصي مقصود ليرى بنو إسرائيل منها فضل الله عليهم، ويرى فيها غير بني إسرائيل أنموذجاً بشرياً يحرك الصراع بين الحق والباطل ولكن الله يتدخل المرة بعد الأخرى ليوجه الصراع في الواجهة التي تحقق النصر في النهاية للحق وأعدائه..

أما في سورة " طه " فالمشاهد لا تعدو أن تكون إشارات سريعة تلفت نظر

موسي إلى وقوف الله بجانبه فيما سبق، مما يؤكد له أنه سبحانه سوف يكون بجانبه في كل خطوة تالية مهما بدا فيها من صعوبات ومشتقات، ولذلك فإن هذه المشاهد إنما جاءت بعد أن كلف موسي بتبليغ فرعون ما أرسل به إليه، فأبدى موسي عليه السلام تخوّفه من فرعون، وطلب من الله أن يشدّ أزره بهارون أخيه، فاستجاب له الله ممتناً عليه بفيض نعمه المتوالي، مشيراً بذلك إلى ما يستوجه من تضحيات، في سبيل الله المنعم الكبير^(٣١).

فهني كما نرى - ليست تكراراً للقصة، ولكنها عدة إشارات اعترضت قصة موسي في سورة " طه " لما ذكرت من أسباب - ثم هي - كما نرى - حديث خاص إلى موسي عليه السلام يذكره بقدره الله التي لا تتناهي ولا تحد . ومن ثم كانت تلكم اللقطات مجملة إجمالاً عجيباً . بحيث لا يكاد الإنسان يحسّ بأن هناك فاصلاً اعترض مسار الأحداث الطبيعي، وبحيث لا تسير المشاهد في طريق قلق، وإن كان هو المسار الطبيعي، فلو زادت هذه اللقطات بعض التفصيل لانقطع الخيط الذي يربط القارئ بالقصة الأصلية، ولو أجملت اللقطات أكثر من ذلك - وهو غير ممكن البتة - أو حذفت وسارت القصة في طريقها من غير اعتراض لأصبحت القصة قلقة، ولأصبح بناؤها مهلهلاً^(٣٢).

لا شك أن توزيع القصة الواحدة في عدة سور يؤدي إلى اختلاف عوامل التأثير في النفس الإنسانية، وذلك لتجدد الأسلوب في الأداء تجدداً يمدّ المشاعر بنشاط لا يفتر. فهذا عرض جديد لقصة " نوح " في سورة (القمر)، وقد سيقّت لإنذار المُعرضين عن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم - بما أصاب قوم " نوح " أول المكذبين برسالات السماء - من نكال وعذاب . وهي في هذه السورة الحلقة الأولى من خمس حلقات جسّمت كلها مصارع قوم نوح وعاد وثمود ولوط وفرعون في جو مفزع رهيب:

" كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ فَفَتْحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ

عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَابٍ وَدُسرٍ نَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِمَنْ كَانَ كُفِرَ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ " (القمر: ٩-١٦).

وأخصّ ما يمتاز به أسلوب العرض هنا: الإيجاز البليغ، والإيقاع الموسيقي السريع، ولا شك أن للرنين الصوتي أثره القوي في تصوير الحادثة، شأن القصص الذي نزل في الفترة الأولى للدعوة . فقد كان يعتمد علي الإيجاز والموسيقا اللفظية الأخاذة، وإيراز الحوادث لزلزلة المشركين من موقف العناد.

وقد ذكر الله قصة نوح وما كان من قومه في عشر سور، وهذا التوزيع مقصود في القرآن، لأنه ليس الغرض من عرض القصة القرآنية تعليم التاريخ منها، بل بناء الأفكار والمشاعر عليها في شتى المناسبات، وبمختلف الأساليب .

" ولا شك أن ذكر جانب من القصة في سورة لم يذكر في سورة أخرى أثناء عرضها لتلك القصة نفسها، هو من سمات المنهج القرآني في القصة باقتصارها علي موطن القصة منها، واختلاف المناسبات التي تعرض فيها يسمح بإعادة ذكرها أو ذكر حلقة منها بأسلوب يلائم تلك المناسبة . وهو ميدان فسيح للتصوير الفني والقيم التعبيرية، وتفنن القرآن في المعاني باختلاف طرق أدائها وأساليب عرضها هو من آيات إعجازه البياني " (٣٨).

وتوزيع القصة الواحدة في القرآن الكريم في عدة سور هو من آثار خضوعها للغرض الديني، حيث تعرض بالقدر الذي يكفي لأداء هذا الغرض، ومن الحلقة التي تتفق معه، فمرة تعرض القصة من أولها، ومرة من وسطها، ومرة من آخرها، وتارة تعرض كاملة، وتارة يكتفي ببعض حلقاتها، وتارة تتوسط بين هذا وذاك، حسبما تكون العبرة في هذا الجزء أو ذلك، علي النحو التالي:

أ- نجد قصصاً تعرض منذ الحلقة الأولى: حلقة ميلاد بطلها، لأن في مولده عظة بارزة وذلك مثل: قصة آدم (منذ خلقه) وفيها مظهر لقدرة الله، وكمال علمه، ونعمته علي آدم وبنيه .. ومثل مولد " عيسي ابن مريم " : وهو يعرض بتفصيل كامل، ذلك أن مولده هو الآية الكبرى في حياته، وحول هذا المولد قام الجدل كله،

وعنه تفرعت كل قضايا المسيحية قبل الإسلام وبعده... وقصة " مريم " : فقد نذرت لله وهي في بطن أمها، وتولي كفالته زكريا، ثم رزقت منذ مولدها رزقاً حسناً من عند الله، فكانت " كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ " (آل عمران: ٣٧)... ثم تطوي حلقاتها حتى تأتي حلقة ميلاد عيسى، وهي الحلقة المهمة الثانية في حياتها، وقصة " موسى " : لأن مولده في عهد اضطهاد بني إسرائيل، وتذبيح الذكور من أطفالهم، ونجاته هو من ذلك مع وجوده بين آل فرعون أنفسهم... قيمة خاصة في بيان رعاية الله له، وإعداده إعداداً خاصاً للمهمة التي سينهض بها، ثم تعرض من حياته حلقاتها ذات المغزي.. و " إسماعيل " و " إسحاق " تعرض حلقة مولدهما، لأن في هذا المولد عبرة . فأولهما رزقه إبراهيم علي الكبر، وأسكنه - علي الرغم منه - بجوار البيت المحرم، والثاني بُشِّر به وامرأته عجوز . وقد بلغ من الكبر عتياً - وكذلك يذكر مولد يحيى لزكريا بعد أن وهن منه العظم واشتعل الرأس شيباً^(٣١)

ب- ونجد قصصاً أخرى تعرض من حلقة متأخرة نسبياً: فإبراهيم تبدأ قصته فتي ينظر في السماء فيري نجماً، فيظنه إله، فإذا أفل قال لا أحب الآفلين . ثم ينظر مرة أخرى فيري القمر، فيظنه ربه، ولكنه يأفل كذلك، فيتركه ويمضي . ثم ينظر إلى الشمس فيعجبه كبرها، ويظنها - ولا شك - إلهاً، ولكنها تخلف ظنه هي الأخرى، فيفيء إلى ربه الذي لا يرى .. ويدعو أباه وقومه إلى هذا الإله الواحد فلا يجيبونه، فيحطم أصنامهم في غفلة منهم حيث يقولون: " قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ " (الأنبياء: ٦٠)، ويهمون بإحراقه فينجيه الله منهم: " قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ " (الأنبياء: ٦٩).

ج- ثم نجد قصصاً لا تعرض إلا في حلقة متأخرة جداً: فنوح وهود وصالح ولوط وشعيب، وكثيرون غيرهم، لا تعرض قصصهم إلا عند حلقة الرسالة وهي الحلقة الوحيدة التي تعرض من حياتهم، لأنها أهم حلقة منها، والعبرة كامنة فيها^(٣٢).

- وتوزيع القصة الواحدة في عدة سور من القرآن الكريم كان من دوافعه التناسق المعنوي والنفسي بين القصص التي يعرضها القرآن والسياق الذي يعرضها فيه، وانسجام عرضها في هذا السياق مع الغرض الديني والمظهر الفني سواء بسواء^(٣١).

- فالله سبحانه وتعالى ذكر قصة قوم نوح، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، وموسي في سورة (الأعراف، وهود، والشعراء) ولم يذكر معهم قصة إبراهيم، وإنما ذكرها في سورة (الأنبياء، ومريم، والعنكبوت، والصفات) .

والسرّ في ذلك أن تلك السور الأولى ذكر الله فيها نصر رسله بإهلاك قومهم، ونجاة الرسل وأتباعهم. وهذه السور لم يقتصر فيها علي ذكر من أهلك من الأمم، بل كان المقصود ذكر الأنبياء، وإن لم يذكر قومهم، ولهذا سميت سورة الأنبياء، فذكر فيها إكرامه للأنبياء، وبدأ فيها بقصة إبراهيم، إذ كان المقصود ذكر كرامته الأنبياء قبل " محمد "، و " إبراهيم " أكرمهم الله، وهو خير البرية، وهو أب أكثرهم، وليس هو أب نوح ولوط، ولكن لوط من أتباعه، وأيوب من ذريته، بدليل قوله تعالى في سورة الأنعام: " وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ " (الأنعام: ٨٤).

وأما سورة (العنكبوت)، فأثّه سبحانه وتعالى ذكر فيها امتحانه للمؤمنين، ونصره لهم، وحاجتهم إلى الجهاد، وذكر فيها حُسن العاقبة لمن صبر، وعاقبة مَنْ كَذَّبَ الرسل، فذكر قصة إبراهيم، لأنها من النمط الأول.

وكذلك في سورة الصفات قال فيها: " وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنْذِرِينَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ " (الصفات: ٧٣، ٧٢، ٧١)، وهذا يقتضي أنها عاقبة رديئة، إما بكونهم غلبوا وذلوا، وإما بكونهم أهلكوا ولهذا ذكر قصة " إلیاس " دون غيرها، ولم يذكر إهلاك قومه، بل قال " فَكَذَّبُوهُ فَأَتَاهُمُ الْمُحْضَرُونَ " (سورة الصفات: ١٢٧). وقد روي الله رفع " إلیاس "، وهذا يقتضي عذابهم في الآخرة، فإن " إلیاس " لم يقم بينهم، و " إلیاس " المعروف بعد " موسي " من بني إسرائيل، وبعد " موسي " لم يهلك المكذبين بعذاب الاستئصال، وبعد "

نوح " لم يهلك جميع النوع، وقد بعث الله في كل أمة نذيراً، والله سبحانه لم يذكر عن قوم إبراهيم أنهم أهلكوا، كما ذكر ذلك عن غيرهم، بل ذكر أنهم ألقوه في النار، فجعلها برداً وسلاماً، وفي هذا ظهور برهانه وآياته، حيث أذهم ونصره، " فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ " (الصافات: ٩٨). وهذا من جنس المجاهد الذي يعرض عدوه، والقصص الأول من جنس المجاهد الذي قتل عدوه، وإبراهيم بعد هذا لم يقيم بينهم بل هاجر وتركهم، وأولئك الرسل لم يزالوا مقيمين بين أظهرهم حتى هلكوا، ولم يوجد في حق " إبراهيم " سبب الهلاك، وهو إقامته فيهم، وانتظار العذاب النازل، وهكذا " محمد صلي الله عليه وسلم - مع قومه، لم يقيم فيهم، بل خرج عنهم حتى أظهره الله عليهم بعد ذلك، و " محمد " وإبراهيم " أفضل الرسل، فإنهم إذا علموا حصل المقصود، وقد يتوب منهم من تاب، كما جري لقوم " يونس "، فهذا التناسق الفني والموضوعي - والله أعلم - هو السر في أنه سبحانه لم يذكر قصة (إبراهيم) مع هؤلاء، لأنها ليست من جنس واقعتهم^(٣).

فإن قيل: فما وجه الخصوصية بمحمد وإبراهيم بذلك؟

فالجواب: أما حالة " إبراهيم " فكانت إلى الرحمة أميل، فلم يسع في هلاك قومه لا بالدعاء ولا بالمقام ودوام إقامة الحجّة عليهم، وقد قال الله تعالى: " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ " (إبراهيم: ١٣-١٤)، وكان كل قوم يطلبون هلاك نبيهم فعوقبوا، وقوم إبراهيم وإن أوصلوه إلى العذاب، لكن جعله الله عليه برداً وسلاماً، ولم يفعلوا بعد ذلك ما يستحقون به العذاب؛ إذ الدنيا ليست دار الجزاء العام، وإنما فيها من الجزاء ما تحصل به الحكمة والمصلحة، كما في العقوبات الشرعية، فمن أرادوا عداوة أحد من أتباع الأنبياء ليهلكوه فعصمه الله، وجعل صورة الهلاك نعمة في حقه، ولم يهلك أعداءه بل أخزاهم ونصره، فهو أشبه بإبراهيم عليه السلام، إذ عصمه الله من كيدهم وأظهره حتى صارت الحرب بينهم وبينه سجلاً، ثم كانت له العاقبة فهو

أشبه بحال محمد - صلي الله عليه وسلم، فإن محمداً سيد الجميع، وهو خليل الله، كما أن إبراهيم عليه السلام خليله، والخليلان هما أفضل الجميع وفي طريقهما من الرأفة والرحمة ما ليس في طريق غيرهما^(٣٣).

ومن دوافع توزيع القصة الواحدة في القرآن الكريم، بيان ما ليس بيتاً في نفسه: ومنه قوله تعالى:

أ- في قصة لوط: " فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ " (الحجر: ٦٥)، فلم يستثن امرأته في هذا الموضوع، وهي مستثناة في المعنى بقوله في الآية الأخرى:

" فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتَكَ " (هود: ٨١)، فأظهر الاستثناء في هذه الآية .

ب- في قصة ضيف إبراهيم: " إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ " (الحجر: ٥٢)، اختصر جوابه لبيانه في موضع آخر: " إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ " (الذاريات: ٢٥) .

ج- في قصة " صالح " مع ثمود: " وَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ " (النمل: ٤٥)، تفسير هذا الاختصاص ما قال في سورة أخرى: " قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ " (الاعراف: ٧٥) .

د- وقوله تعالى في قصة نوح عليه السلام: " أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ " (القمر: ١٠) بين في موضع آخر: " وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا " (الأنبياء: ٧٧) .

هـ - وقوله حكاية عن فرعون لعنه الله: " وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ " (سورة غافر من آية ٢٩) . فرد عليه في قوله: " وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ " (هود: ٩٧)

و- وقوله: " وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ " (البقرة: ٨٨) أي أوعية للعلم، فقيل لهم: " وَمَا أَوْتَيْتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا " (الإسراء: ٨٥) .

ز- وجعل بعضهم من هذا قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام: " قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ " (الأعراف: ١٤٣). قال فإن آية البقرة وهي قوله: " حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً " (البقرة: ٥٥)، تدل علي أن قوله، ولم يثبت في التوراة أنه سأل الرؤية إلا وقت حضور قومه معه، وسؤالهم ذلك ^(٣٤).

ومن هذا العرض يتقرر أن القصص القرآني له سماته التي تميّزه وله خصائصه الفنية التي ترقى به عن متناول المخلوقين، وأنه لم يلبسه شيء من الخيال القصصي، ولم يدخل عليه شيء غير الواقع، إذ هو ليس عملاً فنياً مستقلاً، في موضوعه، وطريقة عرضه، وإدارة أحداثه، كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة التي ترمي إلى أداء غرض فني مجرد. إنما هو - إلى جوار كونه عملاً فنياً - خاضع في موضوعه، وفي طريقة صوغه، وإدارة حوادثه لمقتضي الأغراض الدينية، ومع ذلك فإنه ليستعمل - مع قيامه على الحقائق المطلقة من ألوان الإثارة والتشويق ما لم يشتمل عليه غيره من القصص.

وبتعبير آخر نقرّر أن القصة القرآنية تخاطب العقل بأصدق منطق وأوضحه وهي في الوقت ذاته تخاطب الوجدان والمشاعر بأقرب حديث إليها وأحبه - كما هو الشأن في سائر التعبيرات القرآنية - إذ يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير في الوجدان، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية، والوجدان الذي يدرك الجمال الفني الرفيع ويتأثر به يصبح وجداناً حسن الاستعداد لاستقبال المؤثرات الدينية والتأثر بها.

" ومن ثم كانت الوحدة في القصة القرآنية علي غير ما عهد المخلوقون من أدباء ونقاد، فهي وحدة في الموضوع، ووحدة في الجو، ووحدة في النسق، ووحدة في المنهج التأثيري، ووحدة في المسار القرآني علي عمومته، فالقصة في سور القرآن جزء منها متلاحم أتم التلاحم لا نحس تبايناً، ولا نجد افتراقاً، فالقصة في السورة مثل الآية فيها، تمثل اللبنة في البنية المحكمة القوية " ^(٣٥).

بد القصة الكاملة في القرآن الكريم:

هناك قصص وردت في حلقة كاملة في موضع واحد في القرآن الكريم، ولم يتم توزيعها في حلقات علي سور القرآن الكريم مثل بقية قصصه، كقصة " البقرة التي أمر بنو إسرائيل بذبحها في " سورة البقرة "، وقصة أصحاب القرية في سورة " يس، وقصة نبأ الخضم إذ تسوروا المحراب في سورة " ص "، وقصة " موسى والخضر، وكذلك قصة أصحاب الكهف " وصاحب الجنتين، وذو القرنين وغيرها، لكن الأمر يختلف في قصة يوسف للأسباب الآتية:

أولاً: انفردت قصة يوسف بسورة كاملة من طوال السور، سميت باسم " يوسف " الذي تدور حوله معظم أحداث القصة ... وهذا ما لم يكن لأية قصة أخرى من قصص الأنبياء غير نوح عليه السلام، الذي سميت باسمه سورة من قصص السور، هي سورة نوح، علي حين أن بعض الأنبياء قد سُميت بعض السور باسمهم كسورة هود وسورة إبراهيم، ولكنها لم تكن خالصة للحديث عنهم، بل شاركهم في ذلك غيرهم من الأنبياء^(٣٦).

ثانياً: جاءت قصة يوسف في معرض واحد في القرآن الكريم، وفي ثمان وتسعين آية، ابتداء من الآية الرابعة من السورة إلى الآية الواحدة بعد المائة .. وهذه ظاهرة لم تكن في قصة نبي من الأنبياء، حيث تتعدد المعارض، وتوزع المشاهد في كل قصة، فالقصص القرآني - غير قصة يوسف - يرد حلقات، تناسب كل حلقة منها أو مجموعة حلقات موضوع السورة واتجاهها وجوها . وحتى القصص الذي ورد كاملاً في سورة واحدة كقصص هود وصالح ولوط وشعيب ورد مختصراً مجملاً. أما قصة يوسف فوردت بتامها وبطولها في سورة واحدة، وهو طابع متفرد في السور القرآنية جميعاً..

هذا الطابع الخاص يتناسب مع طبيعة القصة، ويؤديها أداء كاملاً ... ذلك أنها تبدأ برؤيا يوسف، وتنتهي بتأويلها، بحيث لا يناسبها أن تكون حلقة منها أو جملة حلقات في سورة وتكون بقيتها في سورة^(٣٧).

وقد علّل " الزركشي " ذلك بوجوه منها:

أ- ما فيها من تشبيب النسوة به، وتضمّن الإخبار عن حال امرأة ونسوة افتتن بأبدع الناس جمالاً، وأرفعهم مثلاً، فناسب عدم تكرارها لما فيها من الإغضاء والستر عن ذلك، وقد صحّح الحاكم في مستدرّكه حديثاً مرفوعاً: النهي عن تعليم النساء سورة يوسف.

ب- إنها اختصت بحصول الفرج بعد الشدّة، بخلاف غيرها من القصص، فإن ما لها إلى الوبال، كقصة إبليس، وقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وغيرهم، فلما اختصت هذه القصة في سائر القصص: بذلك اتفقت الدواعي علي نقلها لخروجها عن سمت القصص.

ج- إشارة إلى عجز العرب، كأن النبي صلي الله عليه وسلم قال لهم: إن كان من تلقاء نفسي تصديره علي الفصاحة، فافعلوا في قصة يوسف ما فعلت في قصص سائر الأنبياء " (٣٨).

أما " الأوسي " فيقول: " إنّ قصص الأنبياء إنما كررت لأن المقصود بها إفادة إهلاك من كذبوا رسلهم، والحاجة داعية إلى ذلك مع كل موقف يتحدث فيه القرآن عن تكذيب الكفار للرسول - صلي الله عليه وسلم -، فلما ساق موقفاً من مواقف التكذيب ساق في أثره قصة منذرة بحلول العذاب لما حلّ بالمكذبين، وقصة يوسف عليه السلام لم يقصد منها ذلك، وبهذا أيضاً يكون الجواب عن عدم تكرير قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين، وقصة موسى مع الخضر، وقصة الذبيح " .

" وقد اعترض بأن قصة آدم عليه السلام كرّرت مع أنه ليس المقصود بها إفادة إهلاك من كذبوا رسلهم: وأجيب بأنها وإن لم يكن المقصود بها إفادة ما ذكر إلا أن فيها من الزجر عن المعصية ما يجعلها أشبه ما تكون بتلك القصص التي كررت لذلك " (٣٩).

ثالثاً: إذا كان للمرأة مكان بارز في قصة يوسف، وإذا كان دور المرأة في تلك القصة هو الدور الذي يشتهي الرجل منها، ويشوّقه الحديث الذي يعرض لوسائل

كيدها، وأساليب إغرائها، وشباك مغامراتها - فإن دورها في القصة لم يكن مستجلباً ليملاً فراغاً فيها.. أو ليلطف من جو المأساة التي ضمت عليها، أو ليجدد نشاط المتلقي لها... وإنما كان حدثاً جارياً مع اتجاه أحداثها، في الصراع بين الخير والشر، فيما بين الناس عامة، وفيما بين الإنسان ونفسه خاصة... وصدق القرآن في نقله للأحداث، وبلاغته في عرضها، هو الذي يعطي القصة القرآنية هذا الجلال، وتلك الروعة التي يستشعر المرء معها ما يستشعر العابد في محراب صلواته ضراعة وخشوعاً، وأن جلال الحق يرتفع بمشاعر الإنسان، ويسمو بمدركاته إلى حيث يعطي الإنسان من ذات نفسه للحق كل ما في وسعه من إيمان به وولاء له..

فالمرأة في القصص القرآني لا تستجلب لغاية غير العبرة والعظة ولا تأخذ مكاناً في القصة إلا حيث تكون درساً مستفاداً في الدعوة إلى الخير والعدل، والإحسان، وفي التنفير من الشر والبغي والعدوان^(٤٠).

والذي نجده في قصة يوسف من روعة البيان وجلال العرض، ومن سمو بالعاطفة، واستعلاء بالنفس علي الشهوات، وقيادتها إلى موقع الخير علي طريق مفروش بالأشواك، محفوف بالمكاره - نجده كذلك في قصة أصحاب الكهف، أو قصة موسى والعبد الصالح مثلاً، وفي كلتا القصتين لا يبدو وجه المرأة ولا يشار إليها من قريب أو بعيد..

رابعاً: في هذه القصة، كما هو الشأن في معظم القصص القرآني يتجلى سلطان "القدر" حيث تجري الأحداث في مجري يري الناس منه ما يكرهون أو يحبون، حسب ما يحسبون ويقدررون، ثم تجيء الخاتمة علي غير ما حسبوا وقدرّوا، إذ الذي حسبه خيراً هو شر، وإذا الذي ظنّوه شراً هو خير، مصداقاً لقوله تعالى: "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" (البقرة: ٢١٦).

خامساً: تتحرك الأحداث في قصة يوسف حركة مسايرة لحركة الزمن، حيث ينمو الحدث نمواً طبيعياً مع سير الأيام والليالي، كما ينمو الكائن الحي ويتطور مع

مسيرة الزمن... فالصغير يكبر والكبير يشيخ ويهرم، والعواطف الشابة الحارة
الثائرة تبرد وتهدأ.. وهكذا تظهر بصمات الزمن على وجوه الناس، وعقولهم
وقلوبهم، كلما خطا بهم الزمن خطوة إلى الأمام.. فالزمن عنصر له مكانه، وله وزنه
وحسابه في تلك القصة^(٤١).

سادساً: إن قصة يوسف هي القصة القرآنية التي جاء في صدرها قول الله تعالى:
"نحن نقص عليك أحسن القصص"، ولذلك نجد من يستند على هذه المقدمة
ويقول: "إن قصة يوسف - من حيث البناء القصصي - هي أجود قصة في القرآن،
ولعله من أجل هذا عدّها القرآن من أحسن القصص حين قال: "نحن نقص عليك
أحسن القصص...."^(٤٢).

وهذا القول معناه أن غير قصة القرآن أقل جودة وأضعف فناً، وهو نقد وحكم
علي القصص لا يتفق مع إعجازه وتحديه، لأن القرآن حين تحدّى العرب أن يأتوا
بمثله لم يقف من مسائل التحدي عند حدود غير القصص، لقد تحدى بالقرآن كله
قصصاً وغير قصص، فقد أبطل هذا القول ذلك النقد حتماً، وإلا لجاأ أحد كتاب
القصص المحدثين المجيدين وعمد إلى قصة قرآنية غير قصة يوسف وجعلها أكثر
فنية حسب المصطلح عليه بين المحدثين، من كتاب القصة ويكون بذلك قد كسر
التحدّي بالقصص القرآني الذي أنزل للبشرية في كل عصر، فإعجازه وتحديه لا
يقتصر على العرب، ولكنه يمتدّ إلى البشرية في كل العصور.

"والخطأ ومنشؤه كامن في الحكم على القرآن بمعيار اصطلاحي لجودة القصص
يشترط وحدة الموضوع وإحكام التصميم وجودة الحبكة والانتفاع بالحوادث
الاستطراذية، والقرآن هو المرجع، وهو الحكم في كل ما تعرض له القرآن قصصاً أو
غير قصص، فناً أو غير فن^(٤٣).

سابعاً: إن قصة يوسف تمثل الأنموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني
للقصة، بقدر ما تمثل الأنموذج الكامل لهذا المنهج في الأداء النفسي والعقدي
والتربوي والحركي أيضاً.. ومع أن المنهج القرآني واحد في موضوعه وفي أدائه، إلا

أن قصة يوسف تبدو وكأنها المعرض المتخصص في عرض هذا المنهج من الناحية الفنية للأداء^(١١):

أ. أشخاص القصة:

أشخاص القصة هنا - علي طولها - يكادون لا يتجاوزون بيت يعقوب إلا بالقدر الذي تطوّرت به الأحداث حين أصبح بطل القصة بعيداً عن أهله، ومع ذلك نلاحظ أن الأشخاص يقدّمون علي حسب الحاجة إليهم في القصة، فليسوا جميعاً علي مستوى واحد، فالمنهج في تقديم الأشخاص إن هو إلا منهج قرآني خاص به، يشفّ عن جانب من الإعجاز البياني، حيث يلتزم بتقديم الشخصية في الحدود التي يحتاجها دورها في القصة، وفي الوقت الذي تطلبها فيه، دون تقصير أو إطالة وتزويد^(١٢).

إن القصة تعرض شخصية يوسف - عليه السلام - وهي الشخصية الرئيسة في القصة - عرضاً كاملاً في كل مجالات حياتها، بكل جوانب هذه الحياة، وبكل استجابات هذه الشخصية في هذه الجوانب وفي تلك المجالات، وتعرض أنواع الابتلاءات التي تعرضت لها تلك الشخصية الرئيسة في القصة، وهي ابتلاءات متنوعة في طبيعتها وفي اتجاهاتها.. ابتلاءات الشدة وابتلاءات الرخاء.. وابتلاءات الفتنة بالشهوة، والفتنة بالسلطان، وابتلاءات الفتنة بالانفعالات والمشاعر البشرية تجاه شتي المواقف وشتي الشخصيات.. ويخرج العبد الصالح من هذه الابتلاءات والفتن كلها نقياً خالصاً متجرداً في وقفته الأخيرة، متجهاً إلى ربه بذلك الدعاء المنيب الخاشع:

" رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ " (يوسف: ١٠١).

وإلى جانب عرض الشخصية الرئيسة في القصة تعرض الشخصيات المحيطة بدرجات متفاوتة من التركيز، وفي مساحات متناسبة من رقعة العرض، وعلي أبعاد

متفاوتة من مركز الرؤية، وفي أوضاع خاصة من الأضواء والظلال.. وتتعامل القصة مع النفس البشرية في واقعيتها الكاملة، متمثلة في نماذج متنوعة: أنموذج يعقوب الوالد المحب الملهوف والنبى المطمئن الموصول.. وأنموذج أخوة يوسف وهواتف الغيرة والحسد والحقد والمؤامرة والمناورة، ومواجهة آثار الجريمة، والضعف والحيرة أمام هذه المواجهة، متميزاً فيهم أحدهم بشخصية موحدة السمات في كل مراحل القصة ومواقفها..

وأنموذج امرأة العزيز بكل غرائزها ورغائبها واندفاعاتها الأنثوية، كما تصنعها وتوجهها البيئة المصرية الجاهلية في بلاط الملوك، إلى جانب طابعها الشخصي الخاص الواضح في تصرفها وضح انطباعات البيئة..

وأنموذج النسوة من طبقة العلية في مصر، والأضواء التي تلقيها علي البيئة، ومنطقها كما يتجلى في كلام النسوة عن امرأة العزيز وفتاها، وفي إغرائهن كذلك ليوسف وتهديد امرأة العزيز له في مواجهتهن جميعاً وما وراء أستار القصور ودسائسها ومناوراتها، كما يتجلى في سجن يوسف بصفة خاصة.. وأنموذج " العزيز " وعليه ظلال طبقته، وبيئته في مواجهة جرائم الشرف من خلال مجتمعه، فتتضح في شخصيته طبيعة سمت الإمارة، ثم ضعف النخوة وغلبة الرياء الاجتماعي وستر الظواهر وإنقاذها، وفيه تتمثل كل خصائص بيئته.. وأنموذج " الملك " في خطفة يتوارى بعدها كما توارى العزيز في منطقة الظلال بعيداً عن منطقة الأضواء في مجال العرض المتناسق.. وتبرز الملامح البشرية واضحة صادقة بواقعية كاملة في هذا الحشد من الشخصيات والبيئات، وهذا الحشد من المواقف والمشاهد، وهذا الحشد من الحركات والمشاعر.. ومع استيفاء القصة لكل ملامح " الواقعية " السليمة المتكاملة وخصائصها في كل شخصية وفي كل موقف وفي كل خالجة.. فإنها تمثل الأنموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقصة، ذلك الأداء الصادق، الرائع بصدقه العميق وواقعيته السليمة.. المنهج الذي لا يهمل خلجة بشرية واقعية واحدة، فقد ألت القصة بألوان من الضعف البشري، بما فيها لحظة الضعف الجنسي. ودون أن تزور - أي تزوير - في تصوير النفس البشرية بواقعيته

الكاملة في هذه المواقف، ودون أن تغفل أية لمحة حقيقية من لمحات النفس أو الموقف، فإنها لم تسف قط لتنشئ مستنقعا مقززاً للفطرة السليمة، وظلت القصة صورة نظيفة للأداء الواقعي الكامل في تنوع الشخصيات وتنوع المواقف^(٤١).

بد أحداث القصة:

والواقعية الصادقة الأمانة النظيفة السليمة في الوقت نفسه، لا تقف عند واقعية الشخصيات الإنسانية التي تحفل بها القصة في هذا المجال الواسع، على هذا المستوي الرائع، ولكنها تتجلى كذلك في واقعية الأحداث والسرد والعرض وصدقها وطبيعتها، في مكانها وزمانها، وفي بيئتها وملابسها.. فكل حركة وكل خالجة وكل كلمة تجيء في أوانها، وتجيء في الصورة المتوقعة لها وتجيء في مكانها من مسرح العرض، متراوحة بين منطقة الظل ومنطقة الضوء بحسب أهميتها ودورها وطبيعة جريان الحياة بها..

حتى لحظات الجنس في القصة ومواقفه أخذت مساحتها كاملة - في حدود المنهج النظيف اللائق " بالإنسان " في غير تزوير ولا نقص ولا تحريف للواقعية البشرية في شمولها وصدقها وتكاملها - ولكن استيفاء تلك اللحظات لمساحتها المتناسقة مع بقية الأحداث والمواقف لم يكن معناه الوقوف أمامها كما لو كانت هي كل واقعية الكائن البشري. وكما لو كانت هي محور حياته كلها^(٤٢) فلا شك أن هناك مواقف كثيرة كانت بين امرأة العزيز وفتاها، ولكن شيئاً من ذلك لا علاقة له بمسار القصة، ولذلك أسدل عليه الستار، حتى يخيل للناظر أن موقف المرادة لا غير هو الذي كان ... كما أن البيان القرآني يتجاوز الحديث عن تسرب نبأ المرادة من قصر العزيز إلى نساء المدينة . إذ لا يضيف ذلك للقصة جديداً، بل إنه يعترض تحرك القصة في مسارها الطبيعي، فهي أحداث ومواقف استطراذية لا تتعلق بالحدث الرئيس، ولا تضيف إليه ما ينميه ويطوره في السبيل القصصي، فالفنية البيانية ترفض الاشتغال بأي شيء من ذلك في هذه القصة^(٤٣).

وعلي العكس من ذلك، فإن كل ما تناولته القصة والأحداث والمواقف يمد

الحدث الرئيس بزاد ينمو به في مساره المخصوص به، فتنشئة الغلام في بيت العزيز تقوي آصرة المرأة به، بما يطمعها فيه، ويغريها به، ويوقعه في محنة تصهر نفسه وتخلصها من أوشابها وأوضارها، حيث يصل به تماسكه أمامها إلى السجن وظلماته، وهو صابر على كل ما يعانیه دون أن يستسلم لدواعي الخيانة، تمهيداً لأن يتولى أخطر منصب في الدولة في أعصب وقت تمرّ به البلاد.. فتماسك يوسف أمام المرادة والإصرار عليها، والتهديد بسببها لا تهدف القصة من ورائه إلى بيان عفة يوسف، فهذا غرض جانبي لا تقوم عليه لذاته، وإنما هي تهدف إلى أن هذا الموقف اليوسفي رشحه لأن يكون على خزائن الأرض، لأنه كما قال للملك - حفيظٌ عليم، وقيامه على خزائن الأرض منحه فرصة الالتقاء بإخوته القادمين للحصول على الزاد.. وهكذا تحركت القصة من هذا المنطلق إلى نهايتها.. فتأبى يوسف على الخيانة ليس خصوصية له؛ إذ جميع الأنبياء والمرسلين صفوة مختارة من بين الناس، يتميزون على غيرهم باشتغالهم على صفات الخير جميعها، وتأبيهم على صفات الشر جميعها، فليس يوسف في ذلك فلتة، لكن البيان القرآني ركز في قصة يوسف على تلك الصفة لأنها تسلم إلى الأحداث التالية وتنميتها، لتصل إلى تحقيق رؤياه التي رآها في طفولته^(١٤). فهناك حبكة بين التقدمة للقصة والتعقيب عليها، الذي يواجه تكذيب قريش بالوحي إلى رسول الله - صلي الله عليه وسلم - بتقرير مأخوذ من هذا القصص الذي لم يكن رسول الله - صلي الله عليه وسلم - حاضراً وقائعه:

" ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ " (يوسف: ١٠٢).

وهذا التعقيب يترابط مع التقديم للقصة في الاتجاه ذاته:

" نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ " (يوسف: ٣).

والتقديم والتعقيب على هذا النحو يؤلفان مؤثراً موحياً من المؤثرات الكثيرة في سياق القصة، لتقرير الحقيقة التي يعرضانها، وتوكيدها، في مواجهة الاعتراض

والتكذيب.. وما يسمى بالعقدة الفنية واضح في القصة، فهي تبدأ بالرؤيا يقصّها يوسف علي أبيه، فينبئه أبوه بأن سيكون له شأن عظيم، وينصحه ألا يقصّها علي إخوته كي لا يثير حسدهم فيغريهم الشيطان به فيكيدون له... ثم تسير القصة بعد ذلك، وكأنها هي تأويل للرؤيا ولما توقعه يعقوب من ورائها حتى إذا اكتمل تأويل الرؤيا في النهاية أنهى السياق القصة، وبذلك تجيء الخاتمة فتحلّ العقدة حلاً طبيعياً لا تعمل فيه ولا اصطناعاً^(١٠).

وهكذا تتلاحم مواقف القصة ومشاهدها تلاهما عفويّاً طبيعياً، لا قلق فيه، ولا اصطناع، في أحداثها ولا اضطراب في تتابعها، ولا انحراف في مسارها، بحيث لا نعثر في حياة يوسف علي حدث يفيد تلك القصة إلا وجدناه في مكانه منها بالقدر الذي يحتاجه البناء القصصي.

ثامناً: الجانب النفسي في القصة:

من المناسب القول إنّ قصة يوسف في القرآن هي قصة الشخصية والأحداث معاً، فهي لا تسجل واقعاً فحسب، ولكنها تنتصر للقيم الإنسانية الجديرة بالخلود، إنها^(١١) تنتصر للإيمان، للصبر، للعفاف، للأمانة، للإخلاص..

وقد أبرزت صراع النفس أملاً في الحظوة، أو إشباعاً لظماً الحبّ، وقام بالأدوار فيها شخصيات متباينة في السنّ، وفي المكانة الاجتماعية. ولكل منها طابعها الخاص وفق التربية والتجارب التي مرت بكل منها: كالبراءة، والحسد، والعلم، والحكمة.

" وهكذا فإن الدارس لهذا القصة في القرآن يستطيع أن يبرز شحنات نفسية من أبطال القصة، ومن بعض كلماتها وإشاراتها، فنحن نلاحظ كلمة الصبر مثلاً، كانت دائماً على لسان يعقوب، والاستعاذة من الظلم على لسان يوسف، وتوكيد الإيمان على لسان إخوته. كما نلاحظ أن في الإمكان وضع عناوين لبعض السلوك الذي فرط من شخصياتها. كالتبرير والإسقاط والكذب والغيرة، والقلق، والإحساس بالذنب، ونحو ذلك من الحيل اللاشعورية التي يلجأ إليها الإنسان في معاملاته النفسية، والتي يسميها علم النفس " آيات عقلية "، يغالب بها المرء إحباطه وقلقه وتوتره الناشئ عن فشله، وهو يحاول تحقيق رغباته "

فإخوة يوسف مثلاً ظلوا ضحايا الكبت الذي عانوه، كي يخفوا رغبتهم في التخلّص من يوسف، حتى يخلو لهم حبّ أبيهم، ولكنهم كانوا يفشلون في إخفائها وكبتها، بل كثيرا ما تبدو فيما يصدر عنهم من مواقف أو كلمات ضد يوسف، مما جعل يعقوب يشك في حسن نيّاتهم عندما دعوا يوسف أن يلعب . فقال لهم :

" وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ " (يوسف : ١٣)

وكان من نتيجة هذا الكبت ومعاناته أن انحرفوا بتفكيرهم .. فكل ما كان يهّمهم تحقيقه هو أن يحولوا بين يوسف وأبيه، فاتفقوا على قتله، وتلطّيح قميصه بالدم، وادّعاء أن الذّب أكله لما ذهبوا يتسابقون وتركوه عند متاعهم . ولكن التلفيق كان واضحا، لأن القميص لم يكن ممزقا بأثار أسنان الذّب، مما جعل يعقوب لا يصدقهم . ولهذا كان يدعوهم دائما إلى أن يتقصّوا آثار أخيهم، ولو أنه صدّقهم في دعواهم لما أصّر على أن يقتفوا آثاره ..

وقد وقعوا في حالة (التبرير) كما يفعل الذّب، إذ يعمد إلى تفسير سلوكه لبيّن نفسه وللناس أن لسلوكه هذا أسبابا معقولة، فهم يقولون: " قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذُّبُّ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ " (يوسف : ١٧) .

وإذا كان " الإسقاط " هو حيلة يسقط بها المرء نقائصه وعيوبه على الآخرين .. ويهّمه بالدرجة الأولى أن يلصقها بمن يظن أنه ينافسه مباشرة، وإذا كان هذا هو مفهوم الإسقاط في علم النفس، فإن القرآن الكريم روى ذلك عن إخوة يوسف، حينما دسّ يوسف صاع الملك في متاع أخيه، وألقى القبض عليه بتهمة السرقة ليستبقيه، دون أن يكشف لهم عن شخصيته . إذ تقول الآية الكريمة على لسانهم:

" إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ " (يوسف : ٧٧)

ولو استقصينا لوجدنا في السورة آيات أخرى تتحدّث في بساطة عن أدقّ النظريات لعلم النفس الحديث^(٤١) .

تاسعاً: الإعجاز البياني في القصة:

أن المتأمل في بناء القصة يجد أن التلازم بين أحداثها ومواقفها ومحورها، ليس هو مظهر الإحكام والتناسق في البناء القصصي فحسب، بل يجد أن من ذلك - كذلك - التلاؤم بين الأحداث والمواقف وبين العبارات البيانية، فالعبارة القرآنية تؤدي في ذلك المجال دوراً مهماً، بحيث لا تنفصل عبارة واحدة عن موقعها، فهي بمعناها وإيائها وظلالها كيان حي في جسم القصة النابض:

١ - نلمس ذلك في نداء يوسف أباه في مبتدأ القصة حيث كان غلاماً صغيراً، بقوله: "يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً... " وفي خاتمة القصة حيث كان رجلاً مكتملاً مسئولاً بقوله: "يا أبت هذا تأويل رؤياي... " فالتاء توحى بتعلق يوسف بأبيه، وما يكنه له من حبٍّ وودٍّ لا يتأثران بمرور الزمان ولا بتغيّر الأحوال، فيوسف عزيز مصر أمام أبيه هو يوسف الطفل الذي يقصّ رؤياه على أبيه. وفارق بين يوسف في ذلك وبين إخوته الذين شابت عاطفتهم نحو أبيهم شوائب المادة فلم يروا فيه سوي أب فقالوا: "... يا أبانا استغفر لنا..." وبذلك فإننا مع يوسف نكاد نري عاطفة البنوة شاخصة محسوسة.

٢ - ونلمس ذلك في الفجوة بين حديث الابن مع أبيه وتأمّر الإخوة التي تحدثها "لقد" في قوله تعالى: "لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين.." فبالإضافة إلى معناها اللغوي الذي يمنحه التعبير من تحقيق وتأکید لما يليها من أحداث تهيئ الذهن إلى أن هناك تغيّراً في العواطف البشرية وانتقالاً من الحبّ الأبوي الخالص إلى غيرة الإخوة وتحاسدهم الممثلين في تأمرهم علي يوسف، وتومئ إلى أن هناك مشهداً في القصة خطيراً يوشك أن تبدأ أحداثه^(٥٦)

٣ - ونلمس ذلك في قوله تعالى: "قال قائل منهم... " فإسناد القول إلى قائل من الإخوة بدلاً من إسناده إلى واحد منهم أو نحو ذلك، يومئ إلى أن هذا القول كان في أثناء نقاش، وأخذ ورد بين الإخوة فيما يصنعونه للتخلّص من يوسف، فهو قول مسبوق، بأقوال، صدر من بعض القائلين.

٤- ونلمس ذلك في قوله تعالى على لسان هذا القائل من إخوة يوسف: " ... إن كنتم فاعلين "، فتعليق رأيه على هذا الشرط يوحى بأنه غير موافق على التخلص من يوسف، وإنما هي الاستجابة لرأى الأغلبية، والإذعان عن غير اقتناع ..

٥- ونلمس ذلك في عبارة يوسف: " معاذ الله إن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ... " .. ولم يقل: إلا من سرق، فأتى بالعبارة الدقيقة التي تؤدي الغرض منها معرض الحديث، والتي لا يخرج بها يوسف على الواقع المجهول، وهي براءة أخيه من السرقة، فعبارة " من وجدنا متاعنا عنده " لا تنفي التهمة فتكشف خطة يوسف، ولا تثبتها فيكون متجنياً على برئ ..

٦- ونلمس ذلك في قوله تعالى: " فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه . . " حيث أُفحمت (أن) بين (لما)، و (جاء)، لتضيف إلى المضمون اللغوي إيجاءً بأن هذا الحديث الغريب المعجز كان متوقعا " فلما أن جاء البشير " فكأن هناك من ينتظر هذا المجيء، فلما تحقق ذلك المنتظر ترتب عليه ما ترتب من إلقاء البشير قميص يوسف على وجه أبيه، ويرشح هذا الإيجاء أن يعقوب كان يحسّ في داخله بشيء من ذلك، فهو القائل لابنه حين فصلت العير: " إني لأجد ريح يوسف " فالتوقع كان موجودا، ولا يناسب ذلك الحال تعبيراً عما حدث بدون (أن)، كما أن مجيء (أن) في الجملة يمدّها بإيجاء آخر يكشف عن طول السفر وبُعد ما بين يوسف وأبيه، فزمن المجيء ليس مستمرا ولكنه مقطوع لطوله، فهو مراحل، وكلمة (أن) هي التي تعطي هذا الإيجاء ... " فلما أن جاء البشير "، فالجملة بدون (أن) لا تحمل هذا الإيجاء، ومن ثمّ كانت (أن) هنا ضرورية لإعطاء المتلقي تصويرا للفعل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف ومجيئه.

وهكذا يتقرّر لدى من يتأمل البيان القرآني أن هناك وحده شاملة تسري في خلال القصة، بحيث لا تنبو فيها عبارة واحدة عن مسار القصة، ولا يشذ فيها موقف واحد عن المقصد منها، وبحيث لا يفتقد التأمل فيها من المؤمنين أسباب الهدى والرحمة .

عاشرا: ومن لطائف التناسق:

في الأداء القرآني في هذه القصة، تكرر عبارات معينة تؤلف جزءا من جو القصة وشخصيتها الخاصة^(٥١)، ومن نماذج هذه اللطائف:

- ١ - ذكر العلم كثيرا، وما يقابله من الجهل وقلة العلم في مواضع شتى
- " وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ " .
- " وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " .
- " وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ " .
- فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ " .
- " قَالَ لَا يَاأَيُّكُمْ طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمْ بِذَلِكَ بِمَا عَلَّمَنِي رَبِّي " .
- " قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ " .
- " يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سَوَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ " .
- " وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ " .
- " ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْخَائِبِينَ " .
- " قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ " .
- " وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لَمَّا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " .
- " قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ " .

- " قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ " .
- " فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ " ..
- " وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ " .
- " عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ " .
- " قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ " .
- " قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ " .
- " قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ " .
- " رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ "

وهي ظاهرة بارزة تلفت النظر إلى بعض أسرار التناسق ولطائفه في قصة يوسف^(٥٥)

٢- ومن لطائف التناسق أن يذكر يوسف الحصيف الكيس اللطيف المدخل، صفة الله المناسبة ... " اللطيف " .. في الموقف الذي يتجلى فيه لطف الله في التصريف:

" وَرَفَعَ أَبُويِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ " (يوسف: ١٠٠).

وهكذا بدأت قصة يوسف وانتهت في سورة واحدة، وذلك لأن طبيعتها تستلزم هذا اللون من الأداء . فهي رؤيا تتحقق رويداً رويداً، ويوماً بعد يوم، ومرحلة بعد مرحلة . فلا تتم العبرة بها - كما لا يتم التنسيق الفني فيها - إلا بأن يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها . وإفراد حلقة واحدة منها في

موضع لا يحقق شيئاً من هذا كله كما يحققه أفراد بعض الحلقات في قصص الرسل الآخرين، كحلقة قصة " سليمان " سبأ، أو حلقة قصة مولد " مريم " أو حلقة قصة مولد " عيسى "، أو حلقة قصة " نوح " والظوفان ... إلخ فهذه الحلقات تفي بالغرض منها كاملاً في مواضعها، من بدئها إلى نهايتها وصدق الله العظيم:

" نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ " (يوسف: ٣).

- (١) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ١، ص ٥٥.
- (٢) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١٢٥.
- (٣) سيد قطب: في ظلال القرآن، ص ٥٥.
- (٤) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١٢٦.
- (٥) سورة القمر من آية ١٧. وانظر الزركشي: البرهان. ج ٣. ص.
- (٦) في قوله تعالي في سورة طه آية ٢٠ " فألقها فإذا هي حية تسعى "
- (٧) في قوله تعالي في سورة الأعراف آية ١٠٧: " فألقي عصاه فإذا هي ثعبان مبين "
- (٨) انظر: الزركشي، البرهان. ج ٣. ص ٢٦-٢٨.
- (٩) الخطابي: بيان إعجاز القرآن. ص ٥٢.
- (١٠) القاضي عبد الجبار: المغني ص ٤٠٠. تحقيق: أمين الخولي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٠م.
- (١١) مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن، ص ١٩٤.
- (١٢) المرجع السابق، ص ١٩٥.
- (١٣) أبو هلال العسكري: الصناعتين، ص ١٤٤، طبعة أولي، القاهرة. وهو قول صحيح في الجملة، بيد أنهم اخطأوا وجه الحكمة فيه، فإن اليهود لم يكونوا من الغلظة والجفاء والاستكراه بحيث وصفوهم، فقد كان في اليهود شعراء فصحاء كالسموءل وكعب الأشرف وغيرهما، وكان لشعر اليهود باب متميز في الرواية بعد الاسلام. والعرب يعدون اليهود منهم وإن كانت الدار واحدة.. والخطاب في القرآن كان يسمعه العرب واليهود جميعاً، فلا هؤلاء ينكرون من أمره ولا أولئك.
- انظر: مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن، ص ١٩٥.
- (١٤) قارن سورة الشعراء: الآيات ٦٧ و١٠٣ و١٢١ و١٣٩ و١٥٨ و١٧٤ و١٩٠.
- (١٥) د. درويش الجندي: النظم القرآني في كشاف الزمخشري، ص ٢، طبعة نهضة مصر ١٩٦٩.
- (١٦) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ١١٦.
- (١٧) د. محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم، ص ٣٤.
- (١٨) المرجع السابق ك ص ١٩٧.
- (١٩) المرجع السابق: ص ١٩٧.

- (٢٠) د. السيد تقي الدين: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم، ص ١٧٤.
- (٢١) المرجع السابق، ص ١٧٤.
- (٢٢) سعد الدين التفتزاني: تهذيب المنطق . ص ١٥٦ - مصر ١٣١٥هـ.
- (٢٣) د. حفني محمد شرف: إعجاز القرآن البياني، ص ٣٠٦.
- وانظر أيضاً: سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٢٨-١٢٩.
- (٢٤) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج١. ص ٧١.
- (٢٥) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١٣٨-١٣٩.
- (٢٦) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١٣٩-١٤١.
- (٢٧) المرجع السابق، ص ١٤٢.
- (٢٨) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٥٠٧.
- (٢٩) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٣٤-١٣٥.
- (٣٠) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٣٦.
- (٣١) المرجع السابق . ص ٧٦.
- (٣٢) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، المجلد الثالث، ص ٣٠ و ٣١.
- (٣٣) المرجع السابق: ص ٣٢.
- (٣٤) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، المجلد الثاني، ص ١٩٤ - ١٩٥.
- (٣٥) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١٦٢.
- (٣٦) عبد الكريم الخطيب: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص ٦٤٠.
- (٣٧) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج٤، ص ١٩٥١.
- (٣٨) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج٣، ص ٢٩ - ٣٠.
- (٣٩) د. فتحي عبد القادر: من بلاغة القرآن الكريم في سورة يوسف عليه السلام. ص ٤٤، ط ١ . مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٨٥.
- (٤٠) عبد الكريم الخطيب: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص ٤٧.
- (٤١) المرجع السابق: ص ٤٨.
- (٤٢) د. محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم، ص ٣١٤.
- (٤٣) د. محمد أحمد الغمراوي: الإسلام في عصر العلم، ص ٢٥٣.
- (٤٤) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج٤، ص ١٩٥١.
- (٤٥) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ٨٤-٨٥.
- (٤٦) سيد قطب: في ظلال القرآن . ج٤، ص ١٩٥٢.
- (٤٧) المرجع السابق . ص ١٩٥٩.
- (٤٨) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ٩٢.

- (٤٩) المرجع السابق: ص ٩٣ .
- (٥٠) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٤، ص ١٩٦٥ .
- (٥١) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٥١٤ و ٥١٦ .
- (٥٢) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن. ص ٥١٧ .
- (٥٣) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ٩٦-٩٨ .
- (٥٤) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٤، ص ١٩٦٦ .
- (٥٥) المرجع السابق، ص ١٩٦٧ .

الإعجاز البلاغي
والبياني في قصص
القرآن الكريم

مفهوم الإعجاز في القرآن الكريم:

" الإعجاز لغة مصدر أعجز وأعجزه إذا أوقعه في العجز. وهو مصدر مضاف إلى فاعله . والمفعول محذوف، وهو البشر، أو الإنس والجن معاً، والنسبة هنا مجازية، فقد عجز الإنس والجن عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن"^(١). ويقول ابن منظور في معني المعجزة: " والمعجزة بفتح الجيم وكسرها، مُفَعَّلَةٌ من العجز: عدم القدرة . وفي الحديث: كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس . وقيل أراد بالعجز ترك ما يجب فعله بالتسوية، وهو عام في أمور الدنيا والدين . والمعجزة: واحد معجزات الأنبياء عليهم السلام"^(٢).

أما الإعجاز عند أهل الاصطلاح: " فهو الحجة التي يقدمها القرآن إلى خصومه من المشركين ليعجزهم بها"^(٣).

أما عندما نريد تحديد هذا المصطلح في حدود التاريخ أي في تطور إدراك البشر ل (حجة) الدين، وإدراك المسلم ل (حجة) الإسلام بخاصة، فلا بد من مراجعة القضية في ضوء تاريخ الإسلام واليهودية.

فإذا نظرنا إلى الآيات التي تدل على الإعجاز في القرآن الكريم، وإليه تلفت النظر فإننا نجدها كثيرة رغم أنها اقتصر على التحدي على طلب المعارضة بمثل القرآن كله كما في قوله عز وجل: " قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا " (سورة الإسراء: ٨٨)، ثم طلب الإتيان بعشر سور مثله مفتريات لا يلتزمون فيها الحكمة ولا الحقيقة، وليس

إلا النظم والأسلوب، وهم أهل اللغة، وذلك في قوله تعالى: " أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مِنِ اسْتِطْعَتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ " (سورة هود ١٣-١٤). ثم قرن التحدي بالتأنيب والتفريع، ثم استفزهم بعد ذلك جملة واحدة، فقال عز وجل: " وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ وَاذْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ " (١٥) ..

وبذلك قطع لهم أنهم لن يفعلوا، وهي كلمة يستحيل أن تكون إلا من الله عز وجل، وهو ذو القوة والحول الذي لا رادّ لأمره.

وفيما يتعلق بآراء قدامي المفسرين من أن " التحدي " كان علي الترتيب بالقرآن كله، ثم بعشر سور ثم بسورة واحدة. فإن هناك من المفسرين المحدثين من يري أن هذا الترتيب ليس عليه دليل. بل الظاهر أن سورة يونس سابقة، والتحدي فيها بسورة واحدة، وسورة هود لاحقة والتحدي فيها بعشر سور.. فقد كانت تنزل الآية فتلحق بسورة سابقة أو لاحقة في النزول. إلا أن هذا لا يحتاج إلي ما يثبتته، وليس في أسباب النزول ما يثبت أن آية يونس كانت بعد آية هود والترتيب التحكمي في مثل هذا لا يجوز" (١٥) .

ويقول " محمد رشيد رضا " في تفسير " المنار " : " قال بعض علماء الكلام أن الله تعالى تحدي الناس أولاً بالقرآن في جملته في آية " الإسراء " ثم تحداهم بعشر سور مثله في آية هود ثم تحداهم بسورة واحدة مثله في آية " يونس " وكل ذلك بمكة. ثم بسورة من مثله في آية " البقرة " بالمدينة . وهذا ترتيب معقول لو ساعد عليه تاريخ النزول، والظاهر أن التحدي في سورتي يونس وهود خاص ببعض أنواع الإعجاز، وهي ما يتعلق بالأخبار كقصص الرسل مع أقوامهم، وهو من أخبار الغيب الماضية التي لم يكن لمن أنزل عليه القرآن علم بها ولا قومه، كما قال تعالى عقب " قصة نوح " من سورة هود: " تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا

قَوْمِكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (سورة هود: ٤٩) ... وكما قال في سورة القصص عقب قصة موسى " وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ " (سورة القصص: ٤٤-٤٦) .. وكما قال في سورة آل عمران عقب قصة مريم: "ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (سورة آل عمران: ٤٤).

ولعل وجه التحدي بعشر سور مفتريات دون سورة واحدة، هو إرادة نوع خاص من أنواع الإعجاز وهو الإتيان بالخبر الواحد بأساليب متعددة متساوية في البلاغة" (٣).

أي أنه يقصد بالتحدي هنا القصص القرآني، وإنه بالاستقراء يظهر أن السور التي كان قد نزل بها قصص مطول إلي وقت نزول سورة هود كانت عشرة. فتحدها بعشر.. أي أن تحديهم بسورة واحدة فيه يعجزهم أكثر من تحديهم بعشر نظراً لتفرق القصص وتعدد أساليبه، واحتياج المتحدي إلي عشر سور كالتي ورد فيها ليتمكن من المحاكاة، إن كان سيحاكي.. والأفضل هنا القول إن الحالات الثلاث لم يسقها القرآن لتنشئ الحجة، وإنما جاءت إعلاناً هنا، وإشهاراً لوجودها في سائر القرآن، كيما توتي تأثيرها في العقول والقلوب.

ويقول الباقلاني عن الإعجاز في القرآن الكريم: " لو لم تكن إلا سورة واحدة لكفّت عن الإعجاز، فكيف بالقرآن العظيم.. ولو لم يكن إلا من حديث من سورة لكفي، وأقنع وأشفي... ولو عرفت قدر قصة موسى وحدها من سورة الشعراء، لما طلبت بيّنة سواها" (٣).

فهو هنا لا ينظر إلي إعجاز القرآن في عدد سوره وإنما يغوص إلي المعني، ولو كان

في آية واحدة إذ يري فيها ما يكفي من الإعجاز: أما عن رأي السكاكي في إعجاز القرآن فيظهر في قوله إن: " المنقول عن العربي في حق كلام رب العزة إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وأن أعلاه لمثمر، وأنه يعلو وما يعلو، وما هو بكلام البشر، فتستغني بذلك عن قرع باب الاستدلال، وأن لا تتجاوزك أيدي الاحتمالات في وجه الإعجاز.. لاشك أن قارعي باب الاستدلال بعد الاتفاق علي أنه معجز مختلفون في وجه الإعجاز - فمنهم من يقول وجه الإعجاز هو أنه عز وجل صرف المتحدين لمعارضة القرآن عن الإتيان بمثله بمشيئته إلا أنها لم تكن مقدوراً عليها فيما بينهم في نفس الأمر، ولكن لازم هذا القول كون المصروفين عن الإتيان بالمعارضة علي التعجب من تعذر المعارضة لا من نظم القرآن مثله .. ومنهم من يقول وجه إعجاز القرآن وروده علي أسلوب مبتدأ مباين لأساليب كلامهم في خطبهم وأشعارهم.. لكن ابتداء أسلوب لو كان يستلزم تعذر الإتيان بالمثل لاستلزم ابتداء بالمثل واللازم كما نري منتف .. ومنهم من يقول وجه إعجازه سلامته من التناقض . ولكنه يستلزم كون كل كلام إذا سلم من التناقض وبلغ مقدار سورة من السور أن يعد معارضة، واللازم بالإجماع منتف .. ومنهم من يقول وجه الإعجاز الاشتغال علي الغيوب. لكنه يستلزم قصر التحدي علي السور المشتملة علي الغيوب دون ما سواها، واللازم بالإجماع أيضاً منتف .. فهذه أقوال أربعة يخمسها ما يجده أصحاب الذوق من أن وجه الإعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة وهذا لا يتأتى بفضل إلهي بهذين العلمين يهبها الله بحكمته من يشاء، وهي النفس المستعدة لذلك، فكل ميسر لما خلق له، ولا استبعاد في إنكار هذا الوجه ممن ليس معه ما يطلع عليه"^(٨)

ويقول " عبد القاهر" في دلائل إعجازه: لقد أعجز القرآن العرب بمزايا ظهرت لهم في نظمه وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آية ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كل مثل، ومساق كل خبر، وصورة كل عظة وتنبية وإعلام، وتذكير وترغيب وترهيب، ومع كل حجة برهان، وَصِفَةٌ، وتبيان، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعشراً عشراً، وآية آية، فلم يجدوا

في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها أو يري أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساقا بهر العقول وأعجز الجمهور. ونظاماً والتثاماً وإتقاناً وإحكاماً لم يدع في نفس بليغ منهم ... " (٩).

تلك كانت خلاصة آراء قدامي المفكرين الإسلاميين حول مسألة إعجاز القرآن الكريم وهي وإن كان يبدو في ظاهرها بعض التباين إلا أنها جميعاً تؤكد إعجاز القرآن الكريم في أسلوبه ونظمه ونعته وتفرده في ذلك. أما فيما يتعلق بآراء المحدثين في هذا الشأن فهم وإن كانوا لا ينكرون على الإطلاق ما ذهب إليه أسلافهم إلا أنهم يدلون بدلوهم في هذا المجال من منظور تطور المجتمعات الحديثة، وانتشار الأفكار المختلفة والثقافات الوافدة إلى الإسلام والمسلمين. ومن أفضل ما قيل في هذا الشأن ما نوجزه فيما يلي حيث يذكر الكاتب: إنه " لا بد من إعادة النظر في قضية الإعجاز في نطاق الظروف الجديدة التي يمر بها المسلم اليوم، مع الضرورات التي يواجهها في مجال العقيدة والروح " (١٠).. ورغم ما يبدو في القضية من تعقد، بسبب موقفنا التقليدي إزاءها، فإننا نعتقد أن مفتاحها موجود في قوله تعالى: " قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مَنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ " (سورة الأحقاف: من آية ٩) فإذا اعتبرنا هذه الآية علي أنها حجة يقدمها القرآن للنبي كي يستخدمها في جداله مع المشركين، فلا بد أن نتأمل محتواها المنطقي من ناحيتين:

فهي تحمل، أولاً، إشارة خفية إلى أن تكرار الشيء في ظروف معينة يدل علي صحته، أي أن سوابقه في سلسلة معينة تدعم حقيقته ك (ظاهرة) بالمعني الذي يسبغه التحديد العلمي علي هذه الكلمة: فالظاهرة هي (الحدث الذي يتكرر في نفسه والنتائج كذلك).

وهي تحمل في مدلولها، ثانياً، ربطاً بين الرسل والرسالات خلال العصور، وأن الدعوة المحمدية يجري عليها أمام العقل ما يجري علي هذه الرسالات. ومن هذا نستلخص أمرين:

إنه يصح أن ندرس الرسالة المحمدية في ضوء ما سبقها من الرسالات.

كما يصح أن ندرس هذه الرسائل في ضوء رسالة محمد - صلي الله عليه وسلم - علي قاعدة أن (حكم العام ينطبق علي الخاص قياساً، وحكم الخاص ينطبق علي العام استنباطاً).

ولا مانع إذاً من أن نعيد النظر في معني (الإعجاز) في ضوء منطق الآية الكريمة: وحاصل هذا أننا إذا اعتبرنا الأشياء في حدود الحدث المتكرر، أي في حدود الظاهرة، فالإعجاز هو:

بالنسبة إلي شخص الرسول: الحجة التي يقدمها لخصومه ليعجزهم بها. وهو بالنسبة إلي الدين: وسيلة من وسائل تبليغه.

وهذان المعنيان للإعجاز يضيفان علي مفهومه صفات معينة:

أولاً: إن الإعجاز - ك (حجة) لا بد أن يكون في مستوي إدراك الجميع، وإلا فانت فائدته، إذ لا قيمة منطقية لحجة تكون فوق إدراك الخصم، فهو ينكرها عن حسن نية أحياناً.

ثانياً: ومن حيث كونه وسيلة لتبليغ دين: أن يكون فوق طاقة الجميع.

ثالثاً: ومن حيث الزمن: أن يكون تأثيره بقدر ما في تبليغ الدين من حاجة إليه.. وهذه الصفة الثالثة تحدد نوع صلته بالدين، الصلة التي تختلف من دين إلي آخر، باختلاف ضرورات التبليغ.

فهذا هو المقياس العام الذي نراه ينطبق علي معني الإعجاز، في كل الظروف المحتملة بالنسبة إلي الأديان المنزلة..

فإذا قسنا به في نطاق رسالة " موسي عليه السلام"، نري أن الله اختار لهذا الرسول معجزتي اليد والعصا، وإذا تأملناهما وجدناهما - كحجة - يدعم الله بها نبيه - يتصفان بأنهما:

ليستا من مستوي العلم المصري القديم الذي كان من اختصاص أشخاص

معدودين، يكونون هيئة الكهنوت، بل كانت المعجزة، في كلتا صورتيهما، من مستوي السحر الذي يقع أثره في إدراك الجميع عن طريق المعاينة الحسية دون إجهاد فكر.

هاتان المعجزتان تتصلان بتاريخ الدين الموسوي، لا بجوهره إذ ليس لليد أو العصا صلة بمعاني هذا الدين ولا بتشريعه، فهما علي هذا مجرد توابع للدين، لا من صفاته الملازمة له.

ودلالة هاتين المعجزتين علي صحة الدين محدودة بزمن معين، إذ لا تتصور مفعول اليد والعصا ك (حجة) إلا في الجيل الذي شاهدهما، أو الجيل الذي بلغته تلك الشهادة بالتواتر من التابعين وتابع التابعين، أي أن مفعوله لا يكون إلا في زمن محدد، لحكمة أرادها الله. ولو تأملنا في هذه الحكمة لوجدنا أنها تتفق مع حقائق نفسية، وحقائق تاريخية سجلها الواقع فعلاً: وهي:

أولاً: إن القوم الذين يدينون اليوم بدين موسى - أي اليهود - يفقدون لأسباب نفسية، نزعة التبليغ، بحيث لا يشعرون بضرورة تبليغ دينهم إلي غيرهم من الأمم، أي الأميين - كما يقولون - حتي أننا إذا استخدمنا لغة الاجتماع قلنا: إن (الإعجاز) قد ألغاه في هذا الدين عدم الحاجة إليه.

ثانياً: إن مشيئة الله قد قدرت أن يأتي عيسى رسولاً من بعد موسى، وأتي الدين الجديد لينسخ الدين السابق، فينسخ طبعاً جانب الإعجاز فيه، حيث تزول الحجة بزوال ضرورتها التاريخية. ولكن دلالة ما أوتي عيسى من إعجاز ستزول أيضاً مع زوال موضوعها، ولنفس الأسباب التي ألغت جانب الإعجاز، في دين موسى حيث يأتي - بعد عيسى - رسول جديد - ودين جديد يلغيان الدين السابق، دين عيسى عليه السلام، فليغي ضرورة التدليل علي صحة الإنجيل^(١).

يتضح من العرض السابق أن الإعجاز: إمّا حسي، يجابه الحواس، ويتحدّي القدر، مثل الإعجاز الذي صاحب موسى وعيسى عليهما السلام، فقد كان من هذا النوع، أي أنه كان يقع في مجال الحسّ، وخاصة حاسة النظر، إذ تكشف للناس علي

صورة تكاد تكون واحدة، لا اختلاف عليها بينهم، لأن الناس لا يختلفون كثيراً في مدلول المرئيات، علي حين يختلفون اختلافاً بعيداً في مدلول ما يقع للحواس الأخرى من مسموعات، ومذوقات، ومشمومات، وملموسات.. وإما أن يكون الإعجاز عقلياً يواجه العقل، ويلقاه بكل ما فيه من قوي الإدراك والاستبصار. وهذا النوع من الإعجاز لا يقع من الناس موقِعاً متقارباً، وإنما يلقيه كل إنسان بما لديه من إدراك وفهم، وقدرة علي التمييز بين المدركات، والتفرقة بين الخير والشر^(١٣).

وتجدر الإشارة هنا إلي أن المفكرين المسلمين السابقين قد أدركوا هذه الظاهرة الإعجازية أيضاً حيث، يقول السيوطي: "وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية.. لبلادتهم، وقلة بصيرتهم..، وأكثر معجزات هذه الأمة - الإسلامية - عقلية. لفظر ذكائهم، وكمال إفهامهم.. ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية علي صفحات الدهر إلي يوم القيامة، خُصّت بالمعجزة العقلية الباقية.. ليراها ذوو الأبصار"^(١٤).

واختلاف المعجزات في أجيال الناس هو ما اقتضته دواعي الحكمة التي جاءت المعجزات من أجلها.. ذلك أن الناس يختلفون باختلاف أزمته وأمكتهم وإذا كانت غاية المعجزة أن يري الناس فيها صدق الرسول المرسل من قبل قوة أعلي من إدراكهم وإمكاناتهم، وقيام الدليل علي صحة دعواه، فكان لابد أن تكون هذه المعجزة جارية مع تفكير من تلقاهم وتتحداهم، أخذة بعقولهم وقلوبهم..

" هذا وإن يكن من الممكن أن يتحقق في المعجزة المادية الواحدة أن تتكرر جيلاً بعد جيل، فتظل أبداً متحدية قاهرة - إلا أن ذلك يذهب بكثير من تأثير المعجزة وينزل بقدر كبير من قدرها في أعين الناس، فلو أن عصا موسى كانت هي المعجزة التي يتناولها الرسل رسولاً بعد رسول، وكانت في كل مرة، وفي كل حال تطلع علي الناس بتلك المعجزات التي كانت لها عند موسى، أو بمعجزات أخرى غيرها - لو أن ذلك حدث لما كان لها علي الناس ذلك السلطان الذي للمعجزة التي تجيء متفردة

بوجودها، والتي تجيء إلى الناس علي غير انتظار، وعلي خلاف أية صورة يتصورونها- ذلك أن أقل ما يقع للناس من المعجزة الواحدة المتكررة أنها ربما كانت وليدة الصدفة، توارثها أصحابها.. خلفاً عن سلف، ثم إن حصر إمارات السماء في أمر واحد علي صورة واحدة، متكررة، فيه اتهام لقدرة الله، وفتح باب واسع للتشكك في صدق الرسول..

إذ أن القدرة الإلهية لا حدود لها، فكيف لا يراها الناس إلا في صورة واحدة تتكرر علي الأجيال؟

لهذا كان من تدبير الحكيم العليم القادر أن يكون في يد كل نبي دليل صدقه الذي لا يشاركه فيه غيره، وأن تكون معجزته التي يلقي بها الناس حدثاً فريداً، لم يقع لهم في خاطر، ولم يحلّ لهم في تفكير^(١١).

وهكذا تأتي رسالة الرسول الأمين - صلي الله عليه وسلم - فتنسم بصفة خاصة تميّزها عمّا سبقها من الرسالات، إذ أنها الحلقة الأخيرة من سلسلة البعث، ولذا وجب أن يكون (إعجاز) القرآن صفة ملازمة له عبر العصور والأجيال، وهي صفة يدركها العربي في الجاهلية بذوقه الفطري، وعالم اللغة بتذوقه العلمي، ومع أن المسلم اليوم فقد فطرة العربي الجاهلي، وإمكانات عالم اللغة، إلا أن القرآن الكريم لم يفقد جانب إعجازه لأنه ليس من توابعه، بل من جوهره، وإنما أصبح المسلم مضطراً إلي أن يتناوله في صورة أخرى بوسائل أخرى، فهو يتناول الآية من حيث تركيبها النفسي الموضوعي، أكثر مما يتناولها من ناحية العبارة، فيطبّق في دراسة مضمونها طرقاتاً للتحليل النفسي والأدبي^(١٢)، الأمر الذي سنبحث جانباً منه في وجوه الإعجاز القصصي في القرآن الكريم.

أ- الإعجاز البياني في القصص القرآني:

ذكرنا من قبل أن القصة في القرآن ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة التي ترمي إلى أداء غرض فني طليق، إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية . والقرآن

كتاب دعوة دينية قبل كل شيء، وحيث إن حاجة التبليغ مستمرة والقصة إحدى وسائل هذا التبليغ، لذلك فإن الإعجاز في القصة القرآنية سيظل صفة ملازمة لها، وقد آن أن نتقل إلى بيان موجز لما في قصص القرآن من إعجاز بياني وعلمي:

١- البيان والبلاغة:

أ- يتميز القصص القرآني بما فيه من نظم عجيب لا يقل في إعجازه عن غيره مما عني الفحول بتصويره دون تفرقة بين آيات الكتاب في الفضائل والمزايا العجائب، فإذا نظرنا في " قصة نوح " وجدنا أنفسنا في بعض مواضعها أمام تصوير رائع في سورة أفردت لذلك من بين سور القرآن.. فهي تبسط حواراً بينه وبين قومه.. ثم ضراعة منه إلى ربه، بعد أن يئس من هدايتهم، فإذا انتقلنا بعد ذلك لتصور كيف كانت نجاة نوح وما صورته في ذلك سورة هود وكيف أمره الله سبحانه أن يصنع الفلك بعينه ووحيه، وكيف أدخل فيها من شاء الله نجاته، وكيف جرت به في موج يشبه في التصوير القرآني بأنه كالجبال، وكيف اتجه الخطاب إلى الأرض بأن تبلع الماء وللسماء بأن تقلع، وكيف ذهب الذي طاف بجميع الأرجاء، وكيف صدر الله سبحانه بالفعل المبني للمجهول ونائب الفاعل كلاً من غيظ الماء، وقضاء أمر الهلاك ونجاة المؤمنين، وإبعاد الظالمين في هذه الجمل الثلاث الآتية: " وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءِ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " (سورة هود: ٤٤) (١١).

ومن خير ما قيل عن وجوه البلاغة والفصاحة، في القصة ما نقله عن السكاكي في مفتاح العلوم حيث قال: " أما النظر فيها من جهة علم البيان، فهو أنه تعالي لما أراد أن يبين معنى أردنا أن نردّ ما انفجر من الأرض إلي بطنها، فارتد، وأن تقطع طوفان السماء، فانقطع، وأن يغيض الماء النازل من السماء، فغاض، وأن يقضي أمر نوح، وهو إنجاز ما كنا وعدناه من إغراق قومه، فقضي، وأن نسوي السفينة علي الجودي، فاستوت، وأبقينا الظلمة غرقى - بني الكلام علي تشبيه المراد منه، بالمأمور الذي لا يتأتى منه لكمال هيئته العصيان، وتشبيه تكوين المراد، بالأمر الجزم النافذ في

تكوين المقصود، تصويراً لاقتداره تعالي، وأن السماوات والأرض وهذه الأجرام العظام تابعة لإرادته كأنها عقلاء مميزون، قد عرفوه حق معرفته وأحاطوا علماً بوجوب الانقياد لأمره، وتحتّم بذل المجهود عليهم في تحصيل مراده، ثم بني علي تشبيهه هذا نظم الكلام، فقال تعالي: (قيل). علي سبيل المجاز عن الإرادة الواقع بسببها قول القائل. وجعل قرينة المجاز خطاب الجماد، وهو (يا أرض)، و (يا سماء)، مخاطباً لهما على سبيل الاستعارة، للشبه المذكور، ثم استعار لغور الماء في الأرض بالبلع الذي هو إعمال الجاذبة في المطعوم، بجامع الذهاب إلي مقر خفي، واستتبع ذلك تشبيه الماء بالغذاء علي طريق الاستعارة بالكناية، لتقوي الأرض بالماء في الإنبات للزرع والأشجار، وجعل قرينة الاستعارة لفظ (ابلعي)، لكونه موضوعاً للاستعمال في الغذاء دون الماء، ثم أمر علي سبيل الاستعارة، للشبه المقدم ذكره، ثم قال: ماءك، بإضافة الماء إلي الأرض علي سبيل المجاز، تشبيهاً لاتصال الماء بالأرض باتصال الملك بالملك، واستعار لحبس المطر الإقلاع الذي هو ترك الفاعل الفعل، للشبه بينهما في عدم ما كان، وخاطب في الأمرين أي قال: ابلعي، وأقلعي، ترشيحاً للاستعارة: (أي استعارة النداء في (يا أرض) و(يا سماء))، ثم قال: غيض الماء، وقضي الأمر، واستوت علي الجودي، وقيل: بعدا للقوم الظلمين، فلم يصرّح بالغايب، والقاضي، والمسوي، والقائل، كما لم يصرّح بقائل (يا أرض) و (يا سماء) سلوكاً في كل واحد من ذلك سبيل الكناية عن تلك الأمور العظام إلا يتأتى إلا من ذي قدرة لا تكتنى، قهار لا يغالب، فلا مجال لذهاب الوهم إلي أن يكون الفاعل لشيء من ذلك غيره، ثم ختم الكلام بالتعريض لسالكي مسلكهم في تكذيب الرسل ظلماً لأنفسهم حتى إظهار لمكان السخط، ولجهة استحقاقهم إياه.

وإما النظر فيها من حيث علم المعاني، وهو النظر في فائدة كل كلمة فيها، وجهة كل تقديم وتأخير بين جملها، فذلك: أنه أختير (يا) دون سائر أخواتها، لكونها أكثر استعمالاً، ولدلالتها علي بُعد المنادي الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة، ويؤذن بالتهاون به، ولم يقل: (يا أرض) بالكسر، تجنباً لإضافة التشريف، تأكيداً للتهاون، ولم يقل: (يا أيتها الأرض) للاختصار، مع الاحتراز عما في (أيتها)، من تكلف

التنبيه غير المناسب للمقام، لكون المخاطب غير صالح للتنبيه علي الحقيقة . وأخيراً لفظ الأرض دون سائر أسمائها، لكونه أخف وأدور، واختير لفظ السماء ذلك مع قصد المطابقة . واختير (ابلعي) علي (ابتلعي)، لكونه أحضر، ولمجيء حظ التجانس بينه وبين (أقلعي) أوفر . وقيل (ماءك) بالأفراد دون الجمع لدلالة الجمع علي الاستكثار الذي يأباه مقام إظهار الكبرياء، وهو الوجه في أفراد الأرض والسماء . ولم يحذف مفعول (ابلعي) لئلا يفهم ما ليس بمراد من تعميم الابتلاع للجبال والتلال والبحار وغيرها، ونظراً إلي مقام ورود الأمر الذي هو مقام عظمة وكبرياء . ثم إذ بين المراد اختصر علي (أقلعي)، فلم يقل: أقلعي عن إرسال الماء، احترازاً عن الحشو المستغني عنه من حيث الظاهر، وهو الوجه في أنه لم يقل يا أرض ابلعي ماءك، فبلعت، ويا سماء أقلعي فأقلعت، واختار (غيض الماء) علي (غيظ) المشددة، لكونه أحصر، وأوفق لقليل . وقيل (الماء) دون أن يقال: (ماء طوفان السماء)، كذلك (الأمر) دون أن يقال (أمر نوح)، للاختصار، ولم يقل (سوّيت علي الجودي) بمعني أقدرت، علي نحو قيل وغيض، وقضي في البناء للمفعول، اعتبار لبناء الفعل للفاعل مع السفينة في قوله (وهي تجري بهم) مع قصد الاختصار، ثم قيل (بُعداً للقوم)، دون أن يقال: (ليبعد القوم)، طلباً للتوكيد مع الاختصار، وهو نزول (بُعداً) منزلة (ليبعدوا بُعداً)، مع إفادة أخري، وهي استعمال اللام مع " بُعد " الدال علي معني أن البُعد حق لهم. ثم أطلق الظلم، ليتناول كل نوع، حتي يدخل فيه ظلمهم لأنفسهم بتكذيب الرسل .

هذا من حيث النظر إلي الكَلِم، وأما من حيث النظر إلي ترتيب الجمل، فذلك أنه قدّم النداء علي الأمر، فقيل (يا أرض، ابلعي) و (يا سماء أقلعي) دون أن يقال: (ابلعي يا أرض) و (أقلعي يا سماء)، جرياً علي مقتضي اللازم فيمن كان مأموراً حقيقة من تقديم التنبيه، ليتمكن الأمر الوارد عقبيه في نفس المنادى، قصداً بذلك لمعنى الترشيح . ثم قدّم الأرض علي أمر السماء، لابتداء الطوفان منها ونزولها لذلك في القصة منزلة الأصل . ثم أتبعها قوله: (وغيض الماء)، لاتصاله بقصة الماء . ثم أتبعه ما هو مقصود من القصة، وهو قوله: (وقضي الأمر)، أي أنجز الوعد: من

إهلاك الكفرة وإنجاء نوح ومن معه في السفينة . ثم أتبعه حديث السفينة، ثم ختمت القصة بها ختمت .

هذا كله من جانب البلاغة، وأما جانب الفصاحة المعنوية (أي خلوص المعني من التعقيد) فهي نظم للمعاني لطيف، وتأدية لها ملخصة مبيّنة، لا تعقيد يعثر الفكر في طلب المراد، ولا التواء يشبّك الطريق إلى المرتاد، بل ألفاظها تسابق معانيها، ومعانيها تسابق ألفاظها. وأما جانب الفصاحة اللفظية، فألفاظها عربية مستعملة، جارية علي قوانين اللغة، سليمة عن التنافر، بعيدة عن البشاعة، عذبة، كل منها كالماء في السلاسة، وكالعسل في الحلاوة، وكالنسيم في الرقة" (١٧).

ومما ينبغي أن يذكر أن تلك الجمل الثلاث قد تناوّلها بالدراسة كثير من النقاد، فنجد عبد القاهر في " دلائل الإعجاز " يتخذها أنموذجاً للبلاغة الساحرة، مبرهنًا بها علي أن الإعجاز إنما جاء من النظم، وارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وملاءمة معني اللفظة لمعني التي تليها، لا من حيث هي كلمة مفردة" (١٨).

ولقد عاد كل شئ إلي وضعه واستقر في مقره بهذه الجمل الثلاث، ولقد شاء القدر أن يستريح نوح والمؤمنون معه بعد كفاح استمر ألف سنة إلا خمسين عاماً مع قومه الكافرين والمعاندين فأخذهم الطوفان وهم ظالمون، لقد أمر كل من السماء والأرض، وأمرهما من له الأمر دون داع إلي تصريح باسمه فائتمر كل بما أمر، ولقد أبعدَ الظالمون بأمره..

وعن هذا المعني ذاته عبّر الله سبحانه في سورة القمر، بقوله: " فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُسِّرَ مَجْرِيُّ بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مَّدَكِرٍ " (سورة القمر: ١١-١٥).

ويشير بعض الباحثين إلي تلك المعاني الرائعة التي تصمّنتها هذه الآيات، بما موجزه أن: " هذه معان في أصلها إخبار عن وقائع جرت، وأحداث حدثت علي أن معانيها - إذا تركنا النظر في أسلوبها إحالة علي ما سبق أمره - جديدة لا محالة،

فوصف إطلاق المياه من السماء بأنه فتح لأبواب السماء معني جديد لم يطرق ...
ووصف ارتفاع المياه من بطون الأرض بقوله: " وفجرنا الأرض عيوناً " معني
مبتكر لا يلحق .. ثم الكناية عن السفينة - بأنها ذات ألواح ودسر، وعن نوح، بأنه
كان كفر، ثم وصف التسجيل التاريخي بقوله سبحانه: " ولقد تركناها آية " كل
ذلك تجديد وأي تجديد^(١٩).

" ثم تنتقل إلى التوازن بين الآيات - وإن لم يكن علي صورة الشعر في تعادل
التفعيلات بين صدر البيت وعجزه - قد جعل النغم الموسيقي ممسكاً بها جميعاً في
لحن واحد متسق الإيقاع، يجري قوياً متدفقاً كتدفق السيل، حتي يقع علي " القرار "
فيستقر عنده، ويسكن إليه .. ولننظر أي قرار يحمل هذا البحر المتدفق ويحويه في
صدره؟ إنه حرف واحد هو حرف " الراء " " " " .. وهو أقوي حرف في حروف اللغة
العربية، وأشدّها تماسكاً، فإذا وقف عليه بالسكون انبعج في رخامة، ولين، وصار
أشبه بالوادي العميق الرحب، بين يدي جبل تنهمر عيونته، وتدفق سيوله^(٢٠).

وهكذا لو أننا ذهبنا نقف عند كل كلمة من الكلمات لأسهبنا إذاً في تصوير نواح
من الأسرار البيانية يتحقق في مجموعها معني الإعجاز فيما وصل إليه البحث
البلاغي، والعلم البياني مما علمناه . فكيف بما علمه غيرنا؟ فكيف بما لم يعلمه أحد
إلا الله سبحانه؟

٢- الإعجاز في المعاني والأفكار:

نتقل إلى الإعجاز في معاني القصص، وما فيه من أفكار جديدة، وأخيلة بديعة
وصور رقيقة .. فالمعاني والأخيلة عند البلغاء تقصد إلى فكرة سامية في أي غرض
من أغراض القول، وتشتمل عند كثير منهم على ما يخترعه المتكلم من معني غير
مطروق، مما يملأ النفوس روعة وإعجاباً بالفكر المبتكرة المخترعة، ولذلك امتاز في
معني الأسلوب الذي هو طريقة النظم وما يشتمل عليه من إيجاز أو إطناب، وذكر
أو حذف، وتقديم أو تأخير، كما أنه يتميز عن الغرض العام الذي هو الفن من
القول والضرب منه كالملاح والذم وما يتصل بذلك بالهدف والغاية .

فلنتحدث في شئ من معاني القصص وما فيه من أفكار جديدة، فإذا قوله سبحانه في قصة نوح: " وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ " (سورة الصافات: ٧٤-٧٦) إلي أن يقول: " وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ " (سورة الصافات: ٧٨، ٧٩) ولعله لا جديد في أصل المعنى، وإنما هو إخبار عن نوح بأنه سأل ربه والمسئول مصرح به في سورة نوح: قال: " قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي مَعْصُومِي وَأَتَّبَعُوا مِنِّي لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا " (سورة نوح: ٢١) إلي أن قال " وقال نوح: " رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا " (سورة نوح: ٢٦)، ولكن هذا المعنى العجيب: " وتركنا عليه في الآخرين . سلم علي نوح في العلمين " هو موضع الجدة الرائعة، فهذه فكرة مستجدة وإيماء من القرآن مستمدة، فإنها تضيف جديداً إلي المعاني التي لم يسبق إبرازها من قبل، وهو أن الله سبحانه ترك علي نوح في سائر الأمم أن يسلموا عليه إلي الأبد الآبدين ودهر الدهرين.. فلننظر كيف أن الله سبحانه قد سمى ذلك التقدير العالمي والثناء الإنساني: " تركنا علي نوح في العلمين " وعن مثل هذا المعنى عبّر الله سبحانه في قصة إبراهيم عليه السلام وهو يسأله . فيقول: " وَاجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ " (سورة الشعراء: ٨٤) بمعنى الذكر الحسن والثناء الجميل، ولكن التصوير مختلف في المقامين، مع أنه في كل منهما رائع وجميل، وتلك من معارف الأنبياء التي تهدي إليها الفطانة، وتكشف عنها الزكاة، ويصوّرها القرآن ذلك التصوير ليلهمنا إياه كما ألهمه نبيه ومصطفاه (٣).

ويتصل بذلك أن يقوم سبحانه: " وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ " (سورة الزخرف: ٢٦-٢٨).

ما معنى " جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ " إنها تفيد معنى كريماً .. وهو أن إبراهيم عليه السلام ركّز علي معنى التوحيد ونفي الشرك، كما قال سبحانه في تصوير آخر: " إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ

بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ " (سورة البقرة: ١٣١ - ١٣٢).

" وكلُّ هذه المعاني الكريمة متجاوبة في محيط دعوة الأنبياء ومهمة المرسلين، وعلي رأسهم إبراهيم الخليل الذي تتحاضنه الأمم وتتزاحم عليه جميع الأجناس، حتى عبّاد الأوثان ولهذا يقول سبحانه: " لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ "، دفعاً للمعارضين، ودحضاً للمجرمين " (٣١) .

وهذا ونحوه من المعاني التي ميّزت القصص القرآني بقوة خارقة في معانيه الخاصة الرفيعة، وأفكاره العجيبة الغريبة مما ضاعف نواحي الإعجاز في أسلوبه، فإن المعني الشريف الذي تتجه به إلي النفوس قوة الله القدير إذا صب في ذلك الأسلوب البديع العجيب أنزل العصم من أماكنها، وطأطأ الروءوس إلي أذقانها..

فإذا انتقلنا لي قوله سبحانه في عذاب عاد: " إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ " (سورة القمر: ١٩). فهو يصف إنزال العذاب بالإرسال، ويصوّر تصريف الريح بالمجرمين وقلقلة المعاندين بأنه نزع للناس من أماكنهم وإلقاء لهم فلا حراك بهم كما تري أعجاز النخل المنقعر وهي منظرحة ملقاة علي الأرض.. وإذا انتقلنا بعد ذلك إلي قوله هنالك: " إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَاضْطَبِرْ وَبِئْتُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّحْتَضِرٌ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ " (سورة القمر: ٢٧ : ٣٠) كل تلك أوصاف تلبس كسبي من الألفاظ لا يهتدي إليها إلا خالق القوي والقدر ..

" الحقيقة أن هذه النواحي لا ترجع إلي الأساليب والألفاظ فهي تختلف عن ذلك، فهذه معان يسميها الأدباء أخيلة وأفكاراً، ويعتبرون الأسلوب شيئاً يرجع إلي اللفظ في مفرداته وترتيب تلك المفردات وما توصف به من فصل أو وصل، وذكر أو حذف، وتقديم أو تأخير، ولذلك فهي ناحية تختلف عن ناحية الإعجاز البياني الذي يؤديه الجرجاني والباقلاني والجاحظ وغيرهم من علماء البيان والبلاغة وركزوا فيه علي الناحية الإجمالية التي جرت عليها العرب " (٣١) .

إن الذين زاولوا فن التعبير والذين لهم بصر بالأداء الفني يدركون أكثر من غيرهم مدي ما في الأداء القصصي من إعجاز في هذا الجانب، ومن المقطوع به أن الأحاديث النبوية الشريفة والوحي القرآني يمثلان أسلوبين لكل منهما طابعه وصياغته الخاصة، فالعبارة القرآنية لها نسق، وجرس تعرفه الأذن، ولها هيئة تركيبية، وألفاظ خاصة، فليس من الخطأ أو الغلو في شئ أن يقال: إن الأسلوب القرآني معجز، لا يتسنى لأحد الإتيان بمثله^(٢٥).

ولقد كان حتماً علي القرآن - إذا ما أراد أن يدخل في اللغة العربية فكرته الدينية، ومفاهيمه التوحيدية - أن يتجاوز الحدود التقليدية للأدب الجاهلي .. والحق أنه قد أحدث انقلاباً هائلاً في الأدب العربي بتغييره الأداة الفنية في التعبير، فهو من ناحية قد جعل الجملة المنظمة في موضع البيت الموزون، وجاء من ناحية أخرى بفكرة جديدة، أدخل بها مفاهيم وموضوعات جديدة، لكي يصل العقلية الجاهلية بتيار التوحيد .. علي أن هذه المفاهيم ليست مترجمة في آيات القرآن فحسب، بل إن القرآن قد هضمها وتمثلها، ثم كيّفها حتى تناسب العقلية العربية ..

" ولقد تعرضت الثروة اللفظية التي جاء بها القصص القرآني لتكييف رائع، كما حدث لذلك الاسم الخاص " فوطيفار Putiphare " وهو اسم الشخصية الكتابية التي أطلقت عليها رواية القرآن لقب " العزيز " في قصة يوسف، ولنا أن نساءل عمّا إذا كانت هناك صلة في المعنى بين الاسم العبري واللقب القرآني، فالتفسير التورواوي يبدو أنه يقصد بكلمة " فوطيفار " اشتقاقاً مصرياً يبدأ من الأصل: puti favori =: " عزيز "، والأصل phare " مستشار أو ناصح " . ونقلاً عن بحث القسيس " فيجوروو vigroueux في الموضوع نعرف أن هذه الكلمة مصرية مركبة معناها " عزيز الإله شمس " ..

وعلي أي من الرأيين نري أن التكيف الاشتقاقي القرآني قد حذف اللفظ المكمل - الإضافي، ليمثله في صورة أكثر تطابقاً مع روح التوحيد الإسلامية، فإذا به

يكتفي بلفظة " العزيز " .. ومما يذكر أن هذا التكييف الذي تجبّب صعوبة الترجمة الصوتية للحروف الأولى، قد حلّ مشكلة لغوية لا ينسي لجاهل بالدراسات المصرية أن يحلّها، حتى ولو كان في أتمّ حالات وعيه" (٣٠) .

٤ الإيجاز المعجز:

إن القصص القرآني لشدة إيجازه وإحكامه، تكاد كلماته تتحوّل رموزاً تنطوي كل كلمة منها علي معان كثيرة، لذلك فإنّ الفهم الدقيق لإيحاءات القرآن وإشاراته تستدعي يقظة متواصلة في قراءته، وفكراً واعياً لتدبّر مراميه، وحسّاً مرهفاً لتذوّق معانيه، فعندما نتأمل الآية التالية التي وردت في سياق قصة يوسف، نجد أنها كانت مصدراً للإيجاد كثير من المعاني التي تحتملها: " وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ " (سورة يوسف: ٣٠) .

قال ابن قيم الجوزية: هذا الكلام متضمن لوجوه من المكر:

أحدها: قولهن: " امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا " ولم يسمّوها باسمها، بل ذكروها بالوصف الذي ينادي عليها بقبيح فعلها بكونها ذات بعل . فصدور الفاحشة ممن لها زوج أقبح من صدورها ممن لا زوج لها.

الثاني: أن زوجها عزيز مصر، ورئيسها، وكبيرها، وذلك أقبح لوقوع الفاحشة منها.

الثالث: أن الذي تراوده مملوك لا حرّ . وذلك أبلغ في القبح.

الرابع: أنه فتاه الذي تراوده هو في بيتها . وتحت كنفها، فحكمه حكم أهل البيت، بخلاف من تطلب ذلك من الأجنبي البعيد.

الخامس: أنها هي المرادة الطالبة.

السادس: أنها قد بلغ بها عشقها له كل مبلغ، حتى وصل حبّها له إلى شغاف قلبها.

السابع: أن في ضمن هذا: أنه أعفّ منها وأبرّ وأوفي، حيث كانت هي المرادة الطالبة، وهو الممتنع، عفاً وكرماً وحياء وهذا غاية الذم لها.

الثامن: أنهم أتين بفعل المرادة بصيغة المستقبل الدالة على الاستمرار، والوقوع حالاً واستقبالاً، وأن هذا شأنها، ولم يقلن: راودت فتاها.

وفرق بين قولنا: فلان أكرم ضيفاً، وفلان يكرم الضيف ويطعم الطعام، ويحمل الكل، فإن هذا يدل على أن هذا شأنه وعادته.

التاسع: قولهن " إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ " أي إنا لنستقبح منها ذلك غاية الاستقبح، فنسب الاستقبح إليها، ومن شأنهن مساعدة بعضهن بعضاً على الهوى، ولا يكدن يرين ذلك قبيحاً، كما يساعد الرجال بعضهم بعضاً على ذلك . فحيث استقبحن منها ذلك، كان هذا دليلاً على أنه من أقبح الأمور وأنه مما لا ينبغي، أن تساعد عليه، ولا يحسن معاونتها عليه.

العاشر: أنهم جمعن لها في هذا الكلام واللوم بين العشق المفرط، والطلب المفرط، فلم تقتصد في جها، ولا في طلبها.

أما العشق فقولهن: " قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا " أي وصل حبه إلى شغاف قلبها. وأما الطلب المفرط فقولهن " تراود فتاها ". والمرادة: الطلب مرة بعد مرة، فنسبها إلي شدة العشق، وشدة الحرص على الفاحشة، فلما سمعت بهذا المكر هيأت لهن مكرأ، أبلغ منه، لأنها قابلت مكرهن القولي بهذا المكر الفعلي^(٣٧).

ومثل هذا في إيجازه المحكم، وغزارة معانيه ما ينطبق على قصص موسى في السور الخمسة التي جاءت فيها أكبر عناصر الحديث عنه، وهي سور الأعراف ويونس وطه والشعراء والقصص.

٥-البلاغة الصوتية في القصة القرآنية:-

أ- الإيجاء

لا شك أن القرآن الكريم وهو الأنموذج الأسمى في البلاغة الصوتية

يتوقف قدر كبير من ملاحظة تلك الميزة فيه علي حسن تلاوته، ومن هنا ندرك مغزى قول الرسول صلي الله عليه وسلم " زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ " فليس المقصود هنا التطريب، ولكنه حسن الأداء بالتزام النطق الصحيح ومراعاة قواعد التلاوة من مدّ وغنّ وإظهار وإخفاء ووقف ووصل، فإن هذا من حسن الإلقاء الذي يُزيّن القرآن، ويرز دور الأصوات في إبراز المعاني، كما يتيح حسن المتابعة للتركيب اللغوية التي تحدث الإيقاع^(٣١).

إذاً البلاغة الصوتية هي كل وسيلة صوتية يتحقق فيها مفهوم البلاغة بمعناها المصطلح عليه عند البلاغيين، فلا بد فيها من ملاحظة أمرين:

الأول: أن نتجاوز الإطار الصوتي بجرسه وإيحائه وإيقاعه واعتداله إلي ما يحدثه من إبراز المعني وتأكيده وتسلسله وانتظامه.

والثاني: أن يتحقق بالأداء الصوتي مطابقة الكلام لمقتضي الحال.

والحقّ أن القرآن ما جاء أسلوبه - على ما جاء عليه من انسجام وآنساق وتوازن يشبه الموسيقى - ليحقق الغاية من التأثير واللفت والجذب لكل المستمعين والمخاطبين علي اختلاف عقائدهم ومستوياتهم، لأن الناس جميعاً يستهويهم جمال الإيقاع وحسن الأداء^(٣٢).

والإيحاء ميزة صوتية تحرك الخيال نحو سلسلة من المعاني تتداعي متصلة بالكلمة . وهو مرتبط غالباً بجرس الكلمة وإيقاعها وما تحمله من ظلال .. وربما يعود مصدر الإيحاء إلي ارتباط بعض الكلمات بأصلها الحسي عن طريق ما توحى به وما نستشعره من ظلال حولها عند النطق بها . والأصل الحسي للكلمة يعني أصل الاستعمال الذي دعت إليه أمور مرتبطة بالحياة والمعيشة والظروف الاجتماعية للعربي الأول .. وقد ذكر الأستاذ العقاد نماذج من الكلمات التي تدل علي الارتباط والجماعة، فالأمة مثلاً هي الجماعة التي تؤم مكاناً واحداً أو تأتم بقيادة واحدة، والشعب هو الجماعة التي تتخذ لها شعبة واحدة من الطريق، والطائفة هي الجماعة التي تطوف معاً، والفئة هي الجماعة التي تفضي إلي ظل واحد، والنفر من القوم هم

الذين ينفرون معاً للقتال أو غيره، والقوم هم الذين يقومون قومة واحدة للقتال خاصة، ولهذا أطلقت أولاً علي الرجال ثم شملت الرجال والنساء، ومن هنا قوله تعالى: " وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ " بعد قوله " لَا يَسْحَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ " (سورة الحجرات: ١١) وتلاحظ هذه المناسبة المستمرة من الاستعمال الحسي في أسماء الأمكنة، فالمنزل حيث ينزل الإنسان، والبيت حيث يبيت بالليل، وكذلك الموقع والمرجع والمأوي^(٣٠).

وعلي الرغم من هذا التطور الدلالي فإن الاستعمال الحسي الأول يظل عالقاً بالكلمة فيجعلها موحية بظلال خاصة مستمرة من ذلك الأصل الحسي .. فهناك ألفاظ كانت تستخدم قديماً للدلالة علي أمر حسي، ثم انتقلت علي سبيل التجوّز في البداية بمعني تعارف الاستعمال اللغوي علي أن الكلمة ليست علي حقيقتها، ثم لما شاع الاستعمال المعنوي الجديد صار حقيقة فيه، لكن الكلمة تظل محتفظة بظل من الاستعمال الحسي الأول، فتكون موحية بمعانٍ شتى مستمدة من أصل استعمال، ومن دلالات تعلّقت بها في تاريخ استعمالها الطويل، مع ما قد نخلفه عليها من ظلال أنفسنا ومشاعر ذواتنا. ومن ذلك قوله تعالى: " يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ حَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ " (سورة الأنعام: ١٣٠). عبّر عن التبليغ بقوله: " يقصّون " للإشارة إلي ذهاب الرسل في التبليغ مذهب التوضيح والتفصيل والتشويق والملاطفة شأنهم في ذلك شأن الذي يقصّ علي نفرٍ قصة من القصص " يقال: قصّ الكلام أو الأخبار: تتبّعها بالرواية " .

وقصّ الأخبار من قصّ الأثر أي تتبّعه، وقد استخدم القرآن المادة في هذا الأصل الذي يظن أنه أولي مراحل استخدام الكلمة، قال تعالى " وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيه " (سورة القصص: ١١) أي تتبّعي أثره . وبهذا تتبين المراحل التي مرّت بها هذه المادة من قصّ الأثر إلي قصّ الأخبار، ثم " يقصّون عليكم آياتي " وهذه الاستعمالات التي تتابعت علي الكلمة في رحلتها الطويلة أكسبتها ذلك الإيجاء الذي نستشعره

عند تلاوة الآية وأكسبها تلك القدرة علي تصوير المعني وعرضه مشاهدًا^(٣٧).

أما المحسنات اللفظية البديعية فهي نوع من التسخير الواعي لما يمكن للقيم الصوتية وظاهرة الحكاية أن تثيره في نفس المتلقي، يصدق ذلك علي الجناس تاماً كان أم ناقصاً وعلي المشاكلة في اللفظين وما أشبههما من المحسنات . وأن النص القرآني ليحسن استعمال ذلك ويحمله من الأغراض ما لا يمكن الوصول إليه إلا من خلاله ومن أمثلة ذلك في قصة موسى: " وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآهَتِكَ " (الأعراف: ١٢٧).

إذا نظرنا إلي استعمال الفعلين " تذر " و " يذر " إذ يتفقان ويختلفان معني، فإما بالنسبة لفرعون فإنه إذ " يذر " موسى إنما يتوانى عن عقابه فالترك هنا نوع من التسامح، وأما بالنسبة لموسى فإنه " يذر " بمعني " يتخلى " عنه وعن آلهته ليعبد الله إلهاً واحداً.

وكذلك في قصة مريم، يقول الله تعالي في سورة آل عمران: " وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ " (آل عمران آية ٤٢). . فقولهُ " اصْطَفَاكِ " أولاً بمعني " اختارك " والثاني بمعني " فضلك " فالاتفاق في اللفظ دون المعني^(٣٨).

والإيحاء قد نجده في كلمة من العبارة، وقد نجد أكثر كلمات العبارة موحية، هذا مرتبط بالجو النفسي والحال والمقام، علي أن هذا الإحساس بهذه الميزة مرهون برهانه الحسي وقوة التجاوب مع القيم الصوتية لألفاظ اللغة وعندما نتبع الكلام العربي نجد أن الإيحاء سمة من سمات الكلام الموجز الممتلي بالمعاني والأحداث والمفعم بالمشاعر الإنسانية، ولهذا تطرد هذه الميزة في كلمات القرآن الكريم، وهي أوضح ما تكون في قصصه، ولنأخذ قصة يوسف عليه السلام أنموذجاً لتوضيح بريق الإيحاء في كلماتها وارتباطه بسائر المغزى أو بالشعور السائد في العبارة، ويبرز المشهد التالي من القصة دور الإيحاء في تلوين المشهد وتجسيد أدق مشاعر الأشخاص فيه:

قال تعالي: " وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةٌ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا

حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا
وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ
وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ" (سورة يوسف: ٣٠-٣١).

يشير تنكير "نسوة" - إذ لم يقل مثلاً: وقال النسوة - إلى أنهن نسوة ذوات صفات معينة ليست لكل النساء، هنا يقف التنكير عند مجرد الإشارة إلى أنهن من طبقة معينة، أما نوع هذه الطبقة، فإن السياق وحده هو الذي يكشف عنه في قوله: " فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا " فإن هذا الإعداد بها فيه من مآدب حافلة وما فيه من متكات ووسائد ليّنة، يدل على أن المدعوّات من طبقة راقية، ومن الطبيعي أن يتسرب الخبر أولاً إلى البيوت المماثلة عن طريق الخدم، فالخبر بحروف الجر (في) " وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ " للإشارة إلى أن هذا القول قد قيل في المدينة وليس ضرورياً أنهن جميعاً نساء من المدينة فقد يكنّ أخلاطاً من المدينة ومن غيرها، كما أشرنا من قبل، والتعبير القرآني على كل حال محتمل لهذا وذاك فهو يتسع لعدة معانٍ محتملة غير متداخلة، وهذا من الإعجاز.

والقرآن لم يسمّ امرأة العزيز، وإنما قال تارة " وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ " فذكرها باسم الموصول وصلته " الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا " ليشير إلى مدى هذه المراودة ونوعها وظروفها، فإنها واقعة من سيدة البيت علي فتاها أي عبدها وفي بيتها، فهر مراودة ملحة مسيطرة محاصرة لا يفلت منها في هذه الظروف إلا مثل يوسف عليه السلام.

وفي المرة الثانية عبر عن هذه المرأة بقوله " امرأة العزيز " وذلك في الكلام المحكي عن النسوة " وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ " فلم تسمّ النسوة هذه المرأة باسمها، وإنما أضفنها إلى العزيز لمزيد من التعجب من أمرها وإشارة إلى أن كونها امرأة العزيز كان ينبغي أن يجعلها تتسامي وتتصوّن ولا تنزل إلى هذا الدرّك، إن هذه الإضافة توحى بالتندر وإشباع الرغبة النسائية في أن ينتشر الخبر.

ومعني تراود: تحاول مرة بعد مرة انتزاع موافقته علي تنفيذ مرادها من الجماع، ولا تجد لغة من اللغات تدل كلمة واحدة فيها علي هذا المعني المؤدي بجملته طويلة غير العربية، وإيثار العربية بتلك الكلمة تنزيها للقرآن من الخوض في التفاصيل التي لا تتفق مع جلاله وإجماله. علي أن لهذه الكلمة " تراود " إحياءات كثيرة تستمدتها من الأصل الحسي لاستعمالها، ففي لسان العرب: أصل الرائد الذي يتقدم القوم يبصر لهم الكلاً ومساقط الغيث، ورادت الإبل ترود ريادةً اختلفت في المرعى مقبلة ومدبرة، وامرأة راد ورواد، ورءود: طوافة في بيوت جاراتها . وقال الأصمعي: الرادة من النساء، غير مهموز، التي ترود وتطوف . وقال الليث: وتقول راود فلان جاريتها عن نفسها، وراودته هي عن نفسه، إذا حاول كل واحد من صاحبه الوطء والجماع^(٣٣).

وبالعودة إلي الاستعمال القرآني " تراود " نجد أنه يوحي بمعان هي مستمدة من تلك الاستعمالات الأولى، فهي توحى بالجرأة والمبادرة، وتوحى بالتوتر والحيرة التي تدفع إلي الإقبال والإدبار، وهنا تصوير لمدي التوتر والحيرة التي تستبد بالمرأة عند تسلط هذه الشهوة لاسيما إذا طلبتها من طريق غير مشروع ثم إن إضافة الفتى إليها " فتاها " وذلك في الكلام المحكي عن النسوة يوحي باتجاه تلك النسوة إلي تهويل الأمر إذ كيف تراود سيدة لها هذه المكانة فتاها أي مملوكها، فضلاً عن الاتجاه النفسي إلي إشباع رغبتهن في اللوم.. ومعني " شغفها حبا " : شقّ حبه شغاف قلبها وهو حجابها . وهناك استعمالات متعددة للشغاف لعل أقربها صلة بما نحن فيه أنه داء متمكن في القلب وأنه ما يستتر فلا يظهر ولا يعالج، فاستعمال هذا اللفظ " شغفها " خصوصاً في هذا السياق انتقال من الإطلاق الحسي إلي المعنوي ليشير إلي معاناة طويلة خفية ومكيدة مؤلمة موجعة.. وهو لفظ يوحي بجرسه علي الهيام والوجد الطويل، كما يوحي بأنه حب لا يحكمه العقل، ويؤيد هذا قراءة الفعل بالعين، يقول أبو السعود: " وكان الشعبي يقول: الشغف حب والشغف جنون "^(٣٤).

وفي قولهن " إنا لنراها في ضلال مبين " التعبير بـ " نراها " يوحي بأن ما ذهبن

إليه من الحكم علي امرأة العزيز بالضلال لم يصدر جزافاً بل عن علم وتحقق، كما يشعر التعبير بالضلال المبين بأنهن يترفعن عن مثل هذا ويبرأن منه.

وفي قوله " فلما سمعت بمكرهن " لو أنه قال " فلما سمعت مكرهن " بحذف حرف الجر لكان الكلام صحيحاً علي الأصل في الاستعمال، لأن " سمع " من الأفعال التي تتعدي بنفسها دون واسطة حرف، فلا يكون التعدي بالباء إذاً إلا لسرّ لعلّه يتصل بمعنى هذه الباء الذي تستمده من دلالة السياق فإنها تفيد معنى الملابس، والمعني: فلما سمعت ما يتصل ويلابس مكرهن، أي لما سمعت الأقاويل التي صدرت عن مكر، والحقيقة أن هذه الأقاويل كان لها أصل من الواقع، فلماذا اعتبر القرآن صدورها عن مكر؟ ذلك لأن النسوة تمادين في الظنّ والتخيّل واستنتاج أشياء كان يمكن أن ترتب على المراودة وفي قولهن " امرأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا... " يمكن أن يضمن عن طريق التعريض ما يدور في أنفسهنّ وسماه القرآن مكرراً، ولهنّ العذر في تخيّل ما تخيّلنه، لأن ما يتصوّرنه طبعي ومتوقع لو أن الأمر يتصل بغير يوسف ونحوه ممن اصطفاهم الله سبحانه وطهرهم.

وهكذا نمضي مع المشهد إلي نهايته لنجد كلمات متخيرة في مواقعها تكمل ضلال المشهد وتوحي بملاساته، وكلمات القرآن من الدقّة وحسن التخيّر بحيث تجدها ثرية الدلالة علي نحو لا نجده في كلام آخر، ولك أن تتخير ما نراه أنموذجاً رفيعاً من كلام البشر، ثم تتبع إيجاء كلماته فنجده يتضاءل بجانب ما نجده في القرآن.

علي أن في القرآن الكريم ميزة لا تتحقق في كلام بشر هي تعدد مصادر الإيجاء في الكلمة الواحدة، فنجد الكلمة موحية بجرسها وبالظلال المتعلقة بها والتي تستمدها من أصل استعمالها، كما سبق في كلمة " تراود " وفي كلمة " شغفها "

وعلي الرغم من تحقق الإيجاء في بعض كلام الناس، فإننا لا نكاد نجد كلمة واحدة قد تعددت مصادر إيجاءاتها.

وميزة أخرى تتصل بإيجاء التراكيب أو ظلالها، فإن القرآن يسقط كثيراً مما يمكن أن يقال لكنه مفاد من وراء التراكيب، والقرآن بهذا مجال خصب لدرس التعريض والتلويح أو ما يسمي بمستتبعات التراكيب^(٣٥)

ويقودنا هذا إلى إحياء من نوع آخر لا يعود إلى أصوات الكلمات، إنما يعود إلى الدلالات الهامشية للألفاظ والعبارات، فما كان من هذا الإحياء حسناً جاء حرص النص عليه بالألفاظ، وما كان سيئاً ممجوجاً أطرح النص ما يؤدي إليه من ألفاظ أو عبارات ومن ذلك ما يلي:

١- في المقابلة بين قصة زكريا وقصة مريم في سورة آل عمران، سأل زكريا ربه: " أني يكون لي غلام " (آية ٤٠) وسألت مريم ربهما " أني يكون لي ولد " (٤٧) فأجاب زكريا بقوله: " كذلك الله يفعل ما يشاء " وأجاب مريم بقوله: " كذلك الله يخلق ما يشاء ". ذلك أن التعبير بلفظ " يفعل " في حالة زكريا لا يثير خواطر سيئة، لأن زكريا وامرأته زوجان فلا شبهة إن حملت المرأة، لأن زوجها بجانبها، وقد كان إخصابها بواسطة تسخير زوجها لذلك والتسخير والإخصاب من فعل الله، أما في حالة مريم فإن التعبير بلفظ " يفعل " ربما أثار خواطر سيئة فاللفظ غير مناسب، ومن هنا جاء الفعل " يخلق " .

٢- في قصة يوسف: " وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ " (يوسف: ٢٠) للفعل " شري " معنيان ضدان:

أ- أول المعنيين " اشترى " ومنه قول عنتره:

حصاني كان دلال المنايا
فخاض غمارها وشري وباعا

فالتطابق بين " شري " و " باع " يدل على أن " شري " بمعنى " اشترى " .

ب- الثاني معني " باع " وهو المعنى المقصود في هذه الآية وقرينة المعنى لفظ " بثمان "، وكذلك لفظ " الزاهدين " لأن الزهد في شيء يتنافى مع شرائه ودفع الثمن له، ولكن ينسجم مع بيعه، ولكن الآية (تكريماً لنبي الله يوسف) لم تعبر عن بيعه بلفظ البيع الذي يكون للعبيد، وإنما جاءت بلفظ هو من الأضداد، ليكون التعبير به تخفيفاً لوقع العبارة في النفس.

ج- " وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ " (يوسف ٢٣).

تجنّب الآية لفظ " سيّدته " تكريماً له وتحقراً لها، وهذا شبيه بما في الآية الأخرى: " وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ " فليس هو سيداً ليوسف وليست هي سيّدة له ومما يدلّ على إرادة تجنّب لفظ السيادة في حالة يوسف بذاته قوله تعالى: " وَالْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ " (يوسف ٢٥) فجعله سيّدها ولم يجعله سيّده أما قول يوسف " إِنَّهُ رَبِّي " (يوسف ٢٣)، فذلك كلام يوسف وليس كلاماً عن يوسف.

د- " يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ " (يوسف ٤٦).

آخر أداة النداء ليكون تعبيراً عن رأي الفتى في يوسف وأنه يعدّه صديقاً بعد ما رأى من حسن سيرته ودعوته إلي ترك عبادة الأرباب المتفرقين إلى عبادة الله الواحد القهار. ولو قال: " أيها الصديق يوسف " لأوحي بأن لفظ الصديق كان لقباً متعارفاً له ينادي به كما ينادي " الشيخ فلان ".

هـ- " اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ " (يوسف ٩٣).

" فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَدَ بَصِيرًا " (يوسف ٩٦).

في الآية الأولى استعمل فعل الإتيان وفي الثانية فعل الارتداد . ذلك أن مطلب يوسف في الآية الأولى كان معلقاً بإتيان أبيه وأهله أجمعين إلى مصر . أما الآية الثانية فالكلام فيها عن المعجزة، معجزة ردّ البصر بعد فقدّه، بالإضافة إلى ذلك ما في مطلب المشاكلة في الآية الأولى بين " يأت " و " اتنوني " (٣١)

بد انسجام التأليف:

يقصد بالتأليف أن تتخذ المفردات مواقع معينة في تشكيل لغوي مفيد، فالتأليف هو النظم وهو التشكيل، ولكن عندما يكون الحديث عن التشكيل الذي ترد إليه موسيقية اللغة وانسجام تأليفها وبلاغة إيقاعها، ولا يتم ذلك إلا بحسن توزيع المواقع، ودقة ترتيب وتركيب الكلمات، فيقول الجاحظ: " جماع البلاغة حسن الموقع... وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلي جنب أختها مرضياً موافقاً كان

علي اللسان عند إنشاء الشعر مئونة، وأجود الشعر ما رأيتَه متلاحم الأجزاء سهل المخارج، فتعلم أنه أفرغ إفراغاً جيداً، وسبك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان"^(٣٧).

وتكاد تنحصر أسباب انسجام التأليف في النسيج الصوتي للمفردات التي تتشكل منها الجملة حيث تتكون الكلمة في التشكيل المنسجم من حروف ذات صفات معينة تتناغم مع المعني والجو الذي يدور في إطاره النص، وهذه الميزة وإن تحققت في كلام الأدباء والشعراء فإنها عزيزة المنال قلما نجدها عند أديب أو شاعر.. أما القرآن الكريم كتاب الله المعجز، فتتحقق فيه بشكل مطرد، حيث يتضح فيه تختيار النسيج الصوتي للكلمات بما يقرب الشعور بالمعني ويعمق الإحساس بالمضمون ومن ذلك قوله تعالي في قصة نوح عليه السلام: "قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُنْتَعِبُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ" (سورة هود: ٤٨).. نلاحظ اجتماع سبع ميمات في أربع كلمات: "أمم ممن معك وأمم" وتزيد هذه الميمات فتصل تسعاً مع النطق والقراءة التجويدية حيث تضعف الميم الثانية في "مِمْن" وتقلب النون ميماً فيها وتدغم في الميم بعدها، حتى ينشأ من هذا أن الكلمات الأربع تكاد تكون كلها ميمات، والعبرة في كيفية النطق بهذه الميمات وما يحدثه من ضم شديد في الصوت يصحبه ضم شديد متوال للشفتين عند أداء هذه الميمات الملتصقة...

من البدهي أن الآية بأدائها الصوتي تعكس ما كان عليه أصحاب نوح عليه السلام والذين معه من اجتماع وانضمام حول مبدأ واحد وعقيدة واحدة، والاجتماع حول مبدأ والالتفاف من حوله يولد في نفوس المجتمعين إحساس الانتماء الشديد والضم اللصيق وخصوصاً في مثل تلك الظروف التي كان عليها أصحاب نوح في السفينة، وبهذه الأصوات والحروف نقل إلينا القرآن الكريم هذا المعني المقرون بتلك الأحاسيس.. وكان يمكن أن يقال: اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلي من اتبعك، ويكون هذا مؤدياً للمعنى الأول المباشر، ولكن ليس هذا هو مجرد ما يريده التعبير القرآني، إنه يريد خلق التجاوب النفسي مع هذه الصحبة المباركة وأن يخلق

الإحساس برضا الله عليهم، وأن يولد في نفس كل مستمع الإحساس الشديد بالضم والالتصاق بمجرد أن يلتقط سمعه هذه الميمات المتضامنة الملتصقة (٣٨).

جـ إيقاع الصيغ:

عندما تكون صيغ المفردات في العبارة متخيرة دقيقة فإنها تحدث قوة في السبك وجمالاً في التناسق، فضلاً عما تحدثه من إيقاع خاص ينسجم مع دلالة الجملة والعبارة، ولا شك أن تناغم دلالة المفردات يؤدي تلقائياً إلى تناغم صيغ تلك المفردات عند من اختلطت في نفسه فطرة اللغة وأوتي حظاً من ملكة حسن التعبير، والقرآن الكريم يبلغ القمة في ذلك، ومثال ذلك ما يقصّه عن سليمان عليه السلام يتوعد الهدهد الذي غاب عن عينه من غير إذنه "لَأَعَذَّبَنَّ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنَّيَ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ" (سورة النمل: ٢١). نجد صيغة: "لأعذبه" و "لأذبحنه" و "ليأتيني" - وهي مؤكدة باللام والنون الثقيلة تحدث جرساً وضغطاً عند النطق بها بما يصور الغضب والتهديد اللذين يسودان في هذا الموقف، وفضلاً عن هذا يحدث من توالي التوكيد باللام والنون خاصة إيقاعاً خاصاً يتناسب مع قوة المعنى (٣٩).

وهكذا ترقى القيمة الصوتية إلى حكاية معنى عرفي رصده المعجم للفظ أو معني طبيعي مما تستوحيه النفس ولا تستطيع وصفه، فإن أمكن أحياناً أن نشير إليه من بعد فإننا لا نستطيع تفسير العلة التي جعلته موحياً علي هذا النحو، فمثل التأثير به كمثل المتأثر بالحن الموسيقي نظرب له ولا ندري لماذا، وهكذا يمكن أن ننسب إلى التفخيم مثلاً إحياء بالمبالغة في إيقاع الحدث أو في الوصف، فإذا سألنا أنفسنا عن السبب في ذلك لم نستطع لهذا السؤال جواباً، والذي جئنا به هنا من الشواهد، إنما هو نماذج مما نجده في النص القرآني من استعمال حكاية الصوت للوصول إلى أغراض إيحائية بالمعاني الطبيعية التي تضيف إلى المعاني العربية للألفاظ أبعاداً إضافية ما كان لها أن تتحقق لولا ما تحمله حكاية الصوت من طاقة إيحائية (٤٠).

- (١) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ١٤١.
- (٢) ابن منظور: لسان العرب، ج٤، ص ٢٨١٧.
- وفي التنزيل العزيز "وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء". قال الفراء: يقول القائل كيف وصفهم. بأنهم لا يعجزون في الأرض ولا في السماء، وليسوا في أهل السماء؟ فالمعني ما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء بمعجز.
- وقال أبو إسحق: معناه، والله أعلم، ما أنتم بمعجزين في الأرض ولا لو كنتم في السماء.. وقال الأخفش: معناه ما أنتم بمعجزين في الأرض، ولا في السماء أي لا تعجزوننا هرباً في الأرض ولا في السماء.
- قال الأزهري: وقول الفراء أشهر في المعني ولو كان قال: ولا أنتم لو كنتم في السماء بمعجزين لكان جائزاً؛ ومعني الإعجاز الفوت والسبُّ. ويقال أعجزني فلان أي فاتني، ومنه قول الأعشي: فذاك ولم يعجز من الموت ربه... ولكن أتاه الموت لا يتأبى
- انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج٤، ص ٢٨١٧.
- (٣) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص ٦٠.
- (٤) سورة البقرة: ٢٣ و ٢٤. ويشير صاحب إعجاز القرآن إلي ما في هاتين الآيتين من معاني خفية بقوله: "وعندما نتأمل نظم هاتين الآيتين نجد عجباً، فقد بالغ في احتياجهم واستفزازهم ليثبت أن القدرة فيهم على المعارضة كقدرة الميت على أعمال الحياة: لن تكون ولن تقع، فقال لهم: لن تفعلوا، أي هذا منكم فوق القوة وفوق الحيلة. وفوق الاستعانة وفوق الزمن، ثم جعلهم وقوداً، ثم قرنهم الى الحجارة، ثم ساهم كافرين، فلو أن فيهم قوة بعد ذلك لانفجرت. ولكن الرماد غير النار.
- انظر: مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ١٧٠.
- (٥) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج٤، ص ١٨٦١.
- (٦) الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده والسيد محمد رشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم المشتهر باسم تفسير المنار. ج١، ص ١٩٣. الطبعة الثالثة، دار المنار، القاهرة، ١٣٦٧هـ.
- (٧) أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني: إعجاز القرآن. ص ١٩٥، تحقيق السيد أحمد صقر. دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٦٣.

وقد أشار الباقلاني إلى الوجوه والمعاني التي يشتمل عليها نظم القرآن وتأليفه وبلاغته فذكرها في عشرة وجوه: المعني الأول: ما يرجع إلي جملته.

المعني الثاني: كون كلام العرب غير مشتمل علي فصاحة القرآن وغرابته ولطيف معانيه، وغزير فوائده، وما إلي ذلك.

المعني الثالث: عدم التفاوت والتباين في عجب نظم القرآن، وبديع تأليفه
المعني الرابع: كون كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً ظاهراً في الفصل والوصل والعلو والنزول وغير ذلك.

المعني الخامس: كون نظم القرآن - من حيث البلاغة خارجاً عن عادة كلام الثقيلين . ودفع ما قد يرد علي ذلك

المعني السادس: اشتغال القرآن علي جميع أنواع الخطاب عند العرب، مع تجاوزه حدود المعتاد بينهم.

المعني السابع: تضمن القرآن ما يمتنع عن البشر من المعاني في أصل وضع الأحكام والقواعد والاحتجاج في العقائد والردّ علي المعاني.

المعني الثامن: كون الكلمة من القرآن يتمثل بها خاصة في تضاعيف كلام كثير.

المعني التاسع: كون الحروف التي بني عليها كلام العرب: تسعة وعشرين حرفاً . مع أن عدد سور القرآن - المفتحة بذكر الحروف: ثمان وعشرون سورة، وجملة الحروف المذكورة في أوائل السور أربعة عشر حرفاً.

المعني العاشر: سهولة سبُل القرآن، وخروجه عن الوحشي المستكره، والغريب المستنكر، وبعده عن التصنّع والتكلف، وقربه إلي الفهم.

انظر: المرجع السابق، ص ٣٥ - ٤٧.

(٨) أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي: مفتاح العلوم، ص ٢٤٢ - ٢٤٣، الطبعة الأولى . مطبعة مصطفى البابي الحلبي، وأولاده بمصر، سنة ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م.

(٩) الإمام عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص ٤٢، صحح أصله الاستاذ محمد عبده. تصحيح وتعليق وطبع السيد محمد رشيد رضا . ط ٦، مكتبة ومطبعة محمد صبيح وأولاده. القاهرة، سنة ١٩٦٠م.

(١٠) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص ٦٥.

(١١) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص ٦٥ - ٦٦.

(١٢) عبد الكريم الخطيب: الإعجاز في دراسات السابقين . ص ٨٧ - ٨٨ دار الفكر العربي ط ١، القاهرة، ١٩٧٤،

(١٣) السيوطي: الإتيقان في علوم القرآن، ج٢، ص ١١٦.

(١٤) عبد الكريم الخطيب: الإعجاز في دراسات السابقين، ص ٨٩ - ٩١.

(١٥) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ٦٧.

- (١٦) د. أحمد أحمد بدوي: أسس النقد الأدبي عند العرب، ص ٣٩، دار نهضة مصر. القاهرة، بدون تاريخ.
- (١٧) السكاكي: مفتاح العلوم، ص ١٩٧-١٩٨.
- (١٨) انظر: عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٣٦.
- (١٩) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ١٦٧.
- (٢٠) لقد جاءت آيات الأقصوصة كلها علي وزن يكاد يكون واحداً، أشبه بشرط البيت من الشعر، وجاءت الفواصل كلها علي صورة واحدة، أشبه بالقافية في الشعر، حرف الروي فيها هو الراء مسبوقة بحرفين متحركين قبلها.
- (٢١) عبد الكريم الخطيب: الإعجاز في دراسات السابقين، ص ٤٠٤.
- (٢٢) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ١٦٧.
- (٢٣) المرجع السابق: ص ١٦٨-١٦٩.
- (٢٤) المرجع السابق: ص ١٨٥-١٨٦.
- (٢٥) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص ١٦٧.
- (٢٦) المرجع السابق: ص ١٨٥-١٨٦.
- (٢٧) محمد بن قسيم الجوزية: التفسير القيم، ص ٣١٤-٣١٥، مصر، سنة ١٩٤٩، وانظر: د. التهامي نفرة. سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٤٩٦-٤٩٨.
- (٢٨) د. محمد إبراهيم. البلاغة الصوتية في القرآن الكريم. ط ١. ص ١١. الرسالة. القاهرة ١٩٨٨.
- (٢٩) المرجع نفسه. ص ١١-١٢.
- (٣٠) عباس محمود العقاد. اللغة الشاعرة. مكتبة غريب. ص ٧٣. القاهرة بدون تاريخ.
- (٣١) د. محمد إبراهيم شادي. البلاغة الصوتية في القرآن الكريم. ص ٣٨-٣٩.
- (٣٢) د. تمام حسان. البيان في روائع القرآن. الجزء الأول. ص ٢٠٦. مكتبة الأسرة. القاهرة ٢٠٠٢.
- (٣٣) ابن منظور: لسان العرب. ج٣. ص ١٧٧٤ مادة (رود).
- (٣٤) أبو السعود: إرشاد العقل السليم. ط ١. ص ٦٦. المطبعة المصرية - ١٣٤٧هـ.
- (٣٥) د. محمد إبراهيم شادي. البلاغة الصوتية في القرآن الكريم. ص ٤٤-٤٨.
- (٣٦) د. تمام حسان: البيان في روائع القرآن. الجزء الأول. ص ٢١٢-٢١٤.
- (٣٧) الجاحظ: (أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب): البيان والتبيين ص ٥١. تحقيق عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي بالقاهرة. ١٩٦٨.
- (٣٨) د. محمد إبراهيم شادي. البلاغة الصوتية في القرآن الكريم. ص ٥٢-٥٣.
- (٣٩) المرجع السابق. ص ٥٩.
- (٤٠) د. تمام حسان: البيان في روائع القرآن. ج١. ص ٢٠٨.

الخاتمة

لا شك أن القصص إحدى الأساليب الرسالية التي تضمّنها القرآن الكريم من أجل الوصول إلى عقل الإنسان وشعوره، حتى يؤمن عن اقتناع بالفكرة - الحق - التي ترتبط بالله وبالطريق المستقيم الذي يصل بالإنسان إلى لبّ الإيمان بالله عزّ وجلّ. وربما أن هذا القصص بعض القرآن فيثبت لها ما يثبت لجميعة من إعجاز آياتها المشتملة على أسلوب القرآن التصويري المعجز في وحدة فنية رائعة، لذا كان - وما يزال - القصص القرآني أدب فني متكامل لأنه من عند الله سبحانه وتعالى. وهو الأمر الذي سبق أن أثبتناه في ثنايا البحث وتمكّننا بعده من أن نخرج ببعض النتائج منها:-

أولاً: أثبت البحث أن العرب في جاهليتهم وإسلامهم كانوا يتمتعون بدوق أدبي راق يدل على ذلك مقدار ما بلغته هذه الأمة العربية حينذاك من الفصاحة والبلاغة ويكفي دليلاً على فصاحتهم وبلاغتهم من أنهم استوعبوا فهم القرآن الكريم ووعوه على الرغم من أسلوبه الرفيع المعجز.

ثانياً: إن عناصر القصة قد لا تجتمع كلها في كل قصة، وإنما لكل عمل فني ظروفه التي تخضع لظروف المؤلف، وتصرفه فيما يقصّ من أحداث وشخصيات، وكيف يتدخل فنياً في عرضها، مع الأخذ في الاعتبار أن هذه العناصر تحتاج إلى مواهب فنية حتى تحسن الاستفادة منها واستخدام ما هو ضروري في بناء حبكة القصة، فأحياناً يلعب أحد العناصر القصصية دوراً رئيساً في قصة ما، بينما هناك قصة أخرى قد تخلو منه تماماً دون أن يمسّ هذا - في شيء - روعة القصة وتماسك بنائها الفني.

ثالثاً: إن الإيحاءات التي يتضمنها القصص القرآني، لا يمكن استيعابها جملة، فالنصوص القرآنية تفسح عن إيحاءاتها لكل قلب بحسب ما هو فيه من الشأن، وبقدر حاجته الظاهرة إليه، ويبقى لها رصيدها المذخور تفتح به علي القلوب، في شتى المواقف علي قدر مقسوم . فالقرآن الكريم يتمثل في قصصه الصورة الأدبية الكاملة المتكاملة، التي يجد فيها كل ذوق ما يلائمه، ولكل امرئ ناحية يتأثر بها، ويستجيب لها، حسبما تعينه ملكاته ومداركه... والله سبحانه وتعالى لا يريد للعقل أن يتبدل فيعطيه كل شيء يلغي الفكر، ولكنه يريد للذهن أن ينشط وأن يفكر ويتدبر.

رابعاً: في القرآن الكريم أبناء لا تبلغ حدّ القصص خلافاً لما توهمه بعض الباحثين والقرآن لم يسمّها قصصاً لأنّها ليست أحداثاً ماضية، ولا لخلوّها عن تتبّع الآثار الماضية فقط .. ولكن لأنه ليس فيها إمداد في التصوير فهي في حدّ ذاتها لا تصلح للتسمية بالقصة لعدم انطباق العبرة ووضوح الرؤية للغرض القصصي الأصيل.

خامساً: إن القصص القرآني أحداث تاريخية واقعية لم تتلبس بشيء من الخيال، ولم يدخل عليها شيء غير الواقع، ومع هذا فقد اشتمل علي ما لم يشتمل عليه غيره من القصص من الإثارة والتشويق مع قيامه علي الحقائق المطلقة - الأمر الذي لا يصلح عليه القصص الأدبي بحال أبداً.

سادساً: إن القرآن الكريم لم يقتصر علي عرض لوحات مجردة لماضي الإنسانية في صراع قوي الخير والشر، وإنما كان يهدف إلى بعث المثال من التاريخ، لإثارة الانفعالات المؤدية إلى الهداية والإيمان والاستفادة من الأحداث التاريخية في التربية ومعالجة النزعات النفسية في الإنسان، وأمراض المجتمع الذي يعيش فيه بما لتلك الأحداث من قوة مفروضة علي النفس تحدث فيها انصهاراً ووعياً وبقظة وإحساساً.

سابعاً: إن وجود المرأة في القصص القرآني أو عدم وجودها، ليس له وزن في حساب هذا القصص، إلا من حيث تقرير الواقع، وما يقضي به منطق الحدث الذي

تصوّره القصة القرآنية وتعرضه منها، وكان لها مكانها البارز فيه كأنموذج من نماذج الحياة الإنسانية، التي تلتبس منها العبرة والموعظة أما إذا لم يكن للمرأة هذا الواقع الحقيقي في الحدث، ولم يكن لها أثر في إبراز عبرة أو موعظة، فإنه لا يكون للمرأة مكان في القصة القرآنية بحال أبداً، لأن القرآن الكريم إنما ينقل قصصاً من واقع الحياة الماضية ويبعث الأحداث الغابرة من مرقدها علي النحو الذي كان من قبل، وعلي ما كان لها من موقف في الحدث الذي تنقله القصة القرآنية .. وليس من أهداف القصة القرآنية أن تستعرض أمثلاً لحبّ وهوي المرأة وعاطفتها، إن لم يكن ذلك لحكمة أرادها الحق سبحانه وتعالى مثلاً وعبرة لأولي الألباب.

ثامناً: إن القصص القرآني دروس في العقيدة، ودروس في الوحدانية المطلقة، وإن كان ثوبه ثوب القصة، وفيه من الجمال التعبيري والتصوير الفني ما يأخذ بالألباب، فإنما كل ذلك لخدمة العقيدة والإيمان بالآلوهية الواحدة.

تاسعاً: إن عرض الشخصية الواحدة في أكثر من سورة من سور القرآن الكريم لا يُعدّ تكراراً ولا تناقضاً، وإنما هو - الاستجابة للأحداث والمواقف والغاية من القصة، لأن الشخصية في القصة القرآنية ليست مقصودة لذاتها، ولأن عرض الحديث كذلك - ليس مقصوداً لذاته، وإلا لجمعت كل أحداثها، ورتبت ترتيباً زمنياً أو فنياً، ثم ذكرت مع شخصيتها في قصة واحدة، وإلا أصبح لكل قصة معرض واحد تقدم فيه كاملة الأحداث والمشاهد سواء تطلبها المعرض كاملة أم لم تطلبها .. ولم يسر القرآن هذا المسار في قصصه ولكنه يعرض للشخصية مع حدث معين من أحداثها فيمزج بينهما، ثم يقدم الشخص متفاعلاً بذلك الحدث لا غير، لتري العظة والعبرة من خلال هذا النموذج مع ذلك الحدث، ثم تنتهي المشاهد المصوّرة، وتطوي القصة نفسها مع حدث آخر جاءت له حلقة أخرى - أو قصة أخرى - ذات مضمون جديد، ون تراءت تكراراً لما سبق في صورة أخرى.

عاشراً: إن القصص التاريخية في القرآن الكريم ليست هدفاً في حدّ ذاتها، وإنما تهدف إلى إثارة الفكر البشري، ودفعه إلى التساؤل والبحث باستمرار والهدف هنا

عملي علمي وتربوي أيضاً، فالقرآن يصرّح في وضوح أن ثمة قوة في الحق، وأن الفشل يحقق بالباطل في النهاية، فما يناله الإنسان، فرداً وجماعة، يكون نتيجة طبيعية للدور التاريخي الذي مارسه، ومن ناحية أخرى، يوضح القرآن الكريم أن التغيير التاريخي لا يحدث فجأة، إذ يحدث تراكم بطيء عبر الزمان للأسباب التي ينتج عنها تغير تاريخي كبير بعد فترة زمنية طويلة. وهذا ما لم يتوفر في قصص عديدة وردت في التوراة. ومن هنا يمكن القول إن التفاصيل التاريخية ليست من المقاصد التعليمية في قصص القرآن الكريم، فبعد الحادثة أو قربها في الزمان والمكان لا يؤثر فيها تحمل من عظة وعبرة.

الحادي عشر: مع أن القصص القرآني ذات هدف ديني بحت، حيث يأتي للموعظة والتربية والتوجيه إلا أنه يُعنى مع ذلك بكل مطالب الفن القصصي الخالص.

المصادر والمراجع

• المصادر:

القرآن الكريم

• المراجع:

- ١- إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم . مطبعة السعادة . الطبعة الأولى . القاهرة . سنة ١٩٧٧ .
- ٢- ابن حزم الظاهري الأندلسي: الفصل في الملل والأهواء والنحل . مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده . القاهرة . سنة ١٣٨٤هـ .
- ٣- أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن . كتاب الشعب . القاهرة بدون تاريخ .
- ٤- أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني: إعجاز القرآن . تحقيق السيد أحمد صقر . دار المعارف . القاهرة . سنة ١٩٦٣ .
- ٥- أبو سليمان محمد الخطابي: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن . تحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام: القاهرة بدون تاريخ .
- ٦- أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية . ضبطه وحققه حسام الدين القدسي دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . بدون تاريخ .
- ٧- -: الصناعتين . الطبعة الأولى . القاهرة . بدون تاريخ .
- ٨- أبو يعقوب أبو بكر محمد علي السكاكي: مفتاح العلوم . الطبعة الأولى . مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م .
- ٩- أحمد أحمد بدوي: أسس النقد الأدبي عند العرب، دار نهضة مصر، القاهرة . بدون تاريخ .

- ١٠ - أحمد أمين: ضحي الإسلام. مطبعة الاعتماد بمصر سنة ١٩٣٤ م.
- ١١ - أحمد عز الدين عبد الله خلف الله: يوسف بن يعقوب عليهما السلام. الطبعة الأولى. مطبعة السعادة. القاهرة. سنة ١٩٧٨ م
- ١٢ - إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي: تفسير القرآن. مكتبة دار التراث القاهرة. بدون تاريخ.
- ١٣ - أنور الجندي: خصائص الأدب العربي. دار الكتاب اللبناني بيروت. بدون تاريخ.
- ١٤ - التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن. تونس. سنة ١٩٧٤.
- ١٥ - الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: الإتقان في علوم القرآن. ج٢. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. الطبعة الثالثة - دار التراث. القاهرة. سنة ١٩٨٥ م.
- ١٦ - السيد تقي الدين: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم. دار إحياء الكتب العربية. القاهرة. سنة ١٩٨٤ م.
- ١٧ - السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن. دار الكتاب اللبناني. الطبعة الأولى. بيروت ١٩٧٢ م.
- ١٨ - الطاهر أحمد مكي: القصة القصيرة. دار المعارف. الطبعة الرابعة. القاهرة. سنة ١٩٨٥ م.
- ١٩ - القاضي أبو الحسن عبد الجبار: المغني في أبواب التوحيد والعدل. تحقيق أمين الخولي، دار الكتب المصرية. القاهرة. ١٩٦٠.
- ٢٠ - بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. مكتبة دار التراث. الطبعة الثالثة. القاهرة. بدون تاريخ.
- ٢١ - بكري شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن. الطبعة الثانية. دار الشروق. القاهرة. سنة ١٩٧٦ م.

- ٢٢- حفني محمد شرف: إعجاز القرآن البياني. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية . الكتاب الرابع. القاهرة. سنة ١٩٧٥ م.
- ٢٣- درويش الجندي: النظم القرآني في كشف الزمخشري . طبعة نهضة مصر. سنة ١٩٦٩ م.
- ٢٤- رشاد رشدي: فن القصة القصيرة. الطبعة الأولى - مكتبة الأنجلو . القاهرة. سنة ١٩٥٩ م.
- ٢٥- سعد الدين التفتزاني: تهذيب المنطق. مصر . سنة ١٣١٥ هـ.
- ٢٦- سيد قطب: في ظلال القرآن . دار الشروق: الطبعة الثانية عشر . القاهرة. سنة ١٩٨٦ م.
- ٢٧- —: التصوير الفني في القرآن . دار المعارف . الطبعة الثامنة . القاهرة . سنة ١٩٧٥ .
- ٢٨- —: النقد الأدبي. أصوله ومناهجه . دار الفكر العربي . القاهرة. بدون تاريخ.
- ٢٩- شوقي عبد الحكيم: أساطير وفولكلور العالم العربي. روز اليوسف. القاهرة. بدون تاريخ.
- ٣٠- صادق إبراهيم عرجون: الحياة الأدبية عند العرب قبل الإسلام. بيني وبين الأستاذ محمد فريد وجدي . مطبعة الإرشاد. القاهرة . سنة ١٩٣٦ م.
- ٣١- عباس محمود العقاد: جحا الضاحك . دار نهضة مصر. القاهرة. بدون تاريخ.
- ٣٢- —: المرأة في القرآن. دار نهضة مصر. القاهرة . بدون تاريخ.
- ٣٣- —: الإنسان في القرآن الكريم. دار الهلال . القاهرة. سنة ١٩٧١ م.
- ٣٤- عبد الحليم محمود: في رحاب الأنبياء والرسل. كتاب اليوم. العدد ٢٩٣. القاهرة. سنة ١٩٨٩ م.
- ٣٥- عبد الرازق أحمد قنديل: الأثر الإسلامي في الفكر الديني اليهودي. مركز بحوث الشرق الأوسط. دار التراث . القاهرة . سنة ١٩٨٤ م.

- ٣٦- عبد الظاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني. صحح أصله الأستاذ محمد عبده . تصحيح وتعليق وطبع السيد محمد رشيد رضا. الطبعة السادسة. مكتبة ومطبعة محمد صبيح وأولاده. القاهرة . سنة ١٩٦٠م.
- ٣٧- عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني في منظوقه ومفهومه. دار الفكر العربي. القاهرة. سنة ١٩٦٥م.
- ٣٨- —: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام. دار الفكر العربي . القاهرة. سنة ١٩٧٤م.
- ٣٩- —: الإعجاز في دراسات السابقين. دار الفكر العربي. الطبعة الأولى. القاهرة . سنة ١٩٧٤م.
- ٤٠- عبد المجيد عابدين: الأمثال في النثر العربي القديم. الطبعة الأولى. دار مصر للطباعة. القاهرة. سنة ١٩٥٦م.
- ٤١- عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء. مطبعة مصر . الطبعة الثالثة. القاهرة . سنة ١٩٥٣م.
- ٤٢- علي الجندي: في تاريخ الأدب الجاهلي. دار المعارف . القاهرة. سنة ١٩٨٤م.
- ٤٣- علي النجدي ناصف: القصة في الشعر العربي إلى أوائل القرن الثاني الهجري. دار نهضة مصر . القاهرة. بدون تاريخ.
- ٤٤- علي اليمني دردير: أسرار الترادف في القرآن الكريم. دار ابن حنظل القاهرة. سنة ١٩٨٥م.
- ٤٥- علي شلش: في عالم القصة . الطبعة الأولى. مطبعة دار الشعب . القاهرة . سنة ١٩٨٢م.
- ٤٦- علي عبد الواحد وافي: الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام. دار نهضة مصر. القاهرة. بدون تاريخ.
- ٤٧- —: المرأة في الإسلام. دار نهضة مصر . الطبعة الثانية. القاهرة. سنة ١٩٧٩م.

- ٤٨ - فاطمة الزهراء: العناصر الرمزية في القصة. دار نهضة مصر للطباعة والنشر. القاهرة. سنة ١٩٨٤ م.
- ٤٩ - فتحي أحمد عامر: المعاني الثانية في الأسلوب القرآني. منشأة دار المعارف. الإسكندرية. سنة ١٩٧٦ م.
- ٥٠ - فتحي رضوان: القصة القرآنية. كتاب الهلال. العدد ٣٣٢. القاهرة. سنة ١٩٧٨ م.
- ٥١ - فتحي عبد القادر: من بلاغة القرآن الكريم في سورة يوسف عليه السلام. الطبعة الأولى. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. سنة ١٩٨٠ م.
- ٥٢ - فؤاد علي رضا: من علوم القرآن. الطبعة الثانية. لبنان. سنة ١٩٨٣ م.
- ٥٣ - قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ. قراءة في التراث التاريخي العربي. الطبعة الثانية. دار المعارف القاهرة. سنة ١٩٨٥ م.
- ٥٤ - مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية. ترجمة عبد الصبور شاهين. دار الفكر. دمشق. سنة ١٩٨٥ م.
- ٥٥ - محمد أبو الأنوار: من قضايا الأدب الجاهلي. مكتبة الشباب. القاهرة. سنة ١٩٧٩ م.
- ٥٦ - محمد أحمد العزب: عن اللغة والأدب والنقد. رؤية تاريخية ورؤية فنية. الطبعة الأولى. دار المعارف. القاهرة. سنة ١٩٨٠ م.
- ٥٧ - محمد أحمد الغمراوي: الإسلام في عصر العلم. إعداد: أحمد عبد السلام الكرداني. دار الكتب الحديثة. القاهرة. سنة ١٩٧٨ م.
- ٥٨ - محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم. مكتبة الأنجلو. الطبعة الثالثة. القاهرة. سنة ١٩٧٢ م.
- ٥٩ - محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الإسلام. ترجمة عباس محمود. مصر. سنة ١٩٥٥ م.

- ٦٠- محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن . الطبعة الثالثة. المؤسسة الجامعية. بيروت. سنة ١٩٧٨م.
- ٦١- محمد حسين هيكل: ثورة الأدب. دار المعارف. القاهرة. سنة ١٩٧٨م.
- ٦٢- محمد خليفة حسن: علاقة الإسلام باليهودية. دار الثقافة. القاهرة. سنة ١٩٨٨م.
- ٦٣- محمد عبده والسيد محمد رشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم المشتهر باسم تفسير المنار. الطبعة السادسة. دار المنار . القاهرة. سنة ١٣٦٧هـ.
- ٦٤- محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث. دار نهضة مصر. القاهرة. بدون تاريخ.
- ٦٥- محمد فتوح أحمد: الرمز والرمزية في الشعر المعاصر. دار المعارف . مصر. سنة ١٩٧٠م.
- ٦٦- محمد قطب: منهج الفن الإسلامي. دار الشروق. القاهرة. الطبعة الرابعة . سنة ١٩٨٠م.
- ٦٧- محمد متولي الشعراوي: معجزة القرآن . كتاب اليوم. العدد ١٨٧. القاهرة. سنة ١٩٨١م.
- ٦٨- محمد مندور: الأدب وفنونه. دار نهضة مصر. القاهرة. بدون تاريخ.
- ٦٩- محمود تيمور: دراسات في القصة والمسرح. المطبعة النموذجية . القاهرة. بدون تاريخ.
- ٧٠- مصري عبد الحميد حنورة: الأسس النفسية للإبداع الفني في الرواية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة . سنة ١٩٧٥م.
- ٧١- مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. دار الفكر العربي. القاهرة. بدون تاريخ.
- ٧٢- مصطفى علي عمر: القصة وتطورها في الأدب المصري الحديث . دار المعارف. القاهرة . سنة ١٩٨٢م.

• دوائر المعارف والمعاجم العربية:

- ١- جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب. ج٦. دار المعارف القاهرة. بدون تاريخ.
- ٢- محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. دار الفكر. الطبعة الثانية. القاهرة. سنة ١٩٨١.

• المجالات والدوريات العلمية العربية:

- ١- صبري حافظ: الخصائص البنائية للأقصوصة. مجلة فصول. المجلد الثاني. العدد السابع. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. سنة ١٩٨٢.
- ٢- عبد الصبور شاهين: الدلالة العميقة في الكلمة القرآنية. مجلة منبر الإسلام. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. العدد ١٠. السنة ٤٥. سنة ١٩٨٧ م.
- ٣- عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ. مجلة عالم الفكر. المجلد الثاني عشر. القرآن والسيرة النبوية. الكويت. سنة ١٩٨٢ م.
- ٤- قاسم عبده قاسم: تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية. مجلة عالم الفكر. المجلد العشرون. الكويت. سنة ١٩٨٩ م.
- ٥- محمد حسن عبد الله: الحبّ في التراث العربي. سلسلة عالم المعرفة. العدد (٣٦). الكويت. سنة ١٩٨٠ م.
- ٦- محمود محمد عمارة: الدعوة من خلال القصة القرآنية. مجلة منبر الإسلام. العدد (١١). المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة. سنة ١٩٨٨ م.

الفهرست

٧	مقدمة
١٥	المدخل: القصة وتطورها العام
١٦	تطور القصة في الآداب العالمية
١٨	فنّ القصة عند العرب
٢٢	عناصر القصة وخصائصها
٣٥	أدب القصة في القرآن الكريم
٣٥	تقديم

الفصل الأول

أنواع القصة في القرآن الكريم: عناصرها وأغراضها

٤٣	أولاً: أنواع القصة في القرآن الكريم
٤٣	- القصة التاريخية
٥٠	- القصة الواقعية
٥٣	- القصة التمثيلية
٥٦	- مفهوم الحب في القرآن الكريم
٦٤	- القصة الرمزية
٦٨	ثانياً: عناصر القصة في القرآن الكريم
٦٩	الأحداث
٧٤	العنصر الزمني
٨٢	العنصر المكاني
٩٢	الشخصيات

١١٠	الحوار
١١٨	ثالثاً: أغراض القصص القرآني
١٣٦	هوامش ومراجع المقدمة والفصل الأول
	الفصل الثاني
	الخصائص اللغوية والأسلوبية
١٤٧	مقدمة
١٤٩	أولاً: الخصائص اللغوية
١٥٠	الحروف وأصواتها
١٧١	الإعجاز في بلاغة الجملة في القصة القرآنية
١٨١	ثانياً: الخصائص الأسلوبية
١٩٠	هوامش ومراجع الفصل الثاني
	الفصل الثالث
	القصة بين الإكمال والتوزيع في القرآن الكريم
١٩٧	أ- توزيع القصة في القرآن الكريم: منهجه وأسلوبه
٢٢٠	ب- القصة الكاملة في القرآن الكريم
٢٣٥	هوامش ومراجع الفصل الثالث
	الفصل الرابع
	الإعجاز البلاغي والبياني في قصص القرآن الكريم
٢٤١	مفهوم الإعجاز في القرآن الكريم
٢٤٣	الإعجاز البياني في القصص القرآني
٢٤٤	البيان والبلاغة
٢٤٨	الإعجاز في المعاني والأفكار
٢٥١	الإعجاز الأسلوبي
٢٥٢	الإيجاز المعجز
٢٥٣	البلاغة الصوتية في القصة القرآنية
٢٥٣	الإيحاء

٢٦١

٢٦٣

٢٦٤

٢٧٣

٢٧٧

٢٨٤

انسجام التأليف

إيقاع الصيغ

هوامش ومراجع الفصل الرابع

الختام

المصادر والمراجع

الفهرست

يسمى هذا الكتاب من خلال أبوابه وفصوله في إمكان تأسيس وجه جديد من وجوه الإعجاز القرآني، وهو إعجازه القصصي، الذي كتبت حوله كثير من الدراسات، ولكنها لم تقترب بشكل كافٍ - كما حاول هذا الكتاب - من عناصر وخصائص هذه القصص كاللغة ومستوياتها والزمان والمكان، ومستويات السرد، وعلاقة السرد بالزمان، وبناء الشخصيات والأحداث، وأسلوب النظم في القصص القرآني، ودور هذه العناصر والخصائص الفنية، في إثبات أن القصص ليس بخيال وليس بأساطير، كما يدعي بعض المستشرقين، ومع هذا فهو يعتبر بشخصياته وخصائصه الفنية ومستوياته السردية، قمة الإثارة الجمالية، على الرغم من قيامه على الحقائق المطلقة، فمفهوم القصة في اللغة العربية هو الإخبار بالواقع، وتتبع آثار الحقيقة، وقد سجل القرآن الكريم على نفسه هذا المنهج في قوله تعالى: "إن هذا هو القصص الحق" (آل عمران من الآية 62)، الأمر الذي لا يصلح عليه القصص الأدبي بحالٍ أبدًا. وأهم ما يميز فصول هذا الكتاب هو سعيه لإثبات أن العقيدة عندما تنتزع بالمشاعر الروحية، فإنها تنطلق في أجواء فكرية رحبة تتعد عن جفاف الفكر، ولا تستسلم للعاطفة فقط.. ومن هنا كان هدف هذا الكتاب إثبات إعجاز القصص القرآني، لأن هذا القصص بعض القرآن، فيثبت لجميعه من إعجاز آياته المشتملة على أسلوب القرآن القصصي المعجز في وحدة فنية رائعة.

الإعجاز القصصي في القرآن